أحمد التوفيق

جارات أبي موسى

رواية



دار القبة الزرقاء

جارات أبي موسى

أحمد التوفيق

جارات أبي موسى

رواية

الطبعة الثانية



دار القبة الزرقاء

للنشر والخدمات الثقافية

حي الإنارة مجموعة 10 - الدار رقم 203 - مراكش - المغرب

الهاتف/الفاكس : 39.29.49 (04)

الكتاب : جارات أبي موسى
الكاتب : أحمد التوفيق
الناشـــر : منشورات دار القبة الزرقاء
الطبـعة : الثانية 1421-2000
حقـــوق : الطبع محفوظة
الغلاف : بوشعيب هبولي
المطبعـة : النجاح الجديدة – الدارالبيضاء
الإيـــداع : القانوني رقم 2000/626
ردمك : 9981-1820-0-1

إلى زينب وجمالة وغيثة

إلى محمد أيس ومحمد سمير وجاد ومحمد يوباس

1

وصل الخبير على ظهر جواد أدهم إلى مدينة سلا وأعلام صلاة يوم الجمعة ترفرف على صوامعها. وبعد أن تحقق حراس باب المريسة من هويته، أذنوا له بالدخول. جرى أمامه غلام من الحراس ليقوده توا إلى دار قاضي القضاة ابن الحفيد.

انتظر جالسا على دكة ظليلة في المدخل الأول لرياض القاضي مع مسخرين اثنين تعرفا على مهمته جملة وأخرجا إليه الماء البارد وبعض القرى، ودردشا معه بأخبار سلا وبما بلغ مسامعهما من أخبار فاس حضرة السلطان، وأخبار بلاد تامسنا التي قدم منها الخفير.

عاد القاضي ابن الحفيد من صلاة الجمعة ودخل رياضه من دار العيال. وبلغ إليه خبر المبعوث المخزني، فخرج إلى القبة الصغيرة بالمدخل الثالث للرياض ليستقبله.

حياه الخبير وقال: " أرسلني سيدي قاضي القضاة أبو سالم الجورائي مشاور مولانا السلطان لأقول لكم إنه في طريق عودته من تامسنا إلى فاس سينزل هو وحاشيته في ضيافتك بدارك هذه الليلة، ويهيب بك أن تخبر بنفسك عامل سلا والأعيان، الأدباء منهم خاصة، بقدومه."

استعظم ابن الحفيد هذا التشريف لمكانة الجورائي من السلطان ولأن هذا الإيثار سيرجح كفة نفوذه في المدينة على حساب العامل الذي لا ينعته القاضي في خاصته إلا باسم "المقيت".

دخل القاضي توا إلى دويرة صغرى زوجتيه طُميمة، هكذا يصغر هو اسمها بعد أن صغر أهلها اسمها الطام من طامو، وطامو

أصلا ترخيم من فاطمة. أما ابنه البكر من زوجته الكبرى الذي اشتهر بنبوغه في الشعر والفروسية معا. فقد أحجم غير ما مرة عن تنبيه أبيه إلى أن طميمة قد يكون تصغير طامة أي مصيبة. وذلك حتى لايجرح عواطفه.

أدركت طميمة أن طلب القاضي منها تدبير ضيافة أهم ممثل سلطاني نزل بدارهم لحد الآن إنما يعود إلى اعترافه بمهارتها الموروثة من تقاليد عريقة في دار والدها قاضي سجلماسة. مدينة التجارة القائمة على تبر السودان. وهي إن كانت حميراء في رقة عود البان كما يصفونها. كانت ذات مزاج حاد ينفعها في زرع الرعب في جميع من في الدار من العيال والخدم حتى ينجز كل شيء بأسرع ما يمكن وعلى أحسن ما يرام.

وصل خبر ضيافة الجوراني عند ابن الحفيد إلى العامل جرمون. وزاد به حنقه على القاضي الذي سيستغل هذا التميز ليزداد تمردا على هيمنته وسيتقهقر به نفوذه وهو المتطلع إلى الاستحواذ على كل السلطة في المدينة التي عين عليها منذ سنة جزاء له على خيانة قبيلته حيث تآمر عليها وجر عليها انهزاما أراح السلطان من تمرد دام عشر سنوات. ولكن جرمون لم يضيع الوقت اللازم لحشد موكب الاستقبال من الزفانين والمغنين والفرسان والنساء الحاملات لأعلام الفرحة ومن ذوات الزغاريد التي تثير الرعشة في النفوس ومن حفظة القرآن وتلاميذ الكتاتيب القارئين في الألواح.

خرج القاضي ابن الحفيد والعامل جرمون لاستقبال الضيف المرموق على ضفة نهر بوركراك. ووقفا بشخصيهما على استعدادات أصحاب الزوارق المعدة لضمان جواز المركب القادم. وشاهدا عشرات أصحاب الفلك الصغيرة وقد كونوا على مكان الجواز في النهر طوقا من المراكب الصغيرة الحاملة لعرائس القصب

المحلاة بأفخر ألبسة النساء من الحرير وعليها تيجان من نوار النورس وشقائق النعمان التي اقتطفت من حدائق سلا في فصل ربيع رائق.

التحقت أفواج المرحبين بالقاضي والعامل ووقف أعيان القضاة والمفتين والعلماء وأهل الأدب والتجار والمتمولين وأهل النسبة إلى الشرف والصلاح ومحتسبو البضائع وأمناء الحرف ورؤساء السفن ومن صح لهم الجهاد في عدوة الأندلس أو في البحر وأعوان العامل من مقدمي الأحياء وشيوخها. كل في مكانه.

وصِل موكب القاضي الجوراني عند مغرب الشمس إلى ضفة نهر بوركَراكَ. وعبر النهر في فلكة بهية بارعة التصميم يعمل عليها ستة من أقوياء المجذفين. وكان فيها مع ابن الحفيد وجرمون اثنان من كتاب الضيف المرموق وقائد سامي الرتبة من قواد عساكر السلطان رافقه في تلك المهمة وامرأة واحدة هي كبيرة خدم القاضي. وهي سودانية لا تفارقه في حله وترحاله. اسمها زيدة.

تكون الموكب وتقدم إلى المدينة وسط حشود المستقبلين. وعند صلاة العشاء كان كل المرافقين للجوراني قد قطعوا النهر. وعدتهم عشرون من الفرسان بخيولهم وعشرون من الخدام يسوقون البغال الحاملة للأمتعة والأسلحة والعلف.

دخل خاصة الأعيان إلى القبة الكبرى برياض ابن الحفيد وأقيمت صلاة المغرب. وانتظروا دخول القاضي قبل أن تقدم المشروبات والحلاوى ويابس الفواكه وكل لذيذ من المسفوف والمدقوق.

دخل القاضي الجوراني بعد أزيد من ساعة. وكان قد دخل الحمام ليتخلص من أدران السفر وأتعاب الطريق. وارتاح غاية الارتياح لخدمة دلاك كسال من أهل سلا حتى إنه فكر لو أنه طلب من ابن الحفيد أن يصحبه الكسال إلى فاس ويكون رهن

خدمته على الدوام، لأن جسده قد صار أكثر من ذي قبل يرتاح للمسد والتدليك. وفي بيت الجلسة عند باب الحمام الرجالي داخل الرياض كانت زيدة تنتظر خروج سيدها وقد أحضرت البدلة اللائقة وفتحت حقق المراهم والأدوية والأبخرة وأخذت منها المقادير المعينة لمثل تلك المناسبة.

دار الحديث في بداية المجلس حول نجاح الجورائي في المهمة السلطانية التي خرج فيها إلى تامسنا، وهي إقامة الصلح بين قبيلتين ثارت بينهما فتنة القتال والعدوان بسبب الخلاف حول كيفية تقاسم أعباء الضرائب السلطانية الجديدة. ثم استغرق الحاضرون في ذكر الطرائف والإتيان بشواهد الشعر والتباري في إيراد نكت الأدب ومستملحات الظرف وذكر التآليف والتباهي بالاطلاع على كل غريب وخاص في باب العلم. وبعد أن خرق القاضي بنفسه باب الحشمة خرقا طفيفا بذكر بيتين لابن الحجاج الماجن، أشار ابن الحفيد إلى طالب طريف من أهل سلا متخصص في حفظ هذه البضاعة لكي يتحف المجلس بما يزيل الكلفة ولا يذهب مع ذلك بهيبة قاضي السلطان أو يسلب منه المبادرة التي تعود إليه في الحديث.

استؤذن الضيف المرموق في إحضار العشاء فأذن، ودخلت إلى القبة فتاتان تحملان الطست، خادمة سودانية شابة تحمل جفنة الغسيل، وشقراء فارهة تحمل البقراج الذي به الماء وعلى كتفها فوط بيضاء.

لم يكن ابن الحفيد ينتظر ظهور خادمته الشقراء واسمها شامة في هذا المجلس، ولا يملك أن يردها وقد توسطت القبة واستقطبت في رمشة عين جل الأنظار، فهي ترعرعت في الخدمة في داره، ووالدها فقير أرمل وإن كان من كبار رعاة أبقاره بمراعي ضواحي سلا، يتندر عليه الأشقياء المشاكسون بأنه حفيد بحار

نصراني من غرب الأندلس لطول قامته واعتدال سمنته وصفاء بشرته وشقرة شعرته وزرقة عينيه. ولو كانت ابنته شامة التي نشأت حتى قبل وفاة أمها بدار القاضي ابن الحفيد من نسب أنبل غير هذا النسب المعدم لاستحقت أن تخطب للأمراء.

أما في مهارة التدبير وتوقد الذكاء ورقة الحديث وخفة الروح مع إلمام بطرف من علم الشرائع والأدب فشامة مدينة لكبرى زوجتي القاضي مولاتها الطاهرة التي لم تحرمها لا من حنانها ولا من أي شيء حرصت على أن تكتسبه بناتها، عدا عدم الالتزام بالأشغال والإغراق في الدلال. وهو ما أفسد بنات القاضي في حين أن الخدمة جعلت شامة تتفوق وتصبح في ريعان الشباب محط غيرة النساء غير مولاتها، ومحط أطماع الرجال ولاسيما دحمان الولد الأكبر للقاضي الذي كان يفكر كيف يسوغ له في يوم من الأيام أن يقنع أباه حتى يقبل أن يتخذ شامة زوجة ثانية له.

تخيل ابن الحفيد كل المؤامرة التي دفعت شامة إلى الظهور في هذا الدور الذي دفعت إليه من غير استشارة القاضي، ولم يسعه سوى أن يكظم غيظه في ذلك الحين ومراقبة كيف ستجري الأمور.

كان القاضي الجورائي وهو الضيف المرموق أول من وضع أمامه الطست للغسيل، ومد يديه إلى الماء ورفع عينيه إلى زرقة السماء، وفجأة قفز صارخا وهو يصيح : الله أكبر ! أحرقتني بنت الخائنة !

تقدم ابن الحفيد ليرى ما يجري فإذا بالجورائي يقف ويأخذ الإناء من يد شامة ويطلب منها وهو بين الحرقة والنشوة واصطناع الظرف، أن تجلس مكانه ويقوم هو بصب الماء على يديها.

الذي جرى أن الماء الذي وُضع في الإناء ماء زادت حرارته عن اللازم المعتاد ولا علم لشامة بذلك. لكن توهج وجه القاضي وضحكه وحركته المداعبة أفهمت ابن الحفيد أن ما وقع لن يعدو أن يزيد في جو الظرف بالمجلس. كما أن هذه الرنة من الظرف جعلت شامة تتماسك بعد ارتباك شديد وإن كان الدم على أشد احتقانه في وجهها خجلا.

أشار إليها سيدها ابن الحفيد أن تمتثل وتجلس ليصب قاضي السلطان الماء على يديها. وكذلك فعل. وعاد إلى شامة شيء من سكونها لأن الماء وإن آلمها ليس بتلك الحرارة التي تسلخ الجلود.

انصرفت الخادمتان وجاء خادمان بإناء آخر. غرق المجلس كله في الضحك، وترادفت التعاليق على الحدث وقيل في مناسبته الشعر. ونصبت موائد العشاء ثم نصبت بعدها أواني كل عصير ومعتق. ولم يدع القاضي الجوراني مناسبة لأي حديث آخر غير الحديث حول ما فعلته فيه شامة، ودفعه تمزحه إلى طلب التعويض، وتبارى المتفقهة الحاضرون في تصويب مطلبه. ثم ما لبث الجوراني أن صفق بيديه فاستغرق المجلس كله في الإنصات والتنبه الشديد وإذا به يقول : اشهدوا أيها الحضور أنني أتقدم إلى حبيبي ابن الحفيد بطلب غريمتي شامة للزواج، ولما كنت أحمل معي بعض الدنانير الطيبة من سكة سيدنا الجديدة فإنني أستطيع أن أدفع المهر كله مقدما. فما على وليها إلا أن يقبل ليكون العرس هذه الليلة.

لم يفت ابن الحفيد أن يدرك أن صاحب السلطان جاد في أمره وأن تصفيقه وضع حدا لساعة الظرف والمزاح وأن نعته ب "حبيبي" مجرد خدعة من مشاور شرس من أصحاب السلطان، وأن كل معاكسة أو استخفاف بإشارته قد تؤدي إلى كارثة.

فأجاب : نرسل سيدي أسرع الفرسان لإحضار والدها بعد ساعة من مكانه بحوز المدينة.

دخل ابن الحفيد وهو يكاد يجهش بالبكاء ليعلم كبرى زوجتيه بما وقع، ولم يضيعا معاً وقتا في الوقوف عند المؤامرة التي دبرت باتفاق بين زوجته الصغرى وعروس ولده وبعض الخدام.

دخلت شامة إلى بيت مولاتها الطاهرة فلم تدعها تستسلم للبكاء عند حافة سريرها. بل أخبرتها وأمرتها بأن تتحلى بكل ما يتطلبه الموقف من الثبات ثم أمرت بأن تتولى إدخالها إلى الحمام خادمتان لأنها ستزف إلى القاضي هذه الليلة. وأمرت الطاهرة خادمتين أخريين بانتقاء ما يصلح لشامة من ثياب بناتها وحليهن ومواد تجميلهن وعطورهن.

حضر العجّال وهو والد شامة ولا علم له بموضوع استدعائه. فأدخل الحمام لينفض أوساخه ويطرد عنه روائح الروث. وألبس بدلة نفذها له القاضي ثم أدخل على مولاة شامة كبرى زوجتي القاضي التي يكن لها تقديرا عظيما لمحبتها لابنته فأخبرته بأن ابنته شامة ستزف لقاضي السلطان. ثم أدخل على ابنته وهي بين يدي الماشطات فعانقها وبكى.

كتب العقد على شروطه من الاستئذان وتعيين الصداق، وخرج العجال بصرة من نقود الذهب الطيب وأحشاؤه منقبضة توشك أن تتمزق وهو يخاف ألا يرى بنته شامة بعد ذلك مرة أخرى. وانصرف الضيوف بعد تهنئة قاضي السلطان والسلام عليه. وانصرف القاضي ابن الحفيد هو أيضا بعد أن سمع من مشاور السلطان بخصوص حفلة نزهة العرس في السانية الكبرى أو الجنان الكبير خارج سور المدينة في غده. ثم عن لوازم الرحلة من اليوم الثالث.

دخلت الخادمة السودانية زيدة تقبل رجل سيدها وتهنئه وتقوده إلى القبة التي تنتظر فيها العروس على سرير ذي شبابيك مذهبة في طرفيه تعلوه أغطية حرير وطيلسان.

خرجت زيدة خادمة الجورائي لتسكت الضاربات على الدفوف المحتفلات بباب غرفة الزفاف وتصرفهن بما لم يتوقعنه من الفظاظة. وهربن خائبات خائفات بعد أن صرمت حبل فضولهن، وجرت الخادمة المحنكة إليها سريرا وأسندته إلى باب الغرفة ونامت عليه. وبعد وقت قصير خيم السكون والظلام على قصر لن يصدق أحد ممن يعرف العوائد أنه جرى فيه زفاف.

أخرج الجورائي من جرابه حجرة صغيرة يستعملها لتيممه ومسح عليها وصلى ركعتين وشامة تنظر من وراء خمارها الحريري ومن الشق الذي بين المخامل، وصعد القاضي على السرير وأزال البرقع ليكشف عن وجهها، همت أن تقبل يده وصرفها عن ذلك. ثم بدأ يتلطف لها ويسألها عن قصتها مع الماء المغلى، ثم عن مولاتها وبقية نساء دار ابن الحفيد وعن أمها الفقيدة وأصل والدها وعن زواج دحمان ببنت شيخ بني هلال من قبائل الغرب. ثم سألها عن كل شاذة وفاذة في حياتها، وعظم اندهاشه لما عرف أنها تعزف على العود وأنها تقرأ وتحفظ الموشحات وسورا من القرآن.

ذهبت عن شامة كل توجساتها والاضطراب الذي استبد بها من وقع المفاجأة عليها والذهول الذي خيم على فكرها وهي تهيأ للزفاف، ووقع في خلدها كما لو كوشفت بالغيب أنها بانضمامها إلى بيت هذا الرجل إنما تستبدل بمخدوم أغدق عليها كامل رعايته منذ طفولتها وهو ابن الحفيد، مخدوما آخر لن يحرمها من مثل ذلك الحنان والرعاية، وفجأة رأته يرغب في أن ينظر إلى زوجته كما يحل له أن يفعل. أخذ بيدها ودعاها

لتنتصب واقفة فرأى ما رأى، ثم انحنى كأنه يصلي وغمغم بكلام ثم انفجر بالبكاء وأخذ يخافت بالشكوى لربه وهو ينتحب ويضطرب كأنه يريد أن يمزق أوصاله، ثم يعود ليستغفر ربه بصوت خافت، ثم يضطرب، ثم يعود ليرسل بصره وكأنه ينظر إلى جبل بعيد، ويعود إلى غضه في استحياء. كل ذلك وشامة مشدوهة لا تدري من أمره شيئا. تتفرس فيه إذا غض وتطرق إذا نظر، لا تفهم ما تسمع ولا ما ترى. وعند دنو الفجر كان قد أجهده الانفعال وذهب عنه الاضطراب فأطرق وخفت صوته ثم استسلم لنوم عميق.

وفي الغد، استرجعت شامة في ذهنها صورا ممزقة مما وقع في ليلة زفافها، وقدرت بحدسها حتى ولو لم تكن لها أي تجربة في هذه الأمور أن يكون جلمود صلابة القاضي الكبير قد ذاب في كأس ماء تمسك به بيدها اليمنى، وأن الأيام المقبلة في غاية الغموض.

وفي الغد، تحول زمام الأمور إلى زيدة كبيرة خادمات القاضي الجوراني، فهي الساهرة على ترتيب المواقيت وتعيين اللوازم للحفل الذي سيقام بالسانية الكبرى بظاهر المدينة. وقد وضع ابن الحفيد نفسه عند إشارتها، وبعد أن يسمع منها يصدر أوامره لعياله وخدمه، ويبلغ لعامل المدينة جرمون ما يتعلق به من الإجراءات.

لم تسمح زيدة سوى لخادمتين تساعدانها في إدخال العروسين إلى الحمام، وفي أعمال المشط والتطريات والزينة وإحكام حلة العروس حتى جلتها في أبهى المناظر.

تحرك الموكب في جو حافل وعرج ببعض المزارات دون وقوف في طريقه إلى الجنان الكبير. وفي ركن منه بجانب الصهريج والبئر والناعورة أقيمت الخيام واتخذ الرجال جانبا واتخذ النساء جانبا وخصص للعروس وصاحباتها رواق خاص. أخذت فتاتان

بيد شامة، وأجلستاها على أريكتها العالية كمنبر الخطيب واقتعدتها محاطة بوصيفات العروس على أكمل الهيئة الجارية على التقليد في بيوتات النبلاء. كانت مثقلة في بذلة ألبستها إياها مولاتها الطاهرة بعد أن عرست فيها بناتها من كرائم القاضي تكاد تنوء بثقلها الناجم عن طرزها بخيوط الذهب المعروفة بالصقلي وزادها ثقلا حمالات الحرير المتعاكسة على كتفيها بألوان حبرية وأرجوانية ووردية، ثم قلائد الذهب التي طوقت عنقها وهي حاملة لأنواع الحجارة الكريمة المتلألئة، ثم النطاقات الذهبية الملتفة على خصر أهيف لا يضيق بها وإن عرضت. ثم الأقراط المتدلية على مقدار نصف مهوى العنق وإن طالت، فيتيح لها أن تبدو في كامل رونقها والمتجلي في مخرمات بديعة وحجارة كريمة مدببة أو هرمية الرؤوس، وأساوير تملأ المعصمين مرصعة هي أيضا بديعة التزويق مجوفة من الداخل على نمط جديد ابتكره بعض صاغة اليهود لحريم السلطان وكلف باقتباسه صاغة بعض كبار النبلاء، وخلاخل رقيقة أنيقة من صفائح الذهب المرصع دارت على ساقيها مما فوق الكعب إلى نصف الساق الذي تنتهي عنده السراويل. وخاتم ذهب واحد في وسطاها باليد اليمنى وخاتما فضة تجاورا في بنصر يدها اليسرى. وفوق الرأس طرطور مزوق يحيط بقاعدته تاج من أسلاك الذهب الخالص وحجارة الزمرد الرفيع، وفي وسط الطرطور جمعت الماشطة شعر شامة على هيئة مخترعة تبغي بها الدعاية لفنها لكي تجلو مهوى قرطها وتبرز عنقها الطويل الأبيض العاجي الذي يزيد حسنا بسواد جذور شعر رأسها عند منابته الأولى في مؤخرة العنق.

قبل أقل من يوم واحد كانت كل هذه العدة من الجهاز الذي تحيط به قداسة في أعين الخادمات المكلفات بالعناية به مخبأة في المحافظ والصناديق التي أودعت فيها، ولم يكن يؤتمن

على مجرد مسها ونفض الغبار عنها وصقلها سوى خادمتين مقربتين من مولاتهما الطاهرة، الخودة وشامة.

وهاهي شامة اليوم تتحلى بكل تلك النفائس، وما كانت لتتخيل ولو في حلم سعيد أن يحدث الذي حدث أن تتزوج بهذه السرعة وأن تعرس لمقرب من كبار أصحاب الأمير لتلبس هذه الحلل القشيبة ويجتمع لها كل هؤلاء الضيوف وتلعب جملة من بنات مخدوماتها مجرد دور وصيفاتها وهي العروس.

تجنبت شامة أن تفكر في ذلك كله وتجنبت أن يتسرب إلى قلبها عجب أو طرب مما حدث، ومن بين خمار أسود من الحرير يزيد وجهها بهاء ويكشفه لكل مقترب وبين جبهة غراء يعلوها ذلك التاج البهيج سمرت ناظريها على أمر يقع على الأرض من طرف مكشوف منه عند طرف البساط وبين عرقي شجرة التين التي تظلل أريكتها. إنها جماعة من النمل تغدو وتروح بين غارها الذي يبدو أنه تحت جذع شجرة التين وبين مسعاها تلتقط منه في مكان ما وسط ذلك الحفل الذي تحول أمامها اليوم إلى ميدان لاستعراض فرق الطرب والفرجة. تنظر شامة إلى طريق النمل الذي شقه تحت عشيبات الورس الزاهية النوار. نمل يشتغل بدون توقف كما كانت حياتها هي اشتغالا بدون هوادة. لا وراء شيء سوى متعة إرضاء المخدومين، وهذا النمل يسعى جميعه وقد لا يكون في الغار من ينام أو يكتفي بإصدار الأوامر، بينما الآخرون في تدافع الكد والاشتغال، يسير جميعه بنفس السير والسرعة، ومن يا ترى يقول للنحل ابدأوا في العمل، ومن يقول انتهوا. ومن يخطط الطريق ويحدد منتهاها ومن يقسم بينهم العولة، وأقل ما يدعو إلى التفاوت بينهم أنهم ليسوا في سعة بطونهم سواء. ما أروع أن يسمع الإنسان كلام النمل، لاشك أنه كلام مقتصر على الأهم، ولاشك أنه كلام متنكب للفضول، وأروع من كل شيء أن يسمع

المرء كلام أسواق النمل. المحقق أن النمل يحب الحياة ويخاف من الفناء، هذا أمر لاشك فيه لأنه في خبر الكتاب فشامة سمعت قصة سليمان والنمل مرارا من الواعظ الذي كان يحدث حريم ابن الحفيد من وراء ستار. توقفت شامة عندما خطر ببالها من الاقتران بين حب الحياة والخوف من الفناء، بين الحب والخوف مطلقا، وعادت إلى نفسها في تلك الحال، وكأنها لا تستطيع أن تجيب عن سؤال يهمها هي : هل تحب ؟ وهل تخاف من شيء ؟ عادت فجأة إلى ما حولها بعد استغراق طويل في تدبر حركة النمل. أعادها إلى ما حولها فجأة كلام الجورائي الذي تعالى من بعيد وهو يضحك، فقد صارت تميز صوته من بين الأصوات.

وفجأة سكت الجورائي من قهقهته، فقد سمع ورقاء من الطير تشدو فوق شجرة صفصاف أمام الرواق المنصوب له، فأشار إلى الجميع بالسكوت وحتى المطربون أسكتوا، فإذا الجميع منصتون للطائر، وإذا الجورائي ينشد :

رب ورقاء هتوف بالضحى
ذات شجو صدحت في فنن
فبكائي ربما أرقها
وبكاها ربما أرقني
فإذا تبدؤني أسعدها
وإذا أبدؤها تسعدني
ولقد تبكي فما أفهمها
ولقد أبكي فما تفهمني
غير أني بالشجا أعرفها
وهي أيضا بالشجا تعرفني

ثم قال وهو يشير إلى القاضي ابن الحفيد :

– أيها الأديب الأريب، أين صهرنا والد شامة ؟

فليأذن أن نغير اسمها من شامة إلى ورقاء، ثم قال : هاهو قد أذن حفظنا الله فيه، خذوا مني دنانير من سكة سيدنا وادفعوا منها قيمة شراء كبش سمين نعلن به هذا الاسم الجديد لحرمنا، اذبحوه، وادفعوا باقي الدنانير للنساك في زاوية المدينة؛ فقد قدرت أن أحدهم رأى الليلة الماضية أنه يطعم من الغيب ثريدا بلحم ضأن. عندئذ قام الجورائي وقبل جبين حليلته شامة ثم عاد وهو يضحك بأعلى صوته وقال :

– واصلوا طربكم أيها الحذاة وأهل الآلة !

وبعد الاستمتاع بأنواع الفرجة وأصوات المداحين، وبعد استمراء طيب المأكولات، تهيأ الجميع للعودة إلى رياض ابن الحفيد، وقبل القيام أمرت زيدة بأن يتقدم أهل دار ابن الحفيد وزوجات الأعيان لتحية عروس القاضي وتقبيل يدها، وتجرعت مرارة ذلك الأمر سيداتها السابقات في الدار تحت رقابة زيدة وعين عدل الزمان، إلا ما كان من مولاتها الطاهرة كبرى زوجتي القاضي فإن شامة هي التي تطارحت عليها بقدر من التحية تعدى ما سمح به المقام، وعينها قد اغرورقت بالدموع.

2

عند فجر اليوم الموالي خرج ركب القاضي الجورائي من مدينة سلا وعروسه ورقاء على هودج. قضى الركب ليلته في تفلفلت. كان المبيت بخيام الوبر، وكان انفعال ورقاء شديدا بذلك الجو الذي أعادها إلى بيئة الخيام التي نشأت فيها بحوز سلا. أما القاضي الجورائي فقد قضى ليله في تفقد أحوال قبائل استدعى شيوخها لملاقاته في الطريق. لم تنم ورقاء إلا قليلا من الليل لأن زيدة تفرغت لأن تحكي لها كل شيء عن القاضي وأزواجه وأولاده، وأخبرتها أنها سيفرد لها إقامة خاصة بها في فاس، وأن زيدة لن تكون القائمة على شئونها هناك، لأن مكانتها من الدار الكبرى ومن مرافقته في الأسفار وإشرافها على أشغال ضيافاته المخزنية ؛ لا تعوض.

وبعد أن غطت زيدة في نوم عميق أرسلت ما بقي من الليل شخيرا عاليا رتيبا، ساد حول ورقاء سكون مخيف لا يخفف منه سوى هذا الشخير ووقع أقدام عسس يجيئون ويذهبون بين الخيام، وغير بعيد تنبعث أصوات الوحش بين عواء ورخاء.

وفي الغد قطع الركِب الطريق ما بين تفلفلت ومخاضة على وادي بهت قريبة من أكواري، بلاد القاضي الجورائي حيث ما يزال أهله.

فعند الفجر تحرك الركب قاصدا إلى أكَوراي، وكان الخبير قد أسبق الإعلام بوصول مفخرة القبيلة وحاميها القاضي أبي سالم الجورائي. وقد نصبت المضارب وتحفز الأعيان للقاء القاضي المشاور الذي يسميه أهله بالوزير. وكانت ورقاء قد علمت من زيدة ما كون لديها فكرة عن حياة القاضي، وخروجه في صباه من هذا البلد، ودراسته في فاس ثم في سبتة ثم في غرناطة، ومقامه بمصر

عامين ثم رجوعه إلى المغرب حيث التحق بخدمة السلطان ناظرا لأراضي أحباس المملكة كلها، ثم عمله في قضاء الحضرة، وبروزه بحصافة الرأي لما اتخذه السلطان مشاورا، ونجاحه في عديد من المهمات السلطانية لدى القبائل في المغارب الأقصى والأوسط والأدنى وفي الأندلس، ومشاركته الباهرة في الدفاع عن حصون الأندلس.

وبين أهل أكَوراي دهشت ورقاء لكون القاضي قد أزال عنها براقع الحجاب، وكأن حجابها ينقص من قدرها أمام خالاته وعماته اللائي لم يعرفن هذا البرقع في حياتهن. وأخذ بيدها ليقدمها لأعمامه من الشيوخ وللنساء من أقاربه، وهكذا اكتشفت أن هؤلاء القوم لا يعرفون الحجاب الذي ألفته لدى أعيان سلا والمدن التي وقع أن زارتها في ركب ابن الحفيد.

ولكن الذي بهر ورقاء هو خروج القاضي لحلقة الغناء والرقص التي أقامها أهل أكوراي في ساحة كبيرة بين مضارب خيامهم المصنوعة من شعر الماعز المزوقة بأنواع الحمالات المتنوعة الألوان. بل إن القاضي جر ورقاء إلى هذه الحلبة بقوة وهي ترفل في مخامل ثيابها الحريرية الحضرية، بينما نساء أكوراي الراقصات لابسات لبرانس قصيرة تقف عند منتصف الساق.

ورأت ورقاء من هؤلاء القوم جمالا فاتنا في النساء والرجال على السواء، قامات مكتملة وإهاب منسدل ودماء صافية تتنازع حمرتها بياض البشرة الناصع في الوجوه والمعاصم، وشعر فاحم ينزل نصف قامة المرأة أو يزيد، ووفرات مضفورة على أعناق الرجال.

كادت تتيقن الآن أنها فهمت سر افتتان القاضي بها من تلك النظرة الأولى، فهي صورة المرأة في وعيه وفي خياله المتربي في هذه البيئة. فلو كانت التي اصطحبها من صنف الصفراوات

الفاترات اللائي ذبل جنسهن في ظلال رياض الحواضر لما جرؤ على أن يجليها أمام قومه. فهي إلى سنها السابعة كانت تنتقل وأسرتها بين مراعي الغابات المجاورة لسلا، وهي لاشك في أصلها من هذا الجنس الذي يحتضنها اليوم، ويحق لها الآن أن ترد الشتائم التي طالما لحقتها من متغيظات قصر ابن الحفيد إذ كن كلما أردن نكايتها قلن إنها من سلالة نصراني بحار من غرب الأندلس كان جدها يخدمه في سلا إلى أن مات. فهؤلاء الحاسدات لا يعلمن شيئا عما وراء أسوار المدينة التي يقمن فيها، بل إن بعضهن ولدن في رياض ابن الحفيد وسيمتن ويدفن فيه ولاحظ لهن حتى في لحد من المقابر العامة التي توجد بين البحر وسور المدينة.

قام الركب بعد العصر من أكوراي متجها إلى فاس ووصلها عند بزوغ الفجر. وكانت ورقاء وزيدة وفرسان من العساكر قد انفصلوا عن الركب لما أشرف على فاس واتجهوا للدخول من بابها الشرقي، وفي اختراق أزقة ضيقة مازالت تنيرها قناديل الزيت المعلقة دلفوا إلى زقاق ضيق لا يسير فيه الفرسان إلا متتابعين. وقفوا عند باب دار كان أمامه خادم أسود مفتول العضلات يذهب ويجيء وكأنه في انتظار. كلمه أحد الخفيرين وسمعت ورقاء أن زيدة تناديه باسم فاتح فتفاءلت به.

دفع فاتح باب الدار وشُرع، ودخلت زيدة بعدما أمرت الخفيرين بإدخال الصناديق المحمولة على بغل، وتبعتها ورقاء، فإذا في المدخَل خادمتان همت إحداهما بأن تزغرد فأشارت إليها زيدة ألا تفعل.

كان ضوء النهار قد عم، والدار التي حلت بها ورقاء أصغر من أصغر الدويرات الملحقة بقصر ابن الحفيد، ولكنها لا تقل جمالا من حيث التزيين بأنواع الزليج وفي رقة الأسطوانات ورونق

أبواب الغرف الأربع المحيطة ببهو به ثلاثة أحواض مزهرة الورود تتوسط كل حوض منها شجرة تين مسنة.

تقدمت ربيعة، صغرى الخادمتين، تقود سيدتها ورقاء إلى القبة الوسطى المعدة لتكون غرفتها الرئيسية وغرفة نومها، لأن هذه الدار غير مهيأة لاستقبال الضيوف، وفي أقصى الغرفة سرير مذهب الشبابيك لا يقل فخامة عن سرير سيدتها الطاهرة الزوجة الأولى لابن الحفيد. وهاهي الآن قد أتيح لها أن تتصرف كالمالكة في أشياء كان حظها منها أن تنظفها وتعيد ترتيبها يوميا بعد أن يكون المستمتعون بها قد عبثوا بها، وكانت ورقاء، أي شامة، تمس مثل هذه الأماكن بوقار وقدسية مرتبطة بالحشمة التي تربت عليها والحب الذي تشربته لسيدتها الطاهرة والإجلال الذي كان يمليه ابن الحفيد على جميع أهل داره.

طغى تعبها على كل انفعالاتها فتخلصت مما عدا لبسة تخف للنوم وتركت كثيرا مما قد يثير الفضول حولها ونامت فوق طنفسة بجانب السرير بعد أن تأكدت أن الخادمة قد انصرفت وأغلقت الباب.

تمكن وقت الظهر عندما استفاقت وفي ذهنها صور متزاحمة من كل ما جرى منذ ليلة ضيافة الجورائي في سلا، وبعد النظر إلى السقف وتزويقاته الخشبية كما لو أرادت أن ترجئ أي حكم مسبق على ما جد في حياتها، نفضت الملاءة وصعدت فوق السرير كما لو كانت قد نامت فيه، وصفقت بيديها بتلقائية كما كانت تفعل سيدتها زوجة قاضي سلا لاستدعاء الخادمة في مثل ذلك الموقف. ولم يخب مسعاها إذ تبين لها أن تلك الحركات والإشارات لغة مشتركة في مثل تلك الدور وفي مثل تلك المناسبات، فهاهي ربيعة تنسل إلى داخل الغرفة وترد من ورائها

خوخة الباب حتى لا تزعج سيدتها بضوء النهار إن لم تكن عيناها قد استأنست به بعد.

أدركت ورقاء بذكائها وخبرتها مما جربته من الأعراف في دار ابن الحفيد أنها ملزمة اليوم بأن تلعب الدور الكامل لسيدة مترفعة أمام خادمات كانت لها هي وضعيتهن إلى ما قبل بضعة أيام، فلو لم تفعل لارتكبت خطأ يصعب عليها تداركه، ويسليها أنها تملك ما يبيح لها الظهور بذلك المظهر : شخصية نبيلة جمعت كل مواصفاتها ومقتضيات سيرتها بطول خدمة سيدتها الطاهرة، وجمال ساحر شهدت به حتى الحاسدات من لداتها، وتدله الجوراثي في حبها وهو من هو.

علمت من ربيعة أن كل شيء معد، الحمام والغذاء، دخلت ورقاء الحمام ولكنها لم تدع زبيدة وهي الخادمة الثانية أن تقوم بخدمتها هناك، بل أشارت إليها بالخروج، وبعد الاستحمام واختيار اللبسة ووضع الحلي وخفيف من التطريات والتجميل جلست إلى المائدة وأكلت بنهم.

ثم صلت فرائضها وهي تذكر تبتل سيدتها الطاهرة، إذ كانت شامة صاحبة وضوئها والمتحنتة معها عند فجر كل يوم، ولاشك أن دعواتها من أسباب هذا السعد الذي هي مقبلة عليه. فكرت في كل ذلك وقوي انفعالها وأحست بدمعة تنزل من عينيها، لكن ورقاء تشعر بالخوف أكثر مما تشعر بداعي السعادة، فهي غير مطمئنة إلى شيء من مصيرها، فسرعة انتقالها من خادمة إلى زوجة مشاور للسلطان لم يكن له وقع صدمة بتلك القوة المقدرة لأنها تربت على إباء النفس لحظوتها عند الطاهرة وحمايتها لها حيث قضت طفولتها وشبابها في عشرة بنات ابن الحفيد، ثم إن شامة قد كانت شاهدة على أمثلة مما يشبه ذلك الزواج المفاجئ، ومع ذلك، فإنها لم تستوعب كل ما وقع لها،

وذهلت على الخصوص لكونها اقتلعت بعنف من تربة ربت فيها عواطفها وحرمت وربما إلى الأبد من ناس تعلم أن من بينهم من يكن لها عطفا كبيرا ويحمل لها محبة.

وبتلقائية لم تظهر ورقاء لخادمتيها أي ضعف ولو بالسؤال عن أي شيء كان، بل طافت بنفسها بالبيت واكتشفت أركانه ومرافقه ولم تتطلع إلى أن تعرف منهن شيئا آخر، ولكنها كانت تطارد فكرة تهاجم خواطرها وترعبها، فكرة اضطرارها إلى البطالة وعدم الاشتغال، وهي التي كونت الرشاقة في الخدمة مبعث حبورها ورضى نفسها ولاسيما في الوفاء لسيدتها الطاهرة. أترى سيتحول يومها إلى جحيم وهي مخدومة من مخلوقتين لن تنالا قط رضاها ولا ثقتها حتى تكشف لهما عن أسرار قلبها !

كانت تتأمل مناديل مطرزة في دواليب الفوط بعد العصر عندما تقدمت منها ربيعة وهمست في أذنها من غير داع إلى التستر أن فاتحا العبد البواب ومسخر الدار في ذات الوقت يريد أن يبلغها من سيده الجورائي مباشرة خبرا كلفه بحمله إليها، لكن هذه الخادمة الوقحة أضافت ما برر ذلك الهمس قائلة : "إن فاتحا عبد خصي يمكنه الدخول عليك"، وبذلك استحقت أول نظرة اشمئزاز من ورقاء جعلتها تغض بصرها وتنصرف.

وقف فاتح هذا الذي رمقت شخصه عند الدخول هذا الصباح أمامها بإجلال، وقال لها بعد تأكده من ابتعاد الخادمتين : "إن سيدي منشغل بحضرة السلطان، وعندما يحظى بمقابلة جلالة سيدنا السلطان ويسرحه سيقدم ليراك".

لم يكن مثل ذلك الإعلان غريبا عن ورقاء لأنها تعرف من حياتها في سلا أن خدمة السلطان ضرة طالما نكدت الزوجات في مضاجعهن بغياب الأزواج في البعثات والوفود والانتظار بالأعتاب والمشاورة والحروب، ولكن أمرين حركا كآبتها الدفينة فتظاهرت

بينها وبين نفسها بعدم الاكتراث لصرفهما، الأول هو تنبيه الخادمة لها بكون ذلك العبد من الخصيان والثاني أن العبد فاتحا كان بالتأكيد يعني ما يقول عندما عبر بقوله : إن سيدي سيأتي ليراك. فمجيئه حتى لو جاء لن يكون سوى مرور عابر وإطلالة سريعة.

وفي عصر اليوم الثالث وصلت إلى الدار أحمال تتضمن مختلف أنواع العولة والإدام، وحمل صندوق مغلق إلى غرفة ورقاء دون أن يسلم إليها مفتاحه أو تخبر بما بداخله.

وفي وقت المغرب سمعت ورقاء جلبة عند الدار ثم صوت الخادمتين في النطق بتحية لم تعتد سماعها، فأطلت فإذا القاضي الجورائي زوجها قد توسط البهو وهو متجه إلى الغرفة. أشار إليها أن تتراجع ودخل وسلم عليها وهمت بأن تقبل يده فمنعها وجلس، وأخذ يشرح سبب غيابه وكأنه يعتذر. ثم قام وصلى المغرب وعاد للجلوس وصفق بيديه وحضرت الخادمة وأذن بإحضار الشراب والطعام. ورأته ورقاء لأول مرة وهو يأكل بنهم ويأكل كثيرا، وكانت تتظاهر بمؤاكلته كما رغب، ولكنها في الحقيقة قد عدمت كل شهية الأكل بسبب انفعالها وانشغالها بالتفرس فيه وكأنها تلقاه لأول مرة. وقد أمدها مرات بمختارات من الطعام فأخذتها وأكلتها، أو ردتها إلى الإناء وهو لا يشعر.

وبعد الأكل أذن بإناء الغسيل، وتذكرت ورقاء حادثة الطست في سلا وخنقت ضحكتها ثم رأته يصعد ليتمدد فوق السرير بينما ظلت هي واجمة فوق الطنفسة المجاورة.

أخذ الجورائي كتابا من الدولاب وأخذ يقرأ أو يتظاهر بفعل ذلك، وغير ما مرة رأته ورقاء يرفع عينيه من الكتاب ليتفرس فيها. وبعد حين قام إلى الصندوق الذي جيء به ذلك المساء وفتحه فإذا هو مليء بالهدايا من الملابس والحلي وحاجات تتطلع إليها

العرائس. وما أن شرع المؤذن بالنداء لصلاة العشاء حتى قام الجورائي إلى الجهة الأخرى من الغرفة وأداى فرضه بشيء من الاستعجال.

وبعد فراغه من الصلاة أقبل على ورقاء وطلب منها أن تقف مثلما طلب في ليلة زفافها، ونظر إليها كما يحل له أن يفعل، ودخل في هذيانه مرة أخرى بالتدله الكلامي والتوسل والاعتذار من أمر لا يفصح عنه، ثم أجهش بالبكاء وهو يطلب أمورا لا تتردد ورقاء في متابعته فيها، ولما تأكدت أنه يجب أن يعامل كالطفل الصغير الذي ينتظر من أمه كل شيء وهي لا تنتظر منه شيئا، لجأت إلى ذكائها وحسها في إغداق الحنان عليه وأخذت بالمبادرة لتدخل بالقاضي في إيقاع من الأحاسيس تلاحقت لها أنفاسه متسارعة حتى خافت عليه. وفجأة خارت قواه وغط في نوم عميق.

مر شهر كامل على وصول ورقاء إلى فاس، وزوجها الجورائي يتردد على دارها مرتين في الأسبوع أو أكثر، وكان يسير معها بنفس السيرة ويظهر معها في نفس المظهر، وفي كل مرة يزيد جنونه وتبتكر هي من رقة إحساسها ما به يطفئ شوقه واصطلامه، وقد تعودت الآن على تلك الخدمة دون أن تفهم الأمر على حقيقته، وجحيمها هو الغربة المحيطة بها، ولا أحد حولها تستطيع أن تفضي إليه بشيء من أمرها أو يستحق أن تودعه سرها. ومن ذكاء قلبها وصفاء نفسها أنها لم تشك لحظة في أن الجورائي صادق في عواطفه أشد ما يمكن الصدق وأن هذا الشخص الذي يملك كل شيء يطلب عندها ما ليس عنده، وذلك يكفيها لتجد فيه مصدر لذتها، وأنه بالرغم من كل ما يغدقه عليها ويعبر عنه يعيش مأساة لأنه لا يستطيع أن يرضيها إلى النهاية.

تناولت الغذاء ذات يوم وقامت إلى قيلولة صارت من عاداتها الجديدة. وما أن اتكأت حتى بدأت تشعر بوجع في بطنها، ثم زاد الوجع فقامت تريد طبخ سعتر تشرب محلوله، وكانت وحدها في الدار لأن الخادمتين خرجتا معا إلى حمام الحي. لكن أحشاءها أخذت تتقطع، ونفد تجلدها وبدأت تبكي وهي تئن، وزاد ألمها فصارت تعول وتصرخ وهي تتثنى وتضطرب، ودخل فاتح ورآها على تلك الحال، وخرج يجري ثم عاد بعد ساعة ومعه القاضي وطبيب يهودي من مارستان فاس يعرف بابن الزارة.

كانت الخادمتان قد عادتا قبل وصول القاضي والطبيب ووجدتا أن ورقاء قد أغمي عليها من شدة الألم، وقامتا بإسجائها فوق السرير. أكد الطبيب للقاضي أنها تنازع الموت بسبب تسمم تظهر آثاره من زبد على شفتيها. وأرسل في طلب عقاقير، بينما أخذ في صب محلول في فمها لكي يعيدها إلى وعيها. وبعد ساعة من المسد والفصد، أفلح الطبيب في ذلك ولكنها بدأت تضطرب مرة أخرى من الألم، ثم صب في فمها ما طبخ من نبات الغاسول، وما أن استقر في بطنها حتى قفزت لتستوي وأرسلت دفقا قويا من القيء على وجه الطبيب ومن حوله.

كان القاضي يطل على وجه ورقاء ويستحث الطبيب ويمطره بالأسئلة ويعود ليجلس على الطنفسة ويأخذ رأسه بيديه ويبكي، لم يأبه لهيبته لأن ذلك الموقف أمام اليهودي لا يفيد شيئا، ثم إنه لا يغار منه على ورقاء، أما الخادمتان فهو قادر على إعدامهن إذا بحن بشيء مما لا يليق.

في ساعة متأخرة من الليل كان الطبيب قد نجح في إخراج كل ما استقر في بطن ورقاء من السموم. وطمأن القاضي على

حياتها مع ما لا يستبعد من عواقب كتساقط الشعر والشحوب والهزال لمدة معينة.

طبخت أطعمة جارية منعشة وصبت في بطن ورقاء وهي في شبه غيبوبة وتركت لتنام.

عرف القاضي بحسه في أي اتجاه يمكن أن يتقصى سبب ما حدث. وقد كلف فاتحا وأحد أعوانه المقربين بذلك، وفي ظهر الغد عاد ليجد أن ورقاء قد أفاقت ولكنها عاجزة حتى عن تحريك يديها. وعندها أخبره فاتح ومعاونه الآخر أن الخادمتين أقرتا تحت التهديد والتضييق بذنبهما في حمل طنجية لحم إلى شامة غير الطنجية المرسلة إلى فرن الحي، وذلك لتسميمها بتدبير زوجته أم أولاده التي كانت تعد لذلك الأمر منذ علمها بوصول ورقاء إلى فاس.

جلس القاضي وسط الدار وأمر بحمل الخادمتين وبيعهما لتجار النخاسة الذين يغربون الرقيق من جميع الألوان من المغرب إلى بلاد السودان، وطلب ورقا وقلما ودواة وكتب :

"إلى محبنا العزيز أبي العباس ابن الحفيد قاضي محروسة سلا، السلام عليكم، بوصوله إليك أركب إلينا على عجل من إمائك الحاذقات من نأمنها على خدمة ورقاء. والسلام."

3

وبعد أسبوع عاد مبعوث الجورائي إلى فاس ومعه الخودة، إحدى خادمات الطاهرة سيدة دار ابن الحفيد. وقد وجدت الخودة ورقاء ما تزال طريحة الفراش وشعرها قد تساقط ثلثه. وبكت الخودة، ولكن ورقاء فرحت بهذه الرفقة التي لم تكن تحلم بها، ورأت إرسال الخودة أحب الخادمات إليها إنعاما آخر من مولاتها الطاهرة.

وبعد يوم وليلة كانت كل من ورقاء والخودة قد أفرغت جعبة أخبارها المتصلة بما وقع في سلا أو في فاس بعد فراقهما. وأهم ما حدث في دار ابن الحفيد انتقامه ممن دبر لها حادثة ماء الغسيل الحار من الخادمات والسيدات، أما زوجة ابنه دحمان فقد منه وعادت إلى دار أهلها بعد ضلوعها كرأس مدبر لتلك المؤامرة، أما والد شامة فقد طلب منه القاضي أن يترك عزيب البقر بغابة سلا ويتفرغ للعبادة في زاوية النساك بضمان رفد من القاضي أو يجلس بدكة باب داره مشاورا في هيئة لائقة، لكنه أبى ذلك وأصر على بقائه بالعزيب. أما جرمون عامل سلا فتضييقه بالناس ومخازيه فمما كان يعظم يوما بعد يوم. ولم يفت الخودة أن تداعب ورقاء بشيء من لمز الحاسدات اللاتي تندرن بقلب اسمها ورقاء إلى "وركاء". ولكن الذي أثلج صدرها من كل تلك الأخبار هو ابتهاج مولاتها الطاهرة وقولها أمام الملأ إن حظ شامة كان ببركة دعائها لها جزاء إخلاصها ومواهبها التي هي من منح الرب الكريم.

أما ورقاء فقد حكت عن السفر بين سلا وفاسٍ وذكرت إعجابها بشخصية زيدة ومرور الركب بأهل القاضي في أكوراي وما رأت من حسن الرجال والنساء هنالك. لكن الخودة لم تدع ورقاء

تطيل في كل التفاصيل فقد نفد صبرها وهي تنتظر أن تأتي على ذكر حياتها الخاصة مع القاضي، وهنا تحرجت ورقاء قليلا ثم ارتمت في أحضان حميمتها وبكت والخودة تغدق عليها من حنانها وتخفف من انفعالها وتعدها بأن تخفف عليها كل آلامها إذا حكت الأمر بالتفصيل المطلوب.

حكت ورقاء قصتها، وقبل أن تتغلب على كل تلعثمها وجفاف ريق حلقها كانت الخودة قد فهمت كل شيء، وشعرت بغصة تتعقد وتنمو في حلقها، وحنقت على هذا القاضي الغطريس الذي لم يختلف فعله بورقاء عن فعل من يحكم ظلما على بريئة بسجنها في قفص من ذهب إرضاء لأنانيته. لكن ورقاء استعادت زمام نفسها وقررت أن تسمو حتى على ضعف مواساة هذه المخلوقة التي جمعتها وإياها صداقة حميمية تامة منذ أول قرء في حياتها، فأخذت تتحدث عن براءة القاضي وصدقه في الحب وجوانبه الصبيانية المثيرة للعواطف، حتى إنها قالت إن سعادتها بالسويعات التي يحضر فيها بجانبها لا تعدلها سعادة.

فهمت الخودة أن ورقاء تحب أن لا ينكأ جرحها وأن كل ما تحتاجه هو إنسانة تشاطرها سرها وتؤكد لها الفهم الذي تشككت فيه، وتطوي بعد ذلك جناحها على أمر لم تعد تحتمله الأقوال. وكلتاهما على تفاوت في السن والتجربة من رهافة الحس بحيث تفهم مغزى كل إشارة من الأخرى، والخودة بدورها جعلت من التفاني في خدمة أولي نعمتها عقارا وبلسما لحزنها العميق، فهي لم تبق في زواج رئيس سفينة عملاق سوى عامين، معظم أيامهما كان زوجها غائبا في البحر، وكان معلمه في شئون البحر هو الذي اشترى أمها لوهي دون بلوغ من سوق النخاسة بدرعة بثمن باهظ لأنها سليلة أمراء من الفلان السودانيين. وعند وفاة هذا المعلم كانت الخودة تقارب سن الزواج، كانت ما تزال

تتكلم لغة قوم أمها الفلانيين من أهل بلاد السودان، لكن زوجها أسره النصارى في البحر وزوجته حامل، وبعد أن وضعت بنتا ومضت أعوام دون أن يعود الرئيس واسمه صالح، في من وقع افتداؤهم من الأسرى، طلقت على يد القاضي، لأن ذلك الغائب على ما يحكى صارع صاحب السفينة التي أسرته وصرعه فقتله آسروه انتقاما. وقد صارت قصته أسطورة بطولية تنسج حولها مع مرور الأيام خيوط جديدة يحكيها ويتمثل بها في الشجاعة أطفال سلا.

هكذا ضمت الخودة وابنتها إلى حريم القاضي ابن الحفيد. وكانت تكنى بغزالة الصحراء، لرقة تقاسيمها ودقة ملامحها وخفة حركتها في الشغل مع ترفع شديد وأنفة بالغة وصيانة تامة لقواعد الأدب. فشامة لم تكن لتكون ندة الخودة لولا أنها تعلمت منها كل أسرار المهارات التي تتقنها في ما يتعلق بالخدمة، وزادت عليها بروحانية تمكنت منها بحب مولاتها الطاهرة لها، وفي لب هذه الروحانية نوع من تقديس الزوج وكتم أسراره وتغليب محاسنه.

عادت الخودة بورقاء إلى الحديث عما جرى من تسميمها، وعلمت منها كيف أن ذلك دبر من دار الجورائي بواسطة الخادمتين أو إحداهما على الأقل، عندما زينت لها أن تشتهي طنجية يطبخ لحمها في رماد فرن الحي على غير علم للقاضي بذلك.

دخلت شامة إلى الحمام ودخلت معها الخودة لأنها تريد أن تفحصها. وقد تنفست الصعداء عندما رأت البقع الزرقاء في جسمها تتقلص وأن زغبا بدأ يظهر لتعويض شعرها المتساقط. واتفقتا على أن نجاتها تعود إلى مهارة الطبيب اليهودي بعد

استعراض حالات فاجعة سمعتا بها وكان فيها التسميم بأقل بكثير من ذلك الرهج الزعاف الذي دس لورقاء في الطنجية.

عليهما الآن أن تتحصنا ضد كل مؤامرات لاشك مقبلة، وعلى الخودة أن تعرف الميدان حتى تستطيع أن تحمي من هي الآن في حكم سيدتها. يتوقف ذلك على معرفة كل ركن في الدار وعلى معرفة الجيران ومعرفة المدينة ومن يأتي من مسخري القاضي وكيف تختار مواد العولة التي تأتي إلى الدار.

عرفت الخودة أن المسخر البواب فاتح هو المعول عليه في ما سيأتي من الأيام، لذلك أرادت أن تتعرف عليه وتتحدث إليه لتختبر نيته وتتخذه مصدرا لما تريد أن تعرفه من أخبار المدينة، فقد تعلمت في دار ابن الحفيد أن العلم بالأخبار هو الذي يقي من شر العدو.

أذنت لها ورقاء أن تنقر على العادة من وراء الباب الرئيسي حتى يدخل فاتح. ولما دخل إلى ممر وسط الأحواض وجد ورقاء على أريكة وأمامها أعمال توشية، فحياها وأمرته أن يساعد الخادمة الجديدة مهما طلبت إليه من أمور. وصفقت هي بيدها لتحضر الخودة من المطبخ حيث توارت تراقب فاتحا لأول مرة، ولما تقدمت الخودة ووقفت أمام فاتح وهو غاض البصر، أحست بروع يهز كامل كيانها، ولم تتمالك الانتفاض من قشعريرة طغت بقوة على جلدها، وحملقت بعينين متسعتين ولعابها يكاد يسيل من فم فاغر. إن هذا الهيكل الآدمي المكتمل الصحة، الفاره الإهاب، يكاد يماثل في قوامه زوجها الفقيد لولا سواد بشرته.

انصرف فاتح ليأمر الغلام المساعد له بالحراسة ثم يعود ليعاون الخودة في تغيير ماء بعض خوابي المصبرات في المطبخ، وكانت ورقاء قد رمقت الخودة في انفعالها وحزرت سببه فقالت لها قبل أن تنصرف :

- إنه خصي، لم نعرف في عبيد سيدي ابن الحفيد أحدا من الخصيان.

فأجابتها الخودة دون أن تفكر جيدا في مرامي كلامها : إن الحكام الذين يخصون مساعديهم ليخفوا أن فحولتهم هم ناقصة أو منعدمة.

وحملت ورقاء جوابها على التعاطف والحب الذي تكنه لها فقالت : والكية في القلب لنا نحن النساء.

قضت الخودة وفاتح وقتا طويلا في ترتيب الخوابي في المخزن المتصل بالمطبخ وهي لم تكف لحظة واحدة عن ملاحقته بالأسئلة في مختلف المواضيع، وأخيرا ذكرت له أنها ستتنكر في زي خادمة عادية في غد ذلك اليوم، وأن عليه أن يقودها إلى المزارة الكبرى في المدينة لتقضي وقتا هنالك في الدعوات واستدرار رحمة الغيب. لكن فاتحا اعتذر لها بكون مثل هذا الخروج يقتضي إذنا من سيده القاضي.

اتفق أن جاء القاضي إلى دار ورقاء في مساء ذلك اليوم، وابتهج بما ظهر على زوجته من الحيوية بسبب حضور الخودة إلى جانبها، وجلس هو يرقب تلك الفلانية ذات البشرة الذهبية، فرأى أن خفة حركتها تشعر وكأنها لا تكاد تطأ بقدمها الأرض، أما أدبها فيصدق كل إطراء ورقاء لها بأنها أم جميع الفنون. وهكذا أظهر القاضي إطراء وإعجابا وعطفا كبيرا بعد سماع قصة فقدان زوجها بالأسر وانفصالها عن بنتها التي تركتها بدار ابن الحفيد. وإرضاء لورقاء وعد القاضي بأن يكتب إلى والي طريفة بالأندلس لكي يستقصي أخبار هذا الأسير السلاوي ويفتديه إن كان ما يزال على قيد الحياة. لم يكتف بذلك بل أشار إلى إحسان يضمره في حق الخودة إذا تبين أن زوجها قد قتل بالفعل.

عندئذ أحست ورقاء بازدياد محبتها لهذا الرجل الذي لا يبحث إلا عن كل أمر يرضيها ليبادر به، ولكنها أحست بشيء من الغيرة سرعان ما أعدمتها في نفسها لأنها تصورت أن الذي يضمره القاضي هو أن يعرس لوصيفتها الخودة بفحل في قوام فاتح غير مخص ويجمعها ببنتها التي في سلا.

أما الآن فإن القاضي يفوض لها أن تعطي الأوامر التي تريد لينفذها فاتح، ووعدها بأن يأتي إليها بأمة تبتاع لحينها من سوق نخاسة تازا ولا تكون مظنة لأي شر إذ لن يكون لها أي اتصال بمن يخاف منهم على حياة ورقاء.

كانت تتجدد لورقاء كل يوم نضارتها بعد حادث التسمم، وكلما جاء القاضي وجدها في حلة مبتكرة تدل على تدبير مشترك مع الخودة فيطمئن من كل ما تقوله أو تأتيه إلى أن عقدة لسانها وعقدة نفسها كلاهما قد حلت، فهي بالقطع بعد هذا لا تتوقع منه شيئا قد يحرجه، وكل شيء يدل على أنها مصممة على أن تعطيه فوق ما يتخيل أن يناله أو يطلبه، ولديها كل مرة جديد تمنحه بإخلاص نفس ورضا كامل بما اعتبرته من جميل القدر.

نفذت الخودة ما قررته من الخروج إلى المزارة الكبرى بعد عصر الغد ووجدت كما توقعت تحت قبة القرميد وحول دربوز القبر المغطى بكسوة خضراء وشبابيك تعلوها جامورات وتفافيح مذهبة، وجدت حشدا حافلا من النساء يتحدثن إلى بعضهن أحاديث تسترها عن الآذان جلبة القراء وأصوات المتسولين من جميع ذوي العاهات والمزمنين، وكأن كل واحدة من أولئك النساء الزائرات قد أخرجت صرة أسرارها وفتحتها للأخرى. والمهم أن كل واحدة تتقمص دون أن تشعر روح صاحب الضريح في إملاء الدواء الناجع على صاحبتها فتخرج كل واحدة بغير المزاج الذي دخلت به. اقتربت الخودة من عدد ممن تفرست فيهن ملامح

المتجسسات المسيطرات على مقاليد الإشاعة في المدينـة، فهـن مـن مخترقات الأحياء الـتي تفتـح لهـن الأبـواب بمختلـف التعـلات، مرممات العواطف تارة ومدمـرات المعاشـر تـارة أخـرى، مروجـات أنواع الترياقات الزائفـة ووسـائط لـدى كتـاب الجـداول والتمـائم، مدبرات سوق نخاسة أخرى لا يطالها يد المكاس والمحتسب.

كان هـم الخـودة أن تجـد مـن تشـتري منهـن أخبـارا عـن الجورائـي وعـن سيده السـلطان، ولم تخـرج مـن الضريـح حتـى اطمأنت إلى أنها وجدت أكـثر مـن عارضـة للبضاعـة الـتي كـانت تبحث عنها.

عادت إلى الضريح بعد عصر الجمعة الموالية ومعها قـدر مـن الدراهم النفيسة، وفي جانب باب الضريح وجدت امرأة واقفة تـدل كل أحوالها على أنها لا تخاف من المحتسبين لأنهـا في الحقيقة فتنة صارخة، مسعورة نفس لا تأبـه بمـن حولهـا، قـد تكـون مـن سابقات المجد ممن ألقين بعـد حـين علـى قارعـة طريـق أمـير أو صاحب مقام في هذه الدولة، وكان أول ما سعت إليـه الخـودة هـو أن تعرف من تكـون هـذه الجسـورة الـتي تبتسم لكـل داخـل إلى الضريح وترسل على المارة سهاما من عينيها النجلاوين، فإذا هـي معروفة : زوجة أحد قواد الحرس السلطاني، تزوج عليهـا أخـرى وأهملها فإذا هي تتحول إلى شيطانة تقف كل جمعة في ذلك الركن المقدس حتى سموها بهرابة الصالحين، لأنهـم حكـوا أن تقيـا مـن أهل جبل أزكَان القريب من فاس، اختلى للعبادة في جبلـه حتـى إنه كان يطير في الهواء، فلما نزل إلى فاس ونظر إليها ذهـب عنـه صلاحه واضطر إلى أن يكـتري حمـارا أعـرج ليعـود عليـه إلى قمـة الجبل.

سمعـت الخـودة في خرجتهـا أكـثر ممـا كـانت تتوقـع عـن أحوال الجورائي وشئون داره، بل وارتعدت فرائصها وهـي تسـمع

من إحدى المخبرات أن سيدنا السلطان قضى مجلسه الليلي الأخير وهو يتندر على الجورائي بزواجه في سلا، ممازحا له بذكر التفاصيل التي وردت عليه في بريد العامل جرمون. بل إن هذه المخبرة الماكرة ختمت بقولها إن سيدنا السلطان عاب على الجورائي أنه قال : إنه ليس بدار السلطان من تماثل ورقاء في الجمال.

والواقع أن تلك الجاسوسة الناقلة للأخبار محقة في ما أخبرت به حول التهكم الذي تعرض له الجورائي، وكان بالمجلس السلطاني نديم سليط من ندمائه يخاف كبار الخدام من حدة لسانه، إذ هو بارع في فن تقديحهم وإذلالهم، وقال للجورائي : أيها المشاور ! بلغنا لما سمعت الورقاء أنك أنشدت، ولكنك ظلمت النوري بحذف بيت من شعره تشاءمت منه، فما ذلك البيت ؟

ولما رأى الجورائي أن الأمير مساير لسخرية النديم وأن لا مناص من ذكر ذلك البيت، قال :

ذكرتُ إلفا ودهرا وصالحـــا
فبكت شجوا فهاجت حزنــي

حذفته لأنني أشفقت من أن أتنبأ لها بنوائب الأيام.

فعلق السلطان بقوله :

- لعلها ما تركت لك عقلا تصلح به بعد لمشاورتنا.

فارتاع القاضي لما سمع وأحس كأنما صب عليه ماء الثلج، لكن السلطان مضى يحدثه عن أمر جد اختص بالاضطلاع به دون غيره يهم شئون الإمارة العليا.

عادت الخودة إلى الدار وأخفت على ورقاء ما قد يقض مضجعها من تلك الأخبار، لكنها قررت أن تستقصي مع ورقاء كل كلمة تسمعها من القاضي عند مروره المقبل.

ولم يخطئ تدبيرها، بل توصلت إلى التأكد مما ورد على لسان مخبرتها في الضريح لأن ورقاء أبلغتها أن القاضي كان على شيء من الكآبة في هذه المرة وأنه في هذيانه المعتاد زاد كلاما كرره مثل قوله : أخاف عليك من الذئاب، أخاف عليك من الذئاب...

وفي المرور الموالي أخبرتها أن الجورائي بدأ يذكر السلطان وينتقد إسرافه في بناء المدارس وما جره ذلك من وبال على بيت المال وإثقال كاهل الرعية بالضرائب، كما أخبرها أن السلطان لم يعبأ بنصيحته هو في العزوف عن حركة غزو يذهب فيها بجيش جرار إلى الأطراف الشرقية لرد قبائل الأعراب من العصيان إلى الطاعة، وأنه بدأ يحشد لذلك العساكر والمستخدمين وسيطول غيابه في تلك الحملة مع ما في ذلك من خطر من جانب الطامعين في الملك وعلى رأسهم ولي عهده الذي استبطأ جلوسه على أريكة الملك.

تخلف الجورائي على غير عادته أسبوعين كاملين عن المرور بدار ورقاء، واشتد قلقها وحزنت الخودة لأنها تعرف من أسرار الجورائي ما لا تعرفه سيدتها. لكن الجورائي حضر يوما عند الظهر فاعتذر لانشغاله بحضرة السلطان في وضع الترتيبات لحملة الأطراف الشرقية، ثم صفق بيديه فإذا البواب فاتح يدخل بصندوق مليء بالتحف النفيسة.

أرادت ورقاء أن تظهر لزوجها كل ما يمكن أن يعبر عن فرحها بتلك الهدايا وابتهاجها بتلك التحف وأن تفاجئ القاضي بأمر لم يعرفه من فنونها ومهاراتها وإن كان قد سمع به، فأشارت

إلى الخودة فأحضرت لها قيثارتها التي أتت بها إليهـا ممـا تبقـى من ماعونها الخاص بهـا في سـلا، وتوقـف القاضي عـن الشـرب وتتبع حركتها مشـدوها، فـإذا شـامة تستوي علـى أريكـة وتقـوم بتسوية الأوتار وتنقـر عليهـا بصـوت كـان يعجـب كثـيرا معلمهـا الغرناطي في الألحان بدار ابن الحفيد :

قد أكمل الحسن في تركيب صورتها
فارتج أسفلها واهتز أعلاهـــــا
قامت تمشّى فليت ا لله صيرنـــي
ذاك التراب الذي مسته رجلاهــا

فقام القـاضي يرقـص ويقـول : أنـا ذاك الـتراب، أنـا ذاك التراب، ثم أنشد وهو ينحني عليها طربا :

ورقا تعلمت البكا والبث مـــن
يعقوب والألـحـان من إسحـــاق

كيف أخفيت عني إلى اليوم كل هذا الإتقان للألحان ؟
ثم أطرق متأثرا وكأنمـا أنكـئ منـه جـرح، فـالصوت ينطبـق علـى حسنها وهو يعاني من عجز عن تحيته بكل ما ينبغي له. وأدركت هي أنها بذلك الصوت قد استفزته مـن حيـث أرادت أن تطربـه، فنقرت بلحن حزين وأنشدت بصوت كان يعجب مولاتها الطـاهرة وقالت :

فاصبر إذا الدهر نبا نبـــوة
فجنة المؤمـن أن يصبـــرا

فالرزق والحرمان مجراهمـــــا
بمـا قضـى الله وما قـــــدّرا

وقبل أن ينصرف القاضي أخبر ورقاء أن وفدا من قبل سلطان مالي من بلاد السودان سيدخل إلى فاس في موكب بهيج يحمل هدية إلى سيدنا السلطان. وقـال إن فاتحـا سيقودهما متنكرتـين إلى مصريـة أحد التجار تطل علـى الشـارع الـذي سيسـير منـه الموكـب حتـى تستمتعا بالفرجة كما تشتهيان.

ابتهجت ورقاء بما سمعته وأفهمت القاضي أنها أدركت ما في هذه العنايـة مـن عرفـان بـأثر الخـودة علـى ازديـاد طمأنينتهـا وإضفاء مزيد الهناء علـى حياتهمـا، فـالقوم الحـاملون للهديـة إلى حضرة سلطان المغرب من أهالي الخودة وقـوم أمهـا. وبعـد تصفيـق ورقاء بيدها حضرت الخودة أمامهما وهي لا تتوقع أن تسمع مثـل ذلك الخبر الذي أفرحها لأنها ما تزال تحتفظ بحكايات أمها لهـا عن بلد التكرور وعن كونها تنحدر أصلا من سلالة إمارة عريقـة في الإسلام على نهر النيجر خربهـا رحـل شمـالي الصحـراء في أعـوام جفاف واسترقوا أهلها على غـير وجـه الشـرع وبـاعوهم في أسواق نخاسة الشمال.

وفي اليوم الموعود انتقلـت ورقـاء والخـودة ومعهمـا الخادمـة الجديـدة إلى المصريـة المرصـودة للفرجـــة، يقودهمـــا فـــاتح وهـــن مستخفيات في زي بدويات من بائعات مصنوعات الحياكة.

كان عسس من حرس السلطان على جوانب الأزقة المركزيـة بفاس يحملون الحراب والمزارق، وكان الفرسان يجيئـون ويذهبـون في الطرق المعدة لمرور أهل بلاد السودان، وقد اصطف سكان المدينة على جوانب المحاج وغصت سطوح الدور المجاورة بربات الخدور من كل حي مجاور أو بعيد. وبعد الظهر سمعت من بعيـد الطبـول

المدوية إيذانا باقتراب الوفد من المدينة. وقد أراد السلطان أن يكون لذلك المشهد وقع في نفس أهل مملكته ليقروا بنفوذه في أعماق بلاد مالي حتى يبذلوا الغالي والنفيس من أجل نجاح حملته إلى الأطراف الشرقية للبلاد، وحتى يكون ذلك النجاح أيضا محفزا على بذل ما يلزم لتحقيق انتصار مأمول في الأندلس.

تقدم في طليعة الوفد فرسان من حرس السلطان وهم يرتدون أجمل بدلاتهم المزركشة وبأيديهم مزاميرهم القوية الأصوات. وتبعهم أول رهط من أهل السودان وهم رقاصون شبه عراة، ثم تبعهم مجموعة أهل الطبول الصغيرة، ثم مجموعة أهل القراقب النحاسية، ثم عربات تحمل أقفاصا ضخمة فيها سباع وعدد من الكواسر الضخمة، ثم مجموعة من الإماء اللائي جلبن ضمن الهدايا لابسات ثيابا بيضا تعلو رؤوسهن قلنسوات ملونة على شكل أسنمة البخث وعلى صدورهن قلائد من اللوبان النفيس، وهن يغنين غناء رقيقا مؤثرا في القلوب ويرقصن في حركات بديعة يتمايلن فيها ذات اليمين وذات الشمال فتظهر أسنانهن صافية تعكس نور الشمس، فتلمع وكأنها اللجين الخالص، ثم وصل ذلك الحيوان العجيب بشكله وعلوه وهو الزرافة في رفعتها الملوكية تتمشى وتدير عنقها لترى ذات اليمين وذات الشمال غير آبهة بالمتفرجين أو بأي شيء مما يتوقع منه أن يضجر أو يخيف، وبمنظرها بلغ الإعجاب والاندهاش كل مبلغ لدى المتفرجين من الأطفال والنساء والرجال على السواء. وبعدها تقدم جماعة السحرة وعلى رؤوسهم تيجان من الريش وعلى سيقانهم جوارب من تبن وعلى جباههم علامات معقفة مرشومة بمختلف الأصباغ، يومئون بإشارات يفهم منها أنهم لو ألقوا عصيهم لخرجت منها الثعابين. وبعدهم مرت فرقة اللاعبين بمشاعل النار، ثم جماعة أهل

الدرقات من المحاربين. وكمل الموكب بمرور جمال على ظهورها أحمال من التبر المهدى لحضرة السلطان.

ضحكت ورقاء لضحك الخودة وبكت لبكائها وهما يتتبعن مرور الموكب السوداني ودقات طبوله تهز منهما الوجدان. ولولا هذه الحميمية بين المرأتين لكانت ورقاء أكثر اهتماما باكتشاف أزقة المدينة منها بالاستمتاع بفرجة وفد أهل السودان.

تغيب الجورائي عن دار ورقاء أسبوعا كاملا، ولما جاء إليها كان الوقت في الثلث الأخير من الليل، وأيقظ ورقاء حتى استوت، ولما عادت من الوضوء دعا بشيء من الرب والعسل، داعبها بالكلام حول فرجة أهل السودان حتى انبسطت، وفجأة تجهم وجهه وتقطب حاجباه وصفق بيديه حتى حضرت الخودة فقال لهما : ستبدأ حملة السلطان إلى الأطراف الشرقية بعد ثلاثة أيام وسأكون في من سيخرج من فاس يومه هذا، لنتقدم سيدنا إلى المرسى التي منها سيبحر. لقد حرص صاحب العزة على أن تكوني أنت شامة في ركبه الميمون، وسيكون خروجك في الركب الكبير وتخدمك أثناء الرحلة خادمتي زيدة وفاتح ومحظية من دار السلطان ستكون معك في نفس الطرمة بالسفينة المدعوة سعد الملوك. وستعود الخودة إلى دار ابن الحفيد إلى حين عودتنا بحول ا لله.

أسفر هذا الكلام بصرامته وجزمه للمرأتين عن الوجه المخيف الذي قلما يظهر به الجورائي مشاور السلطان ؛ فهو جانب من فحولته السياسية التي تطغى على كل العواطف عند الاقتضاء ؛ فهو لم يظهر كمجرد منفذ للإخبار بأوامر رتبت كل تفاصيلها ترتيبا محكما، وإنما أشار وهو ينصرف في لمح البصر بما طمأن ورقاء إلى أن هذا الرجل بالرغم مما في بعض كلامه من الغموض سيحميها إلى آخر رمق من حياته.

4

استغرقت الرحلة ثمانية أيام إلى مرسى شمال شرقي فاس، واستغرق الرحيل ثلاثة أشهر في البحر لأن الأسطول كان ينزل في محطات على الطريق ولا يستأنف الرحيل إلا بعد أن يكون الجيش البري الجرار قد قطع نفس المسافة عن آخره. وبعد الاطمئنان إلى أن من على الطريق من القبائل والولاة والأحلاف قد قدموا ما تعين عليهم من أنواع الرفد والخدمة والتمهيد.

اكتشفت ورقاء نبل زيدة وإخلاصها لسيدها بما لم يتأت لها اكتشافه حين صحبتها في الطريق من سلا إلى فاس، واكتشفت رتابة البحر ومفاجآته ونزوات الرياح وقساوة الرؤساء ومحنة المستخدمين في التجذيف، وكانت هي في زمرة قليلة من النساء الفائقات الحسن والبهاء الرافلات في أنواع الألبسة لمقدومات بمسخرات تزري الواحدة منهن بأبرع من رأتهن من الخدم، ممن لم تتأثر صحتهن ونضارتهن بهول البحر ودواره.

وصلت السفن الثلاث الحاملات للحريم من مختلف الأجناس والألوان، معظمهن من دار السلطان وقليلة من عيال كبار المقربين ومن معهن من الخدام والخصيان، إلى المرسى الأكبر في الأطراف الشرقية. ونزل من فيها واقتيد الجميع في خفر عدد من الفرسان إلى قصر خارج عاصمة تلك الجهات. وخضع الحريم هناك لنظام قاس لم يسمح بأي اختلاط بين النساء من مختلف القصور إلا في أوقات ارتياد الحمامات أو وقت حضور بعض الفرجات في خيام أقيمت في باحة القصر.

وبعد ثلاثة أشهر لم يظهر فيها في تلك الغرف والقباب لا السلطان ولا أحد من الأعيان، بدأ الهمس بإشاعات مفادها أن حملة السلطان قد فشلت بسبب غدر بعض حلفائه من شيوخ

الأعراب وأن الجيش البري قد عاد إلى فاس وأن السلطان قد ركب البحر في أسطوله العظيم وأن الحريم يتهدده الأسر من كل الأعداء.

انتشرت الإشاعة في القصر. وذات صباح جمع القواد السلطانيون جميع من هناك في حلقة واسعة، وقصد جنديان عملاقان إلى امرأة بيضاء وأمة سوداء من الحاضرات وجروهما إلى وسط الحلقة وشدت بحزام إلى الظهر يدا كل واحدة منهما، وجيء بخشبة قائمة على قاعدة وعلقت إحدى المرأتين تلو الأخرى وضربتا ضربا عشرين جلدة من فوق اللباس دون التصريح بالسبب، ولكن الجميع فهم أن ترويج الإشاعة المخيفة التي خلقت البلبلة في الحريم نسب إليهما.

وبعد يومين من القلق الممض نودي بالرحيل، وكانت ورقاء في أول سفينة أقلعت، وهي سفينة ضخمة قوية قيل إن السلطان أرسل في كرائها من صاحب صقلية، ومعظم من فيها من الرؤساء والجنود نصارى يتكلمون لغة تخلط بين لسان العرب ولسان العجم. وفي منتصف الطريق شاهد من في السفينة أن الماء يتقاذف ألواح سفن محطمة بل وأمتعة راقية وملابس وجثثا آدمية. عاود الرعب بسبب ذلك النساء القلقات على أزواجهن، وبعد مرور أيام وسط هذا الحطام تأكد أن كارثة بحرية تسببت فيها رياح عاتية وإعصار شديد قد دمرت عددا من سفن السلطان. وبدأ الصراخ والعويل عندما ظهرت على صفحة الماء شارات بعض كبار قواد العسكر ثم لوحة كبيرة لم تكن سوى شارة سفينة "سعد الملوك". عندها تقدم إلى سطح السفينة القائد الموكل بالحريم واسمه ابن مبارك فأخذ أمة علا صراخها وهم بأن يلقي بها إلى الماء على مرأى ومسمع ممن على السفينة من سيدات القصور.

عاركت السفينة الهائلة الحجم أمواج البحر أياما في تلك الرحلة ونساء الحريم ممنوعات من الصعود إلى الطوابق العليا

ومماشي السطح المطلة على البحر. وصارت جملة من رقيقات المزاج العليلة الأجسام جثثا هامدة بفعل اختناق الهواء ودوار حاد لا يقر معه شيء في بطونهن، واشتكى كثيرات بأوجاع في الرأس صاحبته حمى لدى بعضهن، وكل تلك الآلام شغلت من عانينها عن الخوف الشديد الذي استبد بالأخريات كلما تمايلت السفينة أو دارت أو اضطربت أو توقفت وسكنت. فلا هن يدرين إذا كانت الوجهة هي ذات الوجهة إلى بلدهن أو هن في أسر قرصان سيبيعهن ولاشك في أسواق نخاسة بر النصارى أو لتجار ذهب السودان من أعراب المغرب الأوسط.

جملة من الخادمات المرافقات للحريم كان يطلب منهن أن يصعدن إلى الطوابق العليا وسطح السفينة لخدمة الرؤساء وتقديم الطعام، وكن يسترقن السمع ويتوقفن قليلا ليشهدن الذي من أجله منع نساء الحريم من الاسترواح بالنظر إلى البحر. آلاف الألواح من حطام سفن تتقاذفها الأمواج ويرتطم بعضها بالسفينة الجارية. ونياشين كبار ضباط جيش المسلمين تنزعها الأمواج من أعرافها كما ينزعها المنتصرون من أكتاف أصحابها إذا انهزموا، وها هي تلفها الأمواج وتطويها، وأوراق مصاحف وكتب على الماء يحللها كما لو أنه قام مقام كبير الشراح، وجماعات طير تتجمع هنا وهناك تهوي على الساحل أو قريبا منه تجهر لتنقر أشياء تتمايل على الماء يتناعتها البحارون ويعرفون بخبرتهم أنها جثث آدمية تأكل تلك الجوارح ما تفسخ من هاماتها بعد أن هدتها الهزيمة وتناولتها أظفار الموت وقربتها لمخالب تلك الكواسر قربانا مستساغا.

والواقع أن كل شيء في ذلك الموقف قد فقد حضوره وهيبته، إلا ما ساد من الخوف وما ساد من عنف المكلفين بالحريم الذي حاولوا تطويقه والسيطرة عليه.

وكان الهلع على أشده حتى في قلب أعتى حراس السلطان بأسا ممن يخفرون الحريم عندما التقت سفينة الصقلي بسفينة نصرانية أخرى جاءت من الجهة المعاكسة، ونزل القائد الصقلي في زورق ليلتقي بزميله في السفينة الأخرى بعد تبادل الإشارات بالأعلام.

وتخوف المسلمون أن يكون ذلك الاتصال للتفاوض على نية أسر الحريم والذهاب به إلى بر النصارى. وبعد مدة نصف يوم عاد القائد الصقلي ليخبر ابن مبارك أن أخبار سبتة، حسبها عند قائد السفينة الأخرى، تؤكد أن كارثة الأسطول السلطاني كانت مروعة فعلا وأن الذي وصل إلى الساحل هي سفينة السلطان، غير أن ولده قد قام عليه وبويع في فاس بتأييد عدد من قبائل المغرب.

كتم القائد ابن مبارك الخبر، ومثل أمام إحدى زوجات السلطان كانت على ظهر السفينة وطلب منها أن تجمع بعض أرطال حلي الذهب لضمان وفاء صاحب السفينة بما تم الاتفاق معه عليه وهو الوصول بالحريم إلى ميناء المزمة.

5

بعد عشرة أيام وصل الحريم إلى فـاس، وكـانت الأوامـر قـد وصلت إلى ابن مبـارك وهـو في تـازا بمـا ينبغـي أن يفعـل، وكـان دخول فاس قد جرى توقيته حتـى يوافـق منتصـف الليـل، وحـل الجميع بقصر تغيرت معالم نظامه ووجوهه لمن كن يسكنه من قبـل ويعرفنه.

وفي الغد حضر مكلفون سـلطانيون وأحضـروا النسـاء اللائـي وصلن من الأطراف الشرقية وبدأوا في تنفيذ ما أمرهـم بـه السـلطان من تعيين مصير كل واحدة مـن نسـاء الحريـم. كـان المكلفـون مـن رؤساء الحرس ومن العدول والنساء العرائف.

وفي مشهد يذكر بيوم الحسـاب نـودي علـى النسـاء واحـدة واحدة بدءا بالمقربات من السـلطان المخلـوع، ثـم جـاء دور النسـاء اللائي غرق أزواجهـن الأعيـان في الأسطول، ولم يكـن أي منهـن على علم بشيء. وكلما وقع النطق بالمتقرر في حـق واحـدة وعلمـت منه أنها أصبحت أرملة سـقطت مغشـيا عليهـا. وجـاء دور شـامة بنت العجال أرملة الجورائي، واكتفت بالقول : "إنا لله وإنا إليـه راجعون" وتصبرت، وسجلت كالمتاع في رسم تركة زوجهـا المتوفـى وفوتت للسلطان الجديد الذي أمر بأن تلبـس عـدة الأرمـل وتحـال حتى تكمل أيام عدتها ضمن خدم كبرى زوجات السلطان المخلـوع وهي غير أمه واسمها أم الحر.

أدخلـت شـامة إلى دار كبـيرة زوجـات السـلطان المخلـوع فتلقاهـا الوصيفـات بـالوعيد إن ظهـر عليهـا الحـزن المفسـد لجـو الأفراح التي تقام بمناسبة تولي السلطان الجديد، وأمرتها إحداهـن بدخول الحمام ولبس الحلة اللائقـة قبـل أن تمثـل في المسـاء أمـام سـيدتها أم الحر.

دخلت الحمام لتخفي بكاءها وتنتحب في بكاء حار وتتصور أن خسران المعركة ربما أنقذها، وتتصور أن الجورائي وهو يغرق في البحر فكر في مصيرها مع من سماهم بالذئاب.

كانت سيدتها الجديدة توحي بجميع المهابة الملكية في كمال الملامح وسحر النظرة ووقار زائد عما يقتضيه السن. امرأة فوق الخمسين تقتعد أريكة ملوكية وسط قبة فيحاء في أقصاها سرير مرصع بأنواع الأحجار الكريمة.

قبلت شامة قدمي أم الحر وأشارت إليها هذه بالجلوس على أريكة أمامها، وأمرت غيرها بالانصراف.

لم تشك شامة من أول لحظة أن هذه السيدة الفخيمة تعرف عنها كل شيء وأنها هي التي اختارتها من بين المتخلفين من أهل أعيان زوجها المفقود في البحر. بادرتها بالإحسان بأن ذكرت ما يضفي على قلبها المفجوع بعض الاطمئنان حينما قالت لها إنها تسمع بالطاهرة ولية نعمتها زوجة ابن الحفيد، ولم تكتف بذلك إذ لم تتأخر في إفهامها أنها لن تتخذها خادمة بل ستجعلها جليسة مقربة.

رأت شامة أن هذه السيدة، وهي أكبر زوجات السلطان المخلوع، أول من ينصاع عن مرارة وأسى لما صدر من أوامر بعدم التعرض ولو بالإشارة لعهد السلطان السابق أو إلى كارثة حملته إلى الأطراف الشرقية.

وبعد أيام قليلة تأكد لأم الحر استحقاق شامة لما تريد أن تخصها به من الإنعام والقرب لجمالها وأدبها ومهارتها لا في الخدمة فحسب بل في تدبير الشئون ولو تعلقت بأمور قصر بكامله.

كانت شامة ترفع بصرها إلى المولاة أم الحر فتجدها غير ما مرة تطيل إليها النظر وكأنما تريد أن تقول لها شيئا لم يحن الوقت بعد لتبوح به مراعاة لحزنها الداهم وجرحها الجديد.

كان نظام دار أم الحر يقوم على تخصيص كل يوم من أيام الأسبوع لنشاط خاص، وذلك لإبعاد الرتابة وطلب الترويح وإتيان المكرمات المناسبة لجانب الوقار اللائق بمقامها.

فيوم الجمعة مخصص لإخراج الصدقات، قفف من الميرة ترسل في الخفاء للمتعففين ممن بهم الخصاصة، وقصاع من الطعام تحمل إلى بعض المساجد، ودراهم توزع على صناديق بعض المزارات، وصلات تبعث إلى القراء ومن ظهر صلاحهم من العباد، معونات توجه للخارجين من السجون والمارستانات وإلى من هم بحارة الجذمى وذوي العاهات، وأكياس من الفواكه اليابسة توزع على الصبيان في أبواب المقابر.

وفي يوم السبت تنتقل أم الحر ووصيفاتها وكبار أهل خدمتها للسلام على السلطان، وتتخذ لذلك الأهبة الفائقة، وتكون في حلة الأناقة التامة التي لابد أن يجيزها المكلفون بالتراتيب الداخلية للقصر، ويكون دور أم الحر في السلام بعد سلام ضرتها أم السلطان، ومن في حاشيتها، ثم يسلم العيال من الأولاد والبنات وبعض أقرب المقربين بحسب مقامات كل طائفة. أما سائر العيال فلا يسلمون إلا في الأعياد. وعند السلام يسأل السلطان المقيمين على مصاريف كل دار عن الرفد والخصاص واللوازم. وهي مناسبة الالتماسات والتنفيذات والترضيات وإصلاح ذات البين وجبر الخواطر. كما أنها فرصة للتقدم بما لا يخل بالأدب من التظلمات التي لا يرجع الفصل فيه لقضاة الدور السلطانية. وتقدم للسلطان التعازي في أموات أقرب أقربائه

وتلتمس منه الموافقة على الزيجات وعلى الأسماء المقترحة للمواليد.

وفي يوم الأحد تخرج أم الحر للنزهة في حدائق القصر أو في ضيعات السلطان خارج المدينة. وهي تعين كل مرة من يخرج معها، وتقترح من الأطعمة ما يحمل في القدور ليقدم في الأواني في الهواء الطلق أو في القباب التي بالعرصات أو تحت الخيام. وقد تأذن الأميرة لبعض محظياتها بالنزول إلى الصهاريج والطواف في فلك يجذف فيها بعض الغلمان. وتكون مناسبة لاقتطاف طري من فاكهة الفصل أو انتقاء زهور تصنع من رحيقها بعض العطور.

وفي يوم الاثنين يتكرس عدد من ماهرات الإماء لصنع أنواع الحلاوى وتحضير المصبرات وتعهدها. فكل طباخة تبرع في نوع معين من الحلوى ولا تجارى فيه، وتجتهد في إغنائه بالتزويق أو ابتكار مختلف الطعوم باستعمال العطور النباتية ومواد الحلاوة كسكر القصب والعسل وغيرها. وتصنف بعد الطبخ على أساس الطعوم الغالبة والمذاق كذوات السكر وذوات الملح وذوات الحامض، أو تصنف على أساس أصلها المحلي أو المسلم أو اليهودي أو الحضري أو البدوي الساحلي أو الصحراوي أو بشهرة بعض المدن، أو على أساس أصلها الخارجي الأندلسي أو المشرقي أو السوداني. وغاية كل صانعة أن تكون مفخرة مولاتها لو طلب منها أن تصنع للدار السلطانية النوع الذي تحسنه في مناسبة من المناسبات.

وفي يوم الثلاثاء يستمتع من عند أم الحر من النساء بأنواع الطرب والفرجة. فأعمال الطبخ وترتيب أنواع الفراش والتنظيف تنتهي عند الظهر، وبعد الغذاء، توضع آنيات المشارب وتوقد أعواد الطيب المخشب في المبخرات وتهيأ مرشات أنواع الطيب السائل، وتحضر آلات الطرب والموسيقى وتجلس المتخصصات من

فتيات الدار ممن تلقين فنون الموسيقى وحفظن الأصوات ومقطعات الشعر القديم والزجل وملحون القبائل. ويبدأن بإشارة المولاة باللحن الذي تشير به، وكثيرا ما تترك لهن وقتا ليسلين أنفسهن بذكر ما يخترن من الأصوات وبإطلاق العنان للتعبير الذي يفرج عن أنفسهن إلى حد الغيبوبة في الرقص والوجد والتوله. وقد يحدث أن ترسل الدار السلطانية فرقة من فرق الفرجة الرجالية إلى دار أم الحر فيتفرج عليها النساء من الشراجيب والدرابيز أو في الظلمة من وراء المخامل.

وفي يوم الأربعاء يكون دخول الحمام وارتياد بيت الماشطات وتحضير مراهم التجميل وتلقي ما يجد عند عطاري القصر واستبدال القارورات، وعمل الأسوكة وعرض العلل الداخلية على مشاورة الأطباء.

وفي يوم الخميس يحضر كل من في الدار ما بين العصر والمغرب في القبة الكبرى لترتيل الأمداح وتلاوة الأذكار. تبدأ الحصة بتلاوة القرآن على لسان بعض القارئات ولا تسمح أم الحر أن يتغيب عن ذلك المجلس إلا ذوات الأعذار الشرعية.

ومن فضيلة هذه المولاة ومن خبرتها أنها زوجت جميع من عندها من النساء ما عدا مبتدئات من المسخرات القريبة العهد بالبلوغ. فهي لذلك تقتعد مكان الحب في قلوب هذه الزمرة التي اختصت بها بعد أن انصراف عنها زوجها السلطان سنوات قبل خلعه إلى لذات متجددة.

6

لم يبق على نهاية عدة شامة سوى بضعة أيام عندما جاء أمر السلطان بإرسال أم الحر لأداء فريضة الحج وأذن لها أن تصطحب من تريد في حاشيتها من النساء.

اختارت عشرة من بينهن شامة ووافق السلطان على ذلك بعد يومين، وأمر بإعداد الركب وتحميله هدية لصاحب مصر وعين رئيسا للركب أحد كبار حضرة السلطان.

تأخرت أم الحر عن وقت نومها المعتاد تلك الليلة وبجانبها شامة، وجرى بينهما ذكر الجورائي، وراقبت المولاة انفعال شامة الصادر عن إخلاصها البريء وقالت لها أم الحر وهي لم تعد تخشى أن تصدمها بما أضمرته لها منذ البداية في عبارة وجيزة : أطلق ا لله سراحك يا ابنتي.

سمح السلطان لوالده المخلوع أن ينتقل من منفاه بساحل المغرب الأوسط ليلقى زوجته في الركب المار بطريق الصحراء لكن مرضا شديدا ألم به وأودى به بعد أيام.

قطع ركب أم الحر الطريق إلى مصر في ثلاثة أشهر، وكان من ورائه معظم ركب المغاربة إلى الحج. وكان البريد قد أخبر مقدما بوصول أميرة المغرب وهدية السلطان، وكانت الضيافة لسبعة أيام في جانب من قلعة صاحب مصر على كامل المبرة والإعزاز، غير أن بعض المعتوهين من أولاد صاحب مصر افتاتوا على سيدهم بأن تقدموا لأمير الركب بطلب إكمال الهدية المغربية ببعض من يصحب الأميرة من النساء. غير أن القاضي الزناتي اتبع إشارة سيدته أم الحر في أن اشترى لهم من سوق قاعدة مصر بعض الشركسيات حتى يخلوا سبيل الركب في أمان.

وفي انتظار الجواز بمرسى عيداب تعرض ركب الأميرة لغزو فرسان متلثمين اختطفوا شامة ووصيفة من وصيفات أم الحر، لكن زاهدا مبجلا هناك من تلاميذ بعض شيوخ المغرب في طريق القوم كان أمر أتباعه بحماية هذا الركب في جهات نفوذه، وما أن علم بما وقع حتى فرق فرسانه في كل اتجاه. وقبل نزول ظلام الليل عادوا بالمخطوفتين بعد افتكاكهما من أشخاص ضليعين مع صاحب بريد مصر وكانوا يتجهون بهما إلى الفسطاط.

وفي مقامات الحج والغفران استعادت شامة إلى جانب سيدتها كل النوازع الروحانية التي شبت عليها عند من كانت صاحبة وضوئها وقيومة الليل بجانبها السيدة الطاهرة زوجة القاضي ابن الحفيد بسلا. فنصف ليل أم الحر وشامة دون الأخريات صلاة وابتهال وتضرع، ونصف يومهما طواف وسعي.

ولما حان وقت المناسك كان دمع الخشوع قد أحال المرأتين إلى روحين توشكان أن تصافحا الملائكة.

وقد ختم الركب بزيارة القبر بالمدينة، وهناك تجدد انصهار روحيهما في ملكوت التائبات، وذات صباح سألت أم الحر كل مرافقاتها عن مرائيهن منذ النزول بأرض الحجاز، وأرجأت سؤال شامة عن مثل ذلك إلى أن اختلت بها فأجابتها شامة وقالت : بعدما رجعنا من زيارة قبر الحبيب، أغفيت قبل المغرب ورأيتك يا مولاتي في المنام وأنت تهدينني فرسا من خيل غرناطة أبيض. فتبسمت أم الحر وقالت : كذلك يكون الأمر إن شاء الله.

عندما وصل الركب إلى سجلماسة ازداد ألمها من داء وصفه طبيب مصري أول ما شعرت به بأرض الكنانة بأنه مرض القرحة. وقد شقيت أم الحر من اختلاف المياه وغياب ما دأبت عليه في قصرها من منتقى الطعام.

وفي مشارف جبل فازاز قضت الأميرة ليلة شديدة، وفي صبيحتها طلبت حضور أمير الركب وعدلين وأشهدتهم على رضاها على السلطان الذي قام بحقها ودعت له، وأوصت في حق أولادها وبناتها وبالتربة التي تتمنى أن تدفن فيها، وذكرت التماسها من السلطان أن ينفذ توصيتها بالخير في حق المتزوجات من خادماتها بإرجاعهن إلى أهلهن إن أردن ذلك وكن من الغريبات، وطلبت في حق شامة خاصة أن تعاد بمجرد وصولها إلى سلا وتوضع في عهدة القاضي ابن الحفيد.

لم يشعر أحد ممن في الركب متى أسلمت أم الحر روحها لله وهم في المرحلة الأخيرة قبل دخول فاس. خرج السلطان بنفسه للقاء الركب وفيه جثمانها، ومثل رئيس الركب ابن مبارك أمام السلطان وسلمه وصية أم الحر والتماسها، وذكر مناقبها أثناء السفر وفي مقامات الرضوان.

كان يوم دفنها يوما مشهودا بفاس، اغتنمه السلطان لإصدار العفو على من نكبهم من أصحاب والده المخلوع. وبعد قراءة سلك القرآن والترحم في عشية اليوم الثالث، أمر السلطان بتنفيذ وصيتها بحرفها، وكان من جملة مقتضاها أن كتب قاضي الحضرة إلى ابن الحفيد قاضي سلا بأن يجعل شامة بأمر السلطان في عهدة زوجته الطاهرة، ثم كلف بأن يصل إليه بشامة وبالكتاب خادمان وأمة من عريفات دار السلطان.

7

وجدت شامة عند وصولها إلى سلا أن القاضي ابن الحفيد محطم الهمة خائر القوى ضعيف النفوذ. فزوجته الطاهرة قد انتقلت إلى جوار ربها قبل شهرين بسبب أزمة حادة ناتجة عن مرضها بالربو الذي لازمها منذ خرجت من بلدها بتادلا إلى سلا على شاطئ البحر المحيط عند مصب نهر بوركراك. وبوفاتها تشتت خدمها حتى إن الخودة تزوجت بالعجال والد شامة بعد ألفة استحكمت بينهما، إذ كان يتردد عليها لتقص عليه خبر ابنته بفاس بعد رجوع الخودة ورحيل شامة في حملة الأطراف الشرقية.

أما دحمان ولد ابن الحفيد وزهرة نخوته وأمله في خلافته، فقد مات في ظروف بشعة. وسبب ذلك أن جرمون عامل سلا الذي كان همه أن يحطم غريمه المتكبر عليه بالعلم، القاضي ابن الحفيد، قد جر ولده هذا ليصاحبه إلى جانب عم السلطان في عسكر خرجوا لجمع الضرائب من قبائل جهات نهر سبو. وكان النزول على القبائل من أجل الأداء يتخذ مظهر الاحتفال كل يوم تنفق فيه القبائل المتأخرة عن الأداء على كل الضيوف إلى حين تبرئة ذمتها من الجباية. وكان من مظاهر الاحتفال مسابقات الفروسية بين صناديد قواد الجيش والعمال الحاضرين. وكان دحمان، ولد ابن الحفيد في كل مرة يجلي في السباق ويترك الآخرين وراءه بمن فيهم الأمير المتقدم في السن، ويستأثر دحمان لسبقه بزغاريد النساء المتفرجات. وجعلته النشوة ينسى أنه كان يسابق أفذاذا غيورين وعلى رأسهم عم السلطان. وفي ليلة اليوم الثاني من ذلك النزول على القبائل أغرى جرمون، عامل سلا، بعض قواد الجيش بأن يملوا على الأمير تأديبا شيطانيا ينزله

بهذا الغر السلاوي الجسور. وهكذا استدعي دحمان إلى خيمة الأمير لينضم إلى مائدته، وقد أجبر على تناول الزائد من المسكر ولم يكن يتناول منه شيئا من قبل، فلما فقد وعيه تعرض لأنواع من العبث الفظيع من قبل عبيد غلاظ حتى ذهبوا بمهجته، وحمل جثة هامدة إلى والده في مدينة سلا.

وبعد هذه الدواهي كلها لم يعد ابن الحفيد يعير كبير قدر لمكايد جرمون الذي انتزع كل نفوذه بدعوى أنه من المقربين للسلطان السابق وأنه لم يرد عليه ما يجدد له الإقرار بالاستمرار في خطة القضاء.

بيد أن جرمون بالرغم من كل خساسته لم يستطع أن يصرف الناس عن الالتفاف حول ابن الحفيد ومواساته واستفتائه وطلب تحكيمه والتطوع لخدمته. وعلى كل حال فالرسالة الواردة في شأن شامة رسالة سلطانية، جاءت في اسمه وبصفته قاضيا لسلا ولابد أن تنفذ ولابد أن ترسل نسخة منها إلى جرمون لتحزنه.

وفي الغد أرسل ابن الحفيد إلى ناظر أحباس سلا يأمره بتخصيص دار عينها لشامة، وبعد أن جهز القاضي الدار أسكن بها شامة وعيّن لها جراية كل شهر على يد محتسب المرسى بالرغم من معارضة جرمون.

وبعد أسبوعين من استقرار شامة في سكناها الجديدة أرسل القاضي أحد خدامه إلى الجامع بين العشاءين ليطلب شخصا يلازم الجلوس هناك في مثل ذلك الوقت من كل يوم وهو علي سانشو. وعلي هذا هو رئيس المعلمين المكلفين بتزويق المدرسة التي أمر السلطان ببنائها وزخرفتها بسلا. فهو ممن استقدمه السلطان من معلمي الأندلس لهذا الغرض، ولكنه وإن تمهر على يد أشهر المعلمين المسلمين هنالك ظل نصرانيا إلى أن أسلم في سلا على يد القاضي ابن الحفيد بعد أسبوعين من وصوله، أي قبل ستة أشهر

تقريبا من تاريخ ذلك اليـوم. وإسـلامه صـار حديـث السـاعة بـين الناس بالمدينة، والمسلم الجديد موضـوع عنايـة العلمـاء والخطبـاء، ولا يفارق مائدة ابن الحفيد منـذ أن أقـر بالإسـلام. يكـن للقـاضي تعظيما شديدا بعد أن فهم مقام وسـيلة الهدايـة، وشـغله الشـاغل الآن أن يحفظ شيئا من القـرآن مـن غـير الآي الـتي يتقـن نقشـها زخرفة على الجدران، وهو مجتهد في أن يلم بالضروري مما يسـلم به الدين.

دخل علي غرفـة كتـب القـاضي بـالدويرة الصغـيرة ووجـده ينظر في شرح من شروح عمل اليوم والليلة، وبعد السلام واقتضـاب الحديـث حـول وصـول جميـع العـدة لإنجـاز تزيـين المدرسـة السلطانية، فاتحه القاضي في الموضـوع الـذي مـن أجلـه أرسـل في استدعائه وهو انتدابه لأن يتقدم لخطبة امرأة اسمها شامة والـزواج بها. وشامة معروفة مشهورة قصتهـا في سـلا، وصـار الكـلام عنهـا حديث المجامع بعد رجوعها بتوصية السلطان.

شرح القـاضي لمخاطبـه كيـف يتصـور جريـان الأمـور، مـن استعداده هـو لدفـع الصـداق وشـراء جهـاز العـرس وتفريـش دار الأحباس الـتي أنزلـت بهـا شـامة، ثـم ذكـر لـه سـيرتها الخـيرة ومكانتها من زوجته الراحلة، وختم بأن قدم الأمر على أنـه تدبـير غيبي وتحفة السماء له بعد أن شرح ا لله صدره للإسلام.

تهللت أسارير وجه علي وقام ليقبل رأس القاضي، فـأردف هذا الأخير قائلا : إن موعد عقد الصداق يكون الجمعـة المقبـل إن وافقت شامة وكان ذلك الموعد مواتيـا لهـا، وأنـه يهديـه خمسـين دينارا مـن السـكة الجديـدة لتكتـب في رسـم الـزواج ولزوجتـه أن تسلف منها لزوجها ما تشاء إلى أن يتيسر له ردها بإحسان.

فكر القاضي مليا بعد انصراف علـي وعـين خادمـة مـن دار أصهاره النازلين بسلا لتلتحـق بخدمـة شـامة، وعـين مـن عندهـم

أيضا غلاما يقوم على سخرتها وحراسة الباب. وخرج قاصدا دار شامة ليخبرها بما قرر ويستشيرها في أمر الزواج.

وصل القاضي إلى دار شامة بعد أن أسبق من أعلم، وكان قد أرسل مكبين نحاسيين تحتهما طعام للعشاء، وكان يعلم أن والدها العجال وزوجته الخودة يقيمان عندها هذه الأيام الأولى من وصولها. جلس القاضي منفردا بشامة يمطرها بأسئلة على سبيل الفضول والدعابة معا حول أخبار زوجها الجورائي وأهوال حملة الأطراف الشرقية ونظام دار أم الحر والرحلة إلى الحجاز.

جاء جواب شامة عن استشارتها في الزواج بعلي مماثلا لجوابه، وذلك بأن قامت وقبلت رأس القاضي وعيناها قد اغرورقتا بالدموع. خرجت وعادت بالخودة وبوالدها، وسمعا ما كرره على مسمعهما القاضي من خطبة شامة، واتبعها في القبول عن رضا والدها وزوجته الخودة التي أطلقت بعد الرجوع مع شامة إلى المطبخ زغردة تحمل من التفاهم بين المرأتين أكثر من معنى. ولم تكن الزغردة من القوة بحيث تثير فضول الجيران.

وما أن كان ضحى اليوم الموالي حتى دبرت الخودة حيلة تمكن بها شامة من رؤية عريسها الجديد، وذلك بمساعدة سيدة تسكن الدار المجاورة للمدرسة السلطانية التي يعمل فيها.

راقبته شامة من كوة في الجدار وهو يتحرك في بهو المدرسة أو يمشي على سطحها وليس بينهما سوى بضع خطوات. وما أن رأت جسمه الممتلئ صحة ووجهه الناصع وشعره الأشقر وعينيه اللتين يظهر أنهما ضاربتان إلى الزرقة حتى دب فيها إحساس لم تعرفه بالقرب من الرجال منذ أيام مراهقتها بدار ابن الحفيد.

انصرفت لأنها خافت أن يشعر بها أحد أو لأنها لا تطيق مزيد النظر. وعادت تتعثر في لحافها أمام الخودة، تكاد تخونها ركبتاها من الانفعال.

بسبب الشحناء القديمة بين شامة وبين من دبروا لها مؤامرة طست الغسيل بدار ابن الحفيد فضل القاضي ألا يشرك أحدا من أهله في عرسها، فكان عرسا بلا ضجيج. وحول خوان وليمة الصداق تندر أصحاب ابن الحفيد على عادتهم بإيراد نكت من الشرع والأدب تليق بالمناسبة. فمن مشير إلى الأصل الإسباني المفترى على والِدها العجال بقوله : "إن الطيور على أجناسها تقع"، ومن مُكن بالقرآن على نعمة علي بالرغم من حداثة إسلامه بقوله : "فعجل لكم هذه"، ولكن احتضان ابن الحفيد لإسلام علي ولزواجه بشامة جعل أصحابه من أعيان العلماء يوقرونه بل ويفرحون له ويعزمونه ويهادونه.

توقف ابن الحفيد لأسباب يعرفها هو عن توقيع رسم الزواج بنفسه، وعهد بذلك إلى قاض غيره لأمر شرعي يتعلق بعدم اليقين، ذلك أن زوجته الطاهرة قد أنمت إليه منذ رجوع الخودة من فاس خبرا علمته من هذه الخادمة مقتضاه في ذلك الموقف، إن صح، أن شامة ينبغي أن تزوج لعلي بصفتها بكرا لا بصفتها ثيبا.

8

تم الزفاف وانصرف من حضروه وأصبح علي وزوجته في بحبوحة من السعادة لا مزيد عليها. واكتشف علي أن إيمانه الجديد سيتمكن بهذه العشرة إلى الأبد، فستكون أستاذه الفعلي في كل العبادات، ولن يحتاج بعد إلى المفتين في الجوامع أو إلى إحراج زملائه معلمي البناء والتزويق، إن بينهما سرا سينبت ورود مودة وإخلاص، يعالجانه بنظرات لا تستديم ولو التقت، سر لا يعلمه غير الخودة، لابد أن تعامل بمقتضاه ولا يفوت عليها ما يليق به من الدلال والإكرام والعناية، لذلك أقامت عنده الخودة سبعة أيام كاملة.

وفي كلام دلال حول فطور اليوم الأول طلب علي من زوجته أن تسامح لكنته الأندلسية، وتغض الطرف عما لم يتركه بعد من عوائده القديمة، ووعدها أن يعلمها لغة أمه القشتالية.

بتوالي الأيام اعتاد الناس في سلا أن ينظروا إلى علي مسلما كامل الإسلام، ورأى المتعاملون معه شواهد تجوهر روحي في غرته، وقد صار المعلمون البناءون يسمعون منه أمورا من قيام الليل ورؤى من قبل المبشرات وأقوالا من قبيل المكاشفات. زالت عنه كل غطرسته الأولى في حق المتعلمين والخدام، ورأوه يبتكر فنونا جديدة من التزويق والتخريق على الجبس ويتدخل عند صناع الزليج لاقتراح تنسيقات غير معروفة في الألوان، غير معهودة في صناعتهم. ويوحي إلى الخراطين للخشب بمثل ذلك، ويأتي بأنواع من الخط يحسبها أنسب لآيات الجلال لعموديتها إذا كان المراد نقش آيات تدل على معاني العظيم أو أسماء توحي بالعزة، ويقترح أنماطا أخرى من الخطوط تغلب عليها الأفقية والانحناء إذا كان المراد نقش أسماء الرحمة وآيات النعمة والبسط والجمال.

وذات صباح جاء عازما على أن يعيد من جديد تزويق قاعات الدرس وبيوت الطلبة حتى تحتوي خطوطها على ثلاثة أنواع تمثل ما ينبغي أن يكون عليه كيان طالب العلم، أشكال قبض تبعث على الخشية في قلبه وأشكال بسط تمحو ما يستحيل من النهايات في ملك ذي العطاء الجزيل وأشكال هندسية تقابل صرامة الشرع المنزل، والزوايا المستقيمة التي يقتضيها، والتناظرات التي تتمشى على مقتضاها عقول الحكماء. وكلما حكيت في المجالس أخبار علي من هذا القبيل أجمع المنصفون على أن الرجل قد جاءه لصدقه فتح غيبي مبين، تصرًف له وظهر في فنون صناعته.

وهكذا صار علي يبهر الناس بفيض خياله، وبعد أسابيع معدودة زالت عنه عقدة لسانه وكأنه لم يعان يوما من اللكنة والعجمة، ثم أتى عليه وقت غشيته فيه سكينة تامة حتى إنه لا يكاد يكلم أحدا ولكنه ينكب على الأوشام لتزويق المدرسة، يصب فيها من مهجته، ويشير على الآخرين برفق لم يعهدوه فيه من قبل، ودام على ذلك حتى اكتمل شغله في المدرسة فجاءت آية في الحسن والجمال.

وما أن فرغ علي من العمل السلطاني حتى بلغ الخبر إلى الحضرة بفاس فجاء أحد كبار المشاورين لافتتاح المدرسة حتى تستقبل الطلبة، وبنفس المناسبة عين السلطان من يدرس بها من الأساتيذ. وبعد درس افتتاحها تسلم معلمو البناء، ومنهم علي، جوائز سلطانية، وأذن له المشاور الممثل للسلطان بأن يعمل لمن طلب خدمته من مالكي الرياض والدور المنيفة بسلا مادام قد تزوج وعزم على الاستقرار بها.

9

مضى عام كامل على زواج علي بشامة عندما انتهى العمل في تزويق المدرسة السلطانية. وما أن رحل المشاور الذي حضر الافتتاح حتى أخذ العامل جرمون يتحرش بعلي محاولا الضغط على الناظر بإخراجه من دار الأحباس ومانعا محتسب المرسى من المضي في تنفيذ الأجر الشهري المعين له.

كان ابن الحفيد يحبط كل مؤامرات الشر التي يدبرها جرمون ضد علي سانشو، لأن العامل المقيت مجبول على إرادة طمس كل فضيلة كيفما كان نوعها، وبهذا ينعته أهل سلا، حتى إنهم لا يفتأون يقرون فقيها أندلسيا حل بهم وسمع من خبائث العامل في حق أهل هذه البلدة فقال : "فصب عليهم ربك سوط عذاب".

وفي فصل الخريف المكمل لعامين بعد زواج شامة، أكل ابن الحفيد ثمرة تين وأصابه منها إسهال ترتبت عنه حمى شديدة أودت بحياته بعد أسابيع من لزوم الفراش، وكان فقده خسارة للمدينة ولشامة على الخصوص.

ولم يوار لحده حتى عاد جرمون إلى مؤامرته ضد علي، فأوقف الجراية عليه من المرسى وأخرجه من دار الأحباس واضطره لاكتراء مصرية قريبة من المسجد الأعظم. وبمرور الأيام تبين أن جرمون لن يكف عن التضييق على زوج شامة عند ذلك الحد، إذ بدأ يوعز لكل من أراد تشغيله من الأعيان ألا يفعل.

وعانى المعلم علي من ذلك الحصار، وكانت شامة تبين له ما يقتضيه حسن الدين من الصبر على الابتلاء، ولكن حدسها جعل قلقها يزداد كل يوم على ما يستقبل من مدلهمات الأيام.

وعند فراغ يد علي مما جمع من المال، وهو يريد أن تبيع شامة شيئا من نفائس حليها، ولما لم يوجد من أهل المدينة من يتحدى جرمون الذي منع تشغيله، فكر في الرحيل بشامة إلى مدينة أخرى، لكنه لقي تاجرا من أمالفي يأتي بالسلع إلى فندق الزيت بسلا: المنسوجات والأواني والأمواس من جنوة يبيعها ويشتري الصوف وأنواع الجوز ويسوقها إلى بر النصارى، كما يسمون بلدان أوربا في ذلك العهد.

كان فندق الزيت في سلا محطة تجارة معروفة لتجار البلدان قبل ذلك التاريخ بقرون، فبنايته لا تمتد إلا على بضع مآت من الأمتار، وساحته لا تتسع إلا لثلاثة موازين كبرى، وحوانيت إقامة التجار وخزن السلع لا يزيد عددها عن أربعين حانوتا، ولكن هذا الفندق هو مركز مكاس تجارة سلا مع البلاد، والبناية قلب منطقة تجارية حوله مليئة بالمخازن والمطاعم وحوانيت لعرض البضائع وغرف للسكنى. محلات دائبة الحركة، يلتقي فيها أهل الصفقات والمتخصصون في البيع بأجل وفي أنواع من الربا المقنع والصرافون وكذلك المتجسسون المهتمون بالأخبار. ورواد هذه الساحة من مختلف الأديان والأجناس، يتفاهمون بلغات مختلفة ويتعاملون مع الصحراء والسودان وقبائل الجبال ومدن الداخل وآفاق ما وراء البحر كالجزيرة وبلاد الليفورن وبجاية وغيرها.

كان للتاجر الأمالفي حانوتان للخزن والعرض في سفلي فندق الزيت وكان له غرفة في طابقه الأعلى. وقد اتفق مع علي على أن يدير تجارته في سلا ويكون مراسله والنائب عنه، لأن شريكه في بجاية قد توفي، وله تجارة أعظم هناك يفضل أن يديرها بنفسه قريبا من أسواق بلده ومن مستوطن أهله.

وبعد شهر من التمرين على المفاوضة والصفقات والحسابات والتعرف على عدد من الزبناء والاستئناس بحركة الأعمال في فندق الزيت، رحل التاجر الأمالفي وخلفه في جلسته التجارية علي سانشو، ورحل علي بزوجته لتسكن الغرفة التي في الطابق الرابع من الفندق.

انتقلت شامة إلى مسكنها الجديد بقليل من الأثاث مما تتسع له الغرفة الضيقة في فندق الزيت، وهي لا تفكر إلا في أن تكون قريبة من علي، وكأنها تحميه مما يحاك له من الدسائس. لم يدر بخلدها أن تقارن مسكنها الجديد، وهو أشبه بجحر فأر، بمرباها في قصر ابن الحفيد وبدار الجورائي الرائقة في فاس وبدار أم الحر في قصر السلطان. كانت في كل متقلباتها السابقة جرما مسلوب القلب والإرادة في أحقاق من الرخام والبلور، ونفيس الترصيعات، وهاهي اليوم، والأقدار تنصفها، تعيش في فضاء الوجد الرحيب، غير المؤثث إلا بارتعاشات الخوف القاتل على حنين حب وقع في قرارة النفس ينمو كل يوم ويرتفع، ليصرفها عن العالم المتحرك حولها. فهي تعيش هذا المزج الحتمي بين الحب الكامل العنيف وبين الخوف الرهيب من الظلم وغوائل الأيام. شابة رائعة متدفقة العواطف ولدت وترعرعت في خيمة رعاة لأسياد. حملت أسرار ربات القصور وقاسمتهن هموم الليل والنهار وتعلمت منهن فنون الحضارة وكيف تقرأ الكتاب، وعاشت مكايد أكثر من حريم، وزفت إلى بعل لا يرد له طلب يملك كل أنواع الجاه، علمها أن تعطي ولا تأخذ وجربت الخوف من الأسر، وعرفت كيف العيش في ظل جبهات الحروب في البلاد البعيدة، وشاهدت الموت الزؤام مكتوبا على صفحة بحر متلاطم الأمواج، وعاشت الترمل لزوج لا تعرف إلى الآن أين مدفنه، وفوتت في تركة مستغرقي الذمة للسلاطين، وحماها القدر من

نصب نخاسي البلاط المتقربين بالأعراض، وتنعمت برعاية أميرة كاملة الهمة، وجربت حياة الأركاب في المسافات الطويلة، ونجت مرتين من مصايد النخاسين، وتخلصت نفسها اللوامة بالدمع الذروف ليل نهار في أرض النبوة من أدران الآخرين لتسمو في مقامات الروح وهي في الأصل، منذ كانت، لم تعرف غير الخدمة وعمل الخير والإحسان، فهي طاقة خيرة ونفس زكية، وبراءة لم تفسدها عوادي الزمان.

بعد أيام قليلة استأنست شامة بسكناها في فندق الزيت، بضيقه وجلبته وقلة نظافته وجيرته من أخلاط البشر، لأن شعورها بعد كل الذي جرى هو أنها الآن لم تعد تبالي بما حولها إذ صارت هي الفضاء المسكون بشريكها في روحها، هذا الإنسان الذي حل بين أضلعها. وقضيتها هي أنها تريد أن يتسع كل يوم فضاء جوانحها لأن حجم الذي حل في وجدانها يتسع في كل لحظة وقدره يعظم يوما بعد يوم.

لم يخطئ الذين قالوا عنها إنها هبة لهذا الإسلامي من السماء، ولكنهم يجهلون أنهما معا ولدا ولادة من جديد، وكلاهما أعتق من نار، ولا يهم بعد كل الذي جرى أن يكشر الشر عن أنياب في شخص طاغية أو شامت، فشامة وعلي دخلا في زمن مطلق يطوي وجودهما ويلفه إلى الأبد.

تستطيع هي أيضا أن تحلف بالأيمان أنه يحملها بين جوانحه كما تحمله، لأنها تعرف كيف تقرأ كتابه الذي عاد بلقائها صفحة بيضاء ولم يكتب فيه بعد شيء. فلا معنى لشيء يكتب في كتاب، فكل العلم في طي الدفتين وعناقهما. فصمته كلام، وغربته تعود إلى عهد ما قبل حلوله بهذا البلد الأمين، قلب شامة، وقدر سعة القلب يذكرها بأحاديث كانت تسمعها هي ومن كن في دار ابن الحفيد من واعظ اسمه أبو عشرين، كان يقرأ

على مسامعهن الكتب من وراء ستار، وذات يوم تحدث عن القلب، وقال إنه ليس ذلك العضل الذي ينخض الدم في الجسم، بل هو شيء لا نراه يشبه طاقا في الجدار فيه قنديل ينيره خافتا أو وهاجا، وفي ضوء نوره يقرأ الناس ما في العالم، أي يفهمون، وذكرت أن الواعظ قال إن ذلك الطاق قد يصير غرفة أو قصرا يتمدد إلى ما لانهاية، يتمدد بالشكر لصانعه فيعود إليه تارة أو يحل به إلى الأبد. وعند استعراض وامض لهذه الذكرى، فكرت شامة في أن الذي سيوسع قلبها هو الشكر ليصير قصرا لانهاية له، عند ذلك يتسع بما فيه الكفاية لصاحبها علي، فهي تتصور حتى كيف تتركه ينزل إلى السوق بقلبها، ألم يرزقه الله زوجة نعمة رحمة ليسكن إليها ! وعندها حارت في تصور قلبها على حدة، وقلبه الذي يحمل ذلك الإيمان الكبير على حدة. وجزمت أنه صاحب الفضل عليها، لأنه صانع قلبها ومزخرفه على غرار ما أبدع في تزويق مدرسة السلطان. وقدر لقائه هو الذي أنجاها من تحرش الذئاب حتى جعلها حسنة لمن يستحقها. فقلبها سيتسع له لو تمدد بالحب والشكر. وقد ظهر لها أن مشكلها سيظل قائما إلى أن تجد حلا لهذا التعدد : هي وهو والصانع. لكن فهما برق في ذكائها اهتدت به إلى أن الذي يساعد على توسيع القلب هو كثرة التنهد وتصعيد الزفرات.

قطع عليها الاستغراق في هذه الخواطر دخول زوجها علي متهللا، وما أن جلس حتى أخبرها أنه تلقى اليوم خمسة أحمال من الشواشي والقبعات من صنع أمالفي، وباعها في حينها وربح ما لو لم يحصل سواه في عدة أشهر لكفاه.

ودق الباب ودخلت الخودة لتزورهما أول مرة في سكناهما بالفندق، وظهر عليها التأثر لما أدارت بصرها في المكان وتبين لها حقارته إزاء المساكن التي تقلبت فيها شامة. ثم وضعت أمامها ما

حملته من زبد وعسل وقشر جوز يستعمل في التزين. وبعد إخبارها بتحسن حال زوجها العجال والد شامة بعد إصابة برد، استطردت ذاكرة أنها تعرف هذا الفندق ورواده والعوائد السائدة فيه منذ ما قبل اختفاء زوجها في البحر، ثم في أيام ازدهار الفندق حيث كانت مشتريات قصر ابن الحفيد في الماعون والتجهيز وحاجات أولاده يطلب إحضارها من تجار هذا الفندق، ولاسيما اليهود منهم والنصارى الذين كان من هم ثقات يأتون إلى القصر ويسمح لهم بالدخول حتى الروض الأول لعرض مبيعاتهم على النساء، خاصة اللائي لا يحتجبن من أهل هاتين الملتين ومن العطارين والجواهريين المسلمين. وذكرت الخودة أنها تعرف بشخصه التاجر الأمالفي الذي استخلف عليا على أعماله. وأن الفضل يرجع للقاضي ابن الحفيد في السعي لدى المحتسب في السماح له بإزالة الجدار بين غرفتين متجاورتين كان يكتريهما في هذا الطابق ليكون منهما هذا المسكن الذي تحل به شامة وزوجها.

زاد فضول شامة لتعرف من صديقتها أكثر ما يمكن عن سكان المحل التجاري الذي يتراءى لها أنه أشبه ما يكون في تنوع من فيه بسفينة سيدنا نوح عليه السلام. ساعتها شاهدت شامة من غرفتها المشرعة الباب جارا مقابلا لها دخل إلى غرفته، وهو رجل طويل القامة خمري السحنة يرتدي أطمارا مرقعة ولكنها نظيفة، يحمل قفة بيده. كانت غرفته تقابل غرفة شامة في الجهة المواجهة. ما أن أغلق حوله الباب والمرأتان ترقبانه من عمق غرفة علي، حتى بدأت الخودة تتحدث لصديقاتها عن ذلك الرجل، فهو أبو موسى الملقب عند من يعرفونه من أهل سلا يلقب بكنيته "تامسنا". رجل لا يشتغل عند أحد ولا يتكفف لأحد، يعيش من عساليج البحر، وكان في مغارة على الساحل حتى أرسل إليه المحتسب من يأتي به ليسكن هذه الغرفة الموقوفة على من فيه

أوصاف المنقطعين المتوكلين أمثاله، وكـان يسـكنها قبلـه مجـذوب غريب الأحوال يلقبه العامة باسم "العجـاج"، ومـن غريـب أطـوار هذا المجذوب أنه جاء ذات يوم بأتان إلى سـاحة المسجد الأعظـم وقت خروج المصلين من صلاة الجمعة فأخذ يلاعبها، فلمـا اشمـأز المارون من شغله وسأله بعض من تعودوا ممازحته عـن سـر فعلـه، قال لهم : أنا الآن مشتغل برتق الخرق الذي وقع في السفينة. فلـم يؤخذ كلامه على عادة الناس معه مأخذ الجد لأنه في نظرهم ساقط التكليف كطفل من الأطفال ليس إلا. ولما وصل إلى سلا بعـض مـن كـانوا مـع السـلطان المخلـوع في سـفينته الـتي نجـت مـن كارثــة الأسطول العـائد مـن حملـة الأطـراف الشـرقية قـالوا إن سـفينتهم دفعها الريح دفعا قويا فارتطمت بحجرة وسـط البحـر فوقـع فيهـا خرق تسربت منه المياه إليها بشدة وكثرة حتى يئس من فيهـا مـن حذاق البحارين من سده وظنوا أنه الغـرق والمـوت المحقـق، فـإذا بهم يرون شخصا كأنه من صناعتهم في صـورة الرجـل هـذا المدعـو العجاج، يحمل الألواح ويدافع الماء ويطرق المسامير ويسـدد الشـقق بقير لم يروا شدته في أنواع اللزاق، ولم يخطـر لأحـد أن يسـأله أو يتعجب منه حينئذ وكأن الذي كان يهمهم هو النجـاة والخـلاص. ولما ذكر ذلك من ذكره بسلا تذكر الناس يـوم أن عبـث المجـذوب بالأتان في ساحة المسـاجد ومـا قالـه تفسـيرا لفعلـه، فذهبـوا إليـه ليسألوه فوجدوه في غرفته وقد أسلم الروح.

استأنس قراب المـاء الـذي يـأتي بيـت شـامة في مثـل هـذا الوقت وأذنت له بالدخول ليفرغ قربته بخابيـة الغرفـة، والتفتـت المرأتان إلى علي فإذا هـو مـن طـول مـا استغرقتا في الحديـث قـد استسلم لغفوة فوق السرير.

توادعت المرأتـان وانصرفـت الخـودة، وبعـد هنيهـة عـادت ومعها شابة شقراء في أوائـل البلـوغ واسمهـا خوليـا، وهـي تسـكن

نفس الفندق والطابق مع والدها، وهو تاجر نصراني من بلد ألقنت بالأندلس، مختص في تصدير الجلود وقشرة شجرة الدباغ من عدوة الغرب. انتقل من جبل طارق إلى سلا قبل بضع سنوات ومعه بنته خوليا اليتيمة الأم. وقد تعلمت خوليا العربية واعتادت مع من في سن طفولتها أن تدخل دورا في سلا مع من كانت تخالطهم من البنين والبنات، ولربما قضت أياما وليالي في بيوت للمسلمين من معارف والدها أو مخالطيه وعملائه. وكانت مقبولة لملاحتها وطرافة لكنتها الأندلسية ولأن اسمها طالما ذكر الأمازيغ من سكان سلا باسم الحمق والغفلة في لسانهم. وكلما تقدم سن خوليا ظهر عليها تمرد على أوامر والدها وتضايق هو من مشاركتها العيش في غرفة واحدة وازداد خوفه على أن يصيبها أذى في أرض غربته، وهو يتردد في أن يضحي بالأرباح التي يحققها في التجارة بسلا لمجرد العودة من أجل بنته إلى بيئتها النصرانية في وسط مسلمي الأندلس. وكان أخوف ما يكون من أن يأتي يوم تعلن فيه بنته تحت إغراء أقرانها اعتناقها للإسلام.

قامت الخودة بتقديم خوليا لصديقتها شامة، لأنها تعرفها منذ حلولها بالفندق، بينما لم يكن يسمح لها بدخول دار ابن الحفيد.

كان النساء الثلاث واقفات أمام باب غرفة شامة يسترهما إلى منتصف القامة الحوش الدائر على الطابق من جهة الساحة الداخلية للفندق. بادرت خوليا بإخبار شامة أنها ابتهجت بمجيئها لأنها لم تعد الأنثى الوحيدة القارة التي تسكن فندق الزيت من ذوات المروءة. ولم ترد شامة أن تقاطعها لتستفسر عن معنى كلامها بينما رأتها تندفع وتقول إن والدها واسمه بيدرو تعرف على علي زوج شامة وأنه ابتهج به هو أيضا، ويريد أن يقيم معه صداقة خاصة لأنهما من بلد واحد ويتكلمان نفس اللغة

وإن كان سانشو قد بدل اسمه وتغير منذ حلوله بسلا ؛ ثم أردفت قائلة : أطرف ما في هذه السكنى أننا نلجأ إلى ميضاءة واحدة.

10

في اليوم الموالي نزل علي إلى الحانوت واشتغل بمطالب بعض زبنائه من أهل الصحراء، فجاءه المكاس يراجعه في شأن أثمان القبعات التي باعها في اليوم السابق، وفي كل محاسبة كان المكاس يظهر أنه غير مقتنع بالنتيجة، مدعيا أن ما استخلصه منه على تلك الصفقة دون المبلغ المستحق، واستمر النقاش بينهما، ووجد علي نفسه مصروفا عن زبنائه بهذا الشغب دون أن يتبين له مخرج ممكن من معاكسة المكاس. وما لبث النقاش بينهما أن احتد وإذا كلام المكاس يتضمن كلمات جارحة في حق التاجر لا مبرر لها إلا الإصرار على الإساءة إليه، وتحمل علي إساءة المكاس على مضض، فإذا أحد أعوان المكاس وكان يراقبهما من بعيد يتقدم ويهدد عليا لأنه يعاند سيده ويستحق بسبب ذلك أن يوضع عند حده. وهكذا تحول الكلام بين الثلاثة إلى لجاج بدأ يستأثر بانتباه من كانوا من قبل منهمكين في البيع والشراء بالفندق، وتقدم بعض التجار، وغمز عليا من وراء ظهر المكاس يشير إليه بالإذعان لكل شيء وإنهاء النزاع. عندها فهم علي إشارته، وقال للمكاس : قل لي المستحق الصحيح الذي تقدره، وأنا أؤديه إليك. عندئذ صرخ المكاس في وجهه بشتائم قادحة متهما إياه بالطعن في حرمته والمس بعدالته. وفقد علي هدوءه وبدأ يصرخ، فإذا شخص ثان يساعد المكاس يتقدم ويحاول مع الجراي الأول أن يقبضا على علي ويقتاداه إلى خارج الفندق. عندها علا الضجيج وانتفض منهما علي دافعا أحدهما دفعة قوية انقذف بها بعيدا على ظهره في الأرض. وتحول المشهد إلى مصارعة بين علي وبين أولئك الثلاثة. وكان مشهدا قلما عرف مثيله أهل الفندق. وكانت شامة آخر من أطل من وراء حوش الطابق الرابع لأن صراخ زوجها على ما يبدو

بلغ إلى أذنيها. ولما تأكدت مشدوهة أنه هو، انتزعت من على السرير إزارا والتحفت به ونزلت بأسرع ما أمكن لها وأخذت تحاول إخراج زوجها من حمأة العراك. ورأى كل التجار والزبناء والفضوليين مخلوقة من الإناث كأنها من الملائكة جاءت تنصر رجلا حديث العهد بالإسلام وقع في قبضة المكاس الذي يستعيذون با لله منه كما يستعيذون من الشياطين.

دخل ثلاثة من العسس إلى الفندق وكأنهم كانوا مارين من هناك بالصدفة، فارتموا على علي ووضعوا قيدا في يده ودفعوا به أمامهم، فإذا بالمكاس وصاحبيه يصران على أن تقتاد معه المرأة أيضا لأنها شاركت في إهانة خدام السلطان.

ألقي بعلي وزوجته في سجن بنيقة العامل جرمون، وهو بيت ضيق قذر ينتظر فيه المتهمون أن يقدموا إليه للمحاكمة. وكان المرور بهما في وسط الأسواق مثار الدهشة والاستنكار لأن الناس لم يألفوا الاستهانة بالمحارم بهذا الشكل ولأن عددا منهم تعرفوا على هذا الرجل المتهم وعلموا أنه ذلك الرجل الطيب والمعلم الماهر الذي قادته فضيلته إلى نور الهدى وطريق الغفران.

انتشر الخبر في المدينة وطلب بعض المصلين من إمام المسجد الأعظم، واسمه الفقيه بوعشرة، أن يستشفع للمظلوم، ووعدهم بأن يحاول ذلك بعد العصر. وقبل ذلك الوقت كان علي وزوجته قد مثلا أمام جرمون وقام العامل فسب عليا وأمر زوجته أمامه أن تزيل لثامها مادامت قد توقحت على الخدام الأبرياء، وهددهما وسرحهما على غرامة كادت تعادل مقدار نصف رأسمال تجارة علي.

وكطفلين لا يعرفان للمال قدرا ولا يقران للشر بوجود، سد علي وشامة باب الغرفة من ورائهما بعيدا عن جرمون وآله واستغرقا في أحلامهما يومين كاملين. وفي اليوم الثالث دق عليهما

الباب بيدرو التاجر، جاء يخبر عليا أن أحمالا من الأواني المعدنية ومن منسوجات حرير الهند قد وصلت في اسمه من جنوة. فشكر علي مسعاه وأحس أن بلديه الأندلسي هذا يكن له عطفا لاسيما بعد الذي نال عليا من تعسف المكاس وما شاع من أن العدوان عليه كان مدبرا من جانب العامل ومن أن المستهدف منه هو شامة بالذات.

نزل علي وتسلم بضاعته وأوثق خزنها وأرجأ كل من خاطبه في البيع حينا، وخرج إلى السوق ورجع بحوائج للبيت والتحق بشامة في مسكنهما.

أخبرها بمضمون السلع الواصلة إليه وذكر ما لاحظه من التضامن معه في أعين كل من مر بهم أو لقيهم من تجار الفندق وزبنائه. لكن شامة فاجأته عندما علقت على كلامه قائلة : لا تعول على تأييد التجار والسماسرة في هذا الفندق، فقلوبهم ميتة، ثم إنهم عقلاء جدا ولابد للمرء أن يفقد عقله ويسترجع قلبه قبل أن يواجه أعوان طاغية. وأنت لست سوى تاجر بالصدفة، وإن لم تكن بقدرهم من الشطارة فإنهم لابد أن يحسدوك على سعدك، فهل أنت محظوظ حقا ؟

عرف علي أن ذلك السعد هو هي وأنه السعد كله، فهي في كل يوم تقضي بقوة إيمانها على جانب من الخوف الذي يستبد به، وفي كل ساعة يزيد إعجابه بهذا الإباء الذي يملأ نفسها إلى حد يسامت الغرور وليس منه. فقد أرادت أن تحرره من كل المخاوف التي أراد جرمون أن يستعبدهما بها، فقالت وكأنها تستكشف ما يخبئه المستقبل :

هب أن جرمون قضى على تجارتك وأحوجنا إلى التسول، وهب أنه اضطرك إلى الهجرة دوني، وهب أنه سجنك إلى الأبد واضطرني لأخدم في بيوت أنذال من أمثاله لأعولك، وهب أنه

سجننا معا ووضع قيودا في عنقينا، وهب أنه قتلك أو قتلني أو قتلنا معا، فهو مقيت مع ذلك، ولا يستطيع أن ينزع مني الثقة التي زرعها في نفسي المتحضرة الأكرمون من أسياده، وكادوا يقدسونني لأنني كنت المرآة العاكسة لأخلاقهم الطيبة وعواطفهم النبيلة. وأنا اليوم أحتقر هذا المسيد على السلاويين، وأنا اليوم أكاد أعبدك، فكل ما يمكن أن نفعله حتى لو وقرنا أو أمهلنا لن يكون إلا تكرار لما عشناه منذ التقينا وما بلغنا فيه النهاية، من أنواع التعبير عن صادق العواطف، فالذين يحرصون على أن يأمنوا من الظالمين يعلون قدرهم، فلا خير في مستقبل تحت رحمة هذا الظالم، غير أنني تذكرت الآن أن الواعظ الذي كان يخاطبنا من وراء الستار في دار سيدي القاضي ابن الحفيد كان يذكر لنا شيئا يبرر التحمل، ويسميه الأدب مع الخالق، لكن لننس الآن هذا المقيت والمستقبل المجهول معه. ودعني أعبر لك عن شيء آخر من قبيل الأدب معك.

استمع لكل ما قالته ولم يفهم منه إلا القليل لأن هذه المرأة تقلبت في القصور وتشبعت في ثقافة هذه الحضر وخدمت نفوسا رقيقة الأذواق عالية الآداب متشبعة بالحكمة ذربة على دقائق الاعتبار، ولو خالفها فيما دعته إليه، وما يجوز له أن يفعل، واتبع خاطره الأول وطربه الذي لا يوصف بذلك الكلام لخرج يهرول إلى أن يصل إلى البحر ليطل عليه من فوق جرف ويخبره بما سمعه منها في هذه اللحظة ويسأله إن كان محقا في ما فهم. البحر هو الذي لا يهمه المستقبل، لذلك فهو لا يخاف، وقلب شامة قد صار ماء، فقد رجع إلى أصله الذي خلق منه كل شيء حي، ألم تقل له منذ لحظة إن قلوب التجار والسماسرة قد ماتت إلى الأبد ! ؟. لقد تعجب من كونها لم تذرف دمعا لما اقتيدا معا إلى سجن العامل، وبعد كل ما وقع. فالماء لا يبكي، والحياة لا

تخاف. والضعف كما قالت يأتي مـن هـذا الحـرص علـى التكـرار والرتابة، وإلا فمن كل شيء يكفي شيء واحد أو مرة واحدة، وبعد ذلك لا يبقى ما يستحق أن يشغل عن الإقدام.

11

فتح علي مخزنه بالفندق في اليوم الموالي وجاءه تجار من قاعدة سوس فاشتروا منه جملة كل أوانيه المعدنية بالثمن الذي أرضاه، ثم جاءه تجار من فاس واشتروا كل منسوجات الحرير التي توصل بها، بأسعار لا محاككة فيها.

وكان علي يفكر في التخلي عن نسبته من الأرباح في الصفقة الأولى وجزء من نسبته من الأرباح في هذه الصفقة حتى يتسنى له أن يحفظ رأس المال ويؤدي لموكله نسبته في الأرباح، يرسلها إليه وهو في بجاية بنفس عملة سلطان فاس التي كانت سائدة من حدود مصر إلى أقصى غرب بلاد السودان، لأن عليا يعتبر الغرامة التي أطلق سراحه جرمون مقابلها، وإن كانت ظلما، لا تقع إلا على تبعته هو.

بحث علي عن المكاس ليفاصله في شأن ما حصله في هذا البيع فلم يجده، بينما أبى معاونه القائم على الميزان وسط الفندق أن يجري معه الحساب المعتاد. ولما صعد علي إلى غرفته جاءه معاون آخر يزعجه، فطالبه بكشف يقع عليه حساب المتعين في المكس. فأدلى بما هو واقع وبحسب ما أدى الحمالون عليه رسم دخول باب المدينة بخصوص تلك السلع التي وصلته، غير أن المكاس حذره من مغبة الغش مرة أخرى. وما أن مكنه علي من ورقة مكتوب فيها مجموع ما حصل من بيعه ذلك الصباح حتى ضج المكاس وصرخ في وجه علي ينهره وهو يقول : أتسخر مني أيها الرومي الكذاب ؟ أتسخر مني ؟ أما اتعظت بما جرى لك من قبل ؟ أتريد أن توبقني مع الجابي الكبير ؟

عند ذلك تقدم تاجر صحراوي وسمسار يهودي كانا يتناولان طعاما في مخزن بركن الفندق، وحالا بين علي والمكاس،

وتلطفا لهذا الأخير حتى دخل معهما المخزن، ومكناه من كوب رب من بلد مصمودة مبرد في قلة خزف مالقية طليت فوهتها بالقطران، وتظاهر بأنه نسي في الحديث معهما كل شيء، وكأن الشغب الذي حاوله مع علي كان مجرد استفزاز مصطنع. وعند انصرافه قال لهما : إنكما الضامنان لصاحبكما الرومي، والمترتب عليه، حسب ما عندي في سجل مكاس الباب، يزيد بالثلث عما ادعى أنه مجموع سلعته. وثمن بيع البضاعة حسب ما أخبر به زبناؤه السوسيون والفاسيون عند خروجها من الفندق يزيد عما صرح به هو بكذا وكذا، فهو مدين لي بما يناسب المكس على ما ذكرته، وهو إلى ذلك مطالب بذعيرة الغش لسيدنا العامل، وكل هذا ينبغي أن تمكناني منه أنتما الضامنين قبل مغرب هذا اليوم.

ارتعب الرجلان لتورطهما من حيث ظنا أنهما نجحا في إطفاء غضب المكاس وضمنا رفقه بزميلهما علي، وكاد السمسار اليهودي يفقد رشده وهو الذي قضى عمره عاملا في السمسرة بهذا الفندق ولاسيما بين التجار البلديين وتجار الآفاق مما هو وراء الصحراء أو وراء البحر، وشهد غوائل المكاسين والعمال، وكم نكبوا وقادوا إلى الإفلاس من نذل وشريف. فما أن سمع كلام المكاس حتى تصورت له النهاية وبدأ يطلب الأمان وكأنه سيقاد إلى السجن من حينه.

كان علي ما يزال بسفلي الفندق ينتظر خروج المكاس، ولما رآه منصرفا وسمع قولته لزميليه وما عليه صديقه اليهودي من الهلع سارع بالوصول إليهما، وقال : ما صالحتما عليه نائب العامل في المكس أؤديه لا محالة، فجازى الله سعيكما أيها الصديقان الكريمان.

بعد أن أدى علي ما طولب به تبين له أنه أضاع كل الفوائد وثلث رأس المال. ولما عاد إلى شامة بادرته بالقول :

لقد سمعت تهديده ووعيده وعرفت أنه أخذ كل المال، وهذا لا يهم، قلت لك من قبل : كل هذا لا يهم. ولا يهم ما سيقع في الآتي من الأيام. هل أنت جائع ؟ هل تحب عصير لوز ؟ هل تريد أن أخفف عن مزاجك ذلك الضيم لتنام ؟

تأكد لعلي بعد هذه الفاجعة الثانية أن شامة، المرأة الرقيقة العواطف المرهفة الحس التي تستطيع بحنوها أن تسعد أطفال المدينة جميعا، هي في نفسها كالطود لا تتزعزع، مدرعة بعقيدة تحميها ضد آثار الضيم والهوان، لكن تشككا وقع له من قبل فطرده وعاد الآن ليهاجمه، مضمونه أن شامة ربما تقاسي معه صابرة مضايقة العامل والمكاس لأنها تعرف أنها السبب في ذلك، لجمالها الساحر ولصناعاتها وآدابها المكتسبة من دور شريفة، ولكونها كانت محمية ابن الحفيد غريم جرمون، ولزواجها بهذا الطارئ الحديث العهد بالإسلام، ولما سمع عنها من تدلهها له إلى حد يشبه العبادة، ولإبائها الذي ظهر عند مثولها أمام العامل، فلم تضعف ولم تتشفع، ولربما تمنى الآن أن لو لم يكن عندها شيء من كل ما تحسد عليه ماعدا حبها له، فهو لا يرى شيئا ماعدا هذا الحب يمكن أن يحرص عليه، والواقع أن هذا الحب ماجد كان ليثير أي غيرة أو نزوة حسد لو كانت امرأة عادية مرتبطة برجل عادي مثله. فهي في أصلها ليست سوى بنت أمها الجبلية التي أعطتها كل قوتها أثناء الولادة والرضاعة لتموت بفقر الدم هي وحملها الثانية في غيلة، وليست سوى بنت رجل يرعى البقر ويربيه لأحد كبار أعيان البلد. فقد يكون من ذنب بعض أرحام النساء المعدمات أن تقذف إلى العالم فتنة لا يحميها مال ولاجاه. بيد أن فتنة شامة ليست مجرد قوام متناسق وعطاء سخي كامل في كل خلقها الملائكي، بل هي أيضا فتنة ببراءتها وزكو رُوحها، ويتجلى كل ذلك لعلي في سكينة تطويه وكأنه في

مكاشفة، وتعرج به ليحس ويذوق ويفهم. فهو الآن شـخص آخـر. وكيف يمكن أن يتصور كل نعمته بها مع نعمته بالدنيا، الحقيقـة أن الدنيـا تحسـده، وليـس العـامل المقيـت والمكـاس الوقـح سـوى أنياب ومناسم من جسم الدنيا، هذا الغول المهـترئ. فشـامة بهـذا الاعتبار ليست من الدنيا بل هـي مـن ضدهـا، هـي مـن الآخـرة، ولذلك فهي لا تبكي، وكيـف تبكـي الآخـرة علـى الدنيـا ؟ والآن يمكن أن يفهم قول المتندرين الذين حضروا وليمة زواجه ممن قال: "فعجل لكم هذه". ولكنه لا يتصور أن كل هذا الذي تمثله شامة في عينه وفي أعين الآخرين وتغمره به هـو خاصـة مجـرد معجـل مـن شيء أعظم وأنفس، وحتى لو خير في المزيد فلا يظن أنـه يتصـوره أو يطيقه، ولكن هذا المزيد هو بالقطع موجود فيها، فلا يمكـن أن يدعي أنه استكشف كل جوانب ذخيرتها، فهو يكاد يتيقـن أنهـا تعطيه من روحها ما لا يطيق إناء قلبه أن يحتويه، فكل يوم يهرق معظم هذا العطاء بعجزه، بينما معينها لا ينضب. لقد فهم أن مـن يحمل حبا أكبر يكـون إنـاء قلبـه هـو الأوسـع والأعلـى، والحـب يسـري منـه للمحبـوب، ولكـن شـقاءنا لا يـأتي مـن بخـل الآخـر وحسب، بل يأتي على الخصوص من عجزنا عن الأخذ.

تعجب من كل هذا الفهم الذي يتـنزل علـى قلبـه، وأرسـل نظره إلى ركن الغرفة فرأى قلة بها زيت مـن مكنـاس، أتحفـه بـه أحد تلاميذه القدامى ممن يعملون المخرقات على الجبس، فبدا لـه أن يشتهي على شامة بيصارا يصنع من الفول ويؤكل بذلك الزيـت وبأبازير على مثل ما كان يخرج للعمال من دار ابن الحفيد لما كان يشتغل في تزويق المدرسة السلطانية، وهـو واثـق أن شـامة تحسـن تنبيل هذا الطعام السوقي الأصل.

دعا علي جاره بيدرو وبنته لتناول البيصـار في العشـاء، ولمـا فرغوا من الطعام انحاش علي وبيدرو إلى ركن تحـت نـور القنديـل

يتكلمان، بينما كانت شامة وخوليا تتناجيان في ركن آخر على ضوء شمعة يتراقص نورها الخافت. كانت شامة تستكشف أخبار بنت بيدرو وهي تحس أن هذه المراهقة لابد أن تكون لها مشاكل تعاني منها في سنها وتحتاج إلى خبرتها هي لتسلي عنها وتنصحها. وبين الفينة والأخرى كانت شامة ترمق الرجلين المستغرقين في حديث جدي بصوت منخفض، لكن شظايا منه كانت تبلغ أذنيها، وهي تعلم مقدما جلية الموضوع الذي سيطرحه زوجها على ضيفه.

قص علي على بيدرو فعلة المكاس الثانية في ذلك اليوم وتحرشه به والنهب الذي تعرض له على يديه، وكان بيدرو حين وقع الحادث غائبا في قضاء حوائج بالمرسى. ثم وصل علي إلى بيت القصيد وهو أنه متيقن، وشامة توافق على ذلك، أن المكاس بأوامر من العامل سيوالي عليه المضايقة ولن يترك له فرصة ممارسة التجارة بالفندق، وأنه مصمم على قصم ظهره بجميع الوسائل، ولذلك قرر أن يعرض على بيدرو أن يخلفه في هذه التجارة ويكون هو الذي يتلقى ما يبعث به موكله الأمالفي الذي رحل إلى بجاية.

وافق بيدرو على أن يتقاسم نصف الأرباح مع علي ويبقى النصف الآخر من نصيب صاحب رأس المال. ومع أول ركب من التجار خارج من سلا في اتجاه سبتة أرسل علي خطابا إلى موكله ببجاية يخبره بالتدبير الذي اضطر إليه وبالأسباب التي حملته على اتخاذ قراره، ويطلب منه أن يكون توجيه أحمال السلع مستقبلا، سواء أرسلت بالبر أو بالبحر، في اسم بيدرو، علما بأن عليا سيبقى الضامن لرأس ماله. وعلى التاجر الأمالفي في بجاية أن يكتب بذلك لكل مراسيله ببر شمالي البحر وببلدان المغرب الأوسط وإفريقية.

مضى شهر كامل وصل خلاله وسقان من البضائع باسم علي، ولكن عليا لم يظهر في ساحة البيع والشراء بالفندق، بل تكفل بيدرو بالتسلم والخزن والتصرف على مقتضى ما تم عليه الاتفاق بين الرجلين، وبدا وكأن كل شيء سيسير وفق المراد.

وبينما كان علي راجعا من صلاة العشاء بالمسجد الكبير حيث كان يجلس إلى الدرس بعد المغرب في كل يوم تقريبا، تعرض له بباب الفندق اثنان من أعوان العامل جاءا في استدعائه. وقد استمهلهما حتى يخبر شامة فامتنعا وقالا إنها على علم بذلك لما دقا بابها قبل قليل.

ذهب العونان بعلي وزجا به في سجن العامل، أي في الغرفة القذرة المعروفة بالبنيقة. وقضى هنالك أول ليلة بعيدا عن شامة منذ زواجهما. وبكى لذلك وحرقت أحشاءه أحاسيس الضيم. وتصور شامة صامدة لا تبكي فاطمأن. ثم ضجر من هذا التصور لأنه يريدها أن تبكي من أجله، ثم تخيل أن تكون قد تعرضت هي الأخرى لعاملة لا يعلم طبيعتها. ولربما اضطرت إلى أن تبيت خارج غرفتها، في مكان ما لمواجهة مصير ماكر، وتمثل له حبها الكبير وإباؤها واستحقاقها لكل ثقة من جانبه، ثم فكر في هشاشة كل هذه الأحاسيس النبيلة والأوصاف الراقية أمام قوة الإغراء والطغيان.

لم يغمض عينا بسبب الخوف والجوع والبرد والوسواس، ولما تجاوبت أصوات المؤذنين بأذان الفجر وصل إليه صداها عبر كوة بالبنيقة، وتصور أن شامة حتى لو نامت فإنها ستكون الآن في مصلاها كالمعتاد، وستدعو له، ودعوتها ستخترق السماء، وهو يعرف الآن أن دينه الجديد كدينه القديم يقرن النعمة بالابتلاء، وهو موضوع طالما تناوله الوعاظ الذين جلس إليهم في الجامع الكبير.

وفي ضحى الغد، أخرج علي من سجنه وقدم أمام العامل فاتهمه بمحاولة إفساد تجارة المدينة وتجارة الفندق بالذات، بما يكاتب به تجار الآفاق البعيدة ليحولوا تجارتهم إلى أسواق أخرى. ولما أنكر علي تلك التهمة، أسكته جرمون ونهره وشتمه وهدده وأشهد عليه ألا يعود إلى فعل ما اتهم به وإلا وقع تحت طائلة غرامة فادحة لا قبل له بأدائها تعوض خسائر المكس السلطاني لمدة عام.

سرح علي وعاد إلى مسكنه بالفندق وتلقته شامة بزفرات الشوق ودون كلام. ولما سري عنها الألم شيئا فشيئا سألته عما وقع وأخبرها، فلم تعلق على ما قاله وكأنها تعلم كل شيء، أو تتوقع كل شيء كمن يعلم الغيب مجملا ولا يعرف تفاصيله، أولا يعير اهتماما كبيرا لتلك التفاصيل.

12

أقيمت سمسرة رباع الفندق في تلك الأيـام، وزيـد علـى كـل ساكنيه في الكراء، وعجز بعضهم عـن التعهـد بمـا طولبـوا بـه لأن المحتسب قام بأمر من العامل بدفع مشاركين مزورين في السمسـرة ليدفعوا إلى المغالاة. وقيل إن الغرض من كل ذلك أن يدفـع سـاكن صحراوي يسكن بالطابق الرابـع إلى الإفـراغ وهـو يعيـش مـن بيـع الثوم والفول المقلي والحناء بحانوت خارج الفندق، وقد أفرغ غرفته فعلا، وسكنتها امرأة في الأربعين اسمها تودة المعروفة بمشاكسـاتها حتى كنيت باللصقة مـن كـثرة مـا تسـتفز وتخـاصم، وهـي سـيئة السمعة، لها اتصال بالعامل، وشاع أنه يرشحها لأن تحـل محـل عريفة القاضي التي خرفت وصارت طاعنة في السن.

رأت شامة في سكنى هذه المرأة بجوارها نذيرا بأمور شـنيعة. وما هي إلا أيام حتى ظهر خرق تلك المرأة للعيـان، فقـد كـانت لا تتحرج في رفع صوتها بالغناء والنداء من أعلى الفندق علـى غيرهـا من السكان أو التجار والزبناء، وكانت تفتح باب غرفتها وتسـتلقي أمامه في كل الأوضاع غير آبهة بأحد. ولا تتورع عن استقبال غرباء عن الفندق في غرفتها. ثم إن الذي أزعج شامة فوق كل هذا هو أن تودة اللصقـة هـذه قـد اسـتولت تمامـا علـى خوليـا بنـت بيـدرو، فصارت هذه الأخيرة تتردد عليها وتقهقه معها وتتهامس، وتبتعـد بالعكس من ذلك عن شامة، لم تكتف خوليا بالانحراف عن شـامة بل شكت كاذبة لأبيها بأن شامة تغريها بالدخول إلى الإسلام.

والواقع أن شـامة مدفوعـة بطبعهـا الـذي يجعلهـا بتلقائيـة تندفع لتحمل هموم الآخرين، كانت تشعر بواجبها في تبـني تلـك الفتاة الغريبة التي تعيش في غرفة واحدة مع أبيها وهي في مقتبـل الشباب، فشامة من هذا الصنف النادر من الناس الذي يشـعر أنـه

مسئول بلا طمع حول العالم المحيط به، كأنه من مسئوليته، ولاسيما إذا كان الأمر يتعلق بفساد يصلح أو ظلم يرفع أو ضعف يرحم. وذلك على أساس شعور مبدئي في النفس لا على حسب استطاعة فائضة. ومعولها في ذلك على الإنفاق من عطاء الذات التي تجد في كل تضحية أو بذل لذتها بل معنى وجودها.

وهاهي تودة النزقة قد حالت بين شامة خوليا، بل إنها جعلت هذه الأخيرة تتعلم كيف تتمرد حتى على أبيها يوما بعد يوم. وكانت تخرج معها إلى الحمام وإلى بعض الحفلات عند ناس من غير المشهورين بالوقار. وما هي إلا أيام حتى وقعت خوليا في المحظور وأصابتها الكارثة. فقد كانت اللصقة سببا في خروج خوليا مع جماعة من المتنزهين إلى سواني خارج الأسوار، وهنالك تعرضت لمعاملة فظيعة من طرف بعض أولاد الأعيان واختفت مع بعضهم هناك ولم يعلم والدها بيدرو بذلك إلا بعد أن أغلقت أبواب المدينة عند مغرب الشمس. وقد رشا بيدرو بعض أعوان العامل ليساعدوه في محنته، ولم يسفر بحثهم عن نتيجة إلا بعد أسبوعين عدت فيهما البنت مفقودة وأوشك فيهما بيدرو أن ينهار ويصاب بالجنون. وبعد أيام أرسل العامل إلى بيدرو من يأتي به ليخبره أن البنت في بيت أهل ولد متهم بالاعتداء عليها، ومع ذلك فوالدها لا يستطيع رؤيتها إلا بإذن العامل الذي هو الآن بصدد التحقيق في هذه القضية.

وبعد أن رأى بيدرو بنته وهي تتماثل من صدمتها، أُخبر أن العامل لم ينه تحقيقه بعد وأن البنت ستبقى حيث هي إلى أن يؤذن لها بالخروج، وبإمكان والدها أن يراها مرة في الأسبوع لا غير.

بكى بيدرو وحزن ورجع وسقط فريسة لهموم تنخر من نفسه وجسمه، ولم يجد العون والمواساة إلا عند جاريه علي وشامة

اللذين يعدهما من الأصفياء. ورأى علي أن شامة قد بكت لأول مرة لما أصاب صديقهما في بنته. لم تبك يوما لمصائبهما الخاصة هي وزوجها، فلعلها تفجعت لما رأت أن حياة امرأة بكاملها قد أهدرت. أما وقد وقع هذا الإهدار فلا عبرة في نظر شامة أن تشغل نفسها بالتفكير في نذالة المتسترين عليه. وهي لم تجرؤ أن تشرح لبيدرو ما فهمته من قصة الاحتفاظ ببنته حتى تشفى، والأجل الذي تتوقع فيه هي أن يطوى فيه كل شيء. ولا هي استساغت أن تتصور الثمن الذي استخلصه العامل من أهل المتهم، بل لم ترد أن تشرح هذا حتى لعلي وذلك حياء منها، لأن مثل هذه الجريمة في نظرها عورة كبرى. ثم إن شامة ليست ممن يرى أن الحياء ساقط كله بين الزوج وزوجته، أليس الحياء مرتبطا بجانب من تعظيم المستحيى منه ! فهي تريد ألا يفوتها التعظيم من ذلك الجانب، فهي تعفي صاحبها حتى من فحش اللسان ومن سقطات الجسد، وتتستر عنه في بعض الأحوال وكأنه أجنبي عنها. ولكنها تعرف كيف تأخذ منه حقها وتوفيه، طليقة الحواس والمشاعر، فهي متشبعة بما سمعته في هذا الشأن من الواعظ الذي كان يحدثهن من وراء ستار بدار ابن الحفيد، ثم إنها على دراية بفنون من الغنج ترفع نفسها عن ساقط اللذات.

تعمدت تودة اللصقة أن تظهر غير ما مرة تلك الأيام أمام بيدرو وهي تتحدث مع العسس والأعوان حتى لا تحدثه نفسه بعمل شيء يؤذيها وهي التي كانت توحي إلى ابنته بكل الأفكار الشيطانية. وتردد بيدرو على دار الجاني مرة كل أسبوع ليرى ابنته وهي لاتفوهُ بكلمة أمامه. ثم أذن له أن يعود بعد أسبوعين حتى ترجع معه. ولما حضر وجدها قد شحبت وفقدت نضارتها وعنفوانها المعهود، كأنها تعرضت لنزيف شديد وتعذيب فظيع تظهر آثاره حتى في دائرتين زرقاوين تحيطان بعينيها

الذابلتين. نظر إليها بيدرو وبكى، وتعجب كيف فعل بها ما فعل، ولأي أمر شنيع تعرضت أو أي أخلاط أشربت، وبأي ذنب أتلفت.

وصل بها إلى الغرفة بالفندق ليلا وتكفلت شامة بالعناية بها بالرغم من الغضب الدفين الذي تواريه عنها. وخوليا ليست من جهتها مطمئنة إلى شامة لأنها أرادت من أول وهلة أن تكبلها بالأخلاق والنصائح بينما كانت تودة تشرع لرغبتها الجامحة وخيالها الجانح جميع الأبواب. وشامة في حقيقة الأمر تبدي هذه الرعاية لها الآن شفقة على بيدرو والدها المحطم الكسير واستجابة لحسن فطري فيها. ومن حسن العناية والحنو تأثرت خوليا بمعاملة شامة فكانت تنجذب إليها في بعض الأحيان وترتمي ناحبة على صدرها.

أما بيدرو فقد صار يتحرج من النزول إلى رحبة الفندق للاتجار، وصار أمر بنته معروفا، وفي تلك الأيام وصل من التاجر الأمالفي ببجاية خطاب إلى علي يخبره أنه يتنازل له عن كل شيء مما بقي له من رأس المال، وأنه قرر أن يغلق نقطة تجارته في سلا، ويفوض له أن يستعمل مخزنه في ما شاء أو يفوته إلى من يشاء أو يعيد مفتاحه للمحتسب المكلف بالأملاك.

ذهب عن خوليا وهنها دون أن تعود إليها كل نضارتها. وقد جددت اتصالها باللصقة وانحاشت إلى سيرتها، فقررت شامة مقاطعتها تماما من أجل ذلك. وحزن بيدرو لهذا الأمر حزنا شديدا. بل إن بنته قد صارت تسلك سلوك من خسر كل شيء أو من ينغمس في أشياء لا يعلم تبعاتها وعواقبها، غير مستجيبة إلا لنزوة شديدة في الانتقام من العالم ورغبة في التمرد على كل معروف. وهكذا صارت تخرج مع اللصقة دون إخبار والدها بوجهتها، بل صارت تطالبه بأن يكتري لها غرفة خاصة بها

وتهدد إن لم يفعل أن تتزوج مسلما. والواقع أن بيدرو لا يعبأ أبدا بتهديدها هذا لأنه لا يشكل كارثة بالنسبة إليه لو تحقق، والغصة التي في حلقه من مأساة ابنته هي بسبب ضياع أمله فيها وشعوره بفشله في صيانتها، ثم بسبب ضيم من عدم الإنصاف على يد العامل. أما قضية المروق من الدين فإنه لم يحس يوما بشيء من الحقد على سانشو صديقه زوج شامة الذي تحول إلى الإسلام، والأتقياء في نظره موجودون في كل الأديان، فإذا تحولوا من دين إلى آخر فإنما يدفعهم لذلك مزيد البحث عن شيء لم يجدوه، دون أن يعني ذلك أنه غير موجود في دينهم القديم. ثم إذا هم تحولوا فإنما يتحولون بتقواهم إن كانوا من أهلها، فهؤلاء مربوحون لجميع الأديان.

أذن العشاء ذات ليلة ولم ترجع خوليا بعد إلى مسكنها في الفندق، فجاء بيدرو إلى علي وشامة، وذكر لهما مصيبته. وكانوا يعرفون ثلاثتهم أن اللصقة موجودة ببيتها آنذاك. ووضعت شامة أمام الرجلين حبات جوز وثمارا يابسة مجلوبة من الواحات، وحاول علي أن يسلي صديقه ويشجعه على استئناف نشاطه في التجارة في جلسة الأمالفي بالفندق وعدم إعارة الاهتمام لتقولات الناس وغمزهم. لكن بيدرو تجنب أن يعطي لصديقه علي وعدا باتباع نصيحته، واكتفى بأن قال لشامة : أنت عظيمة وتستحقين أن يحبك كل الناس. وبعد ذلك تمنى لهما ليلة هنيئة وانصرف.

13

رجعت خوليا إلى الفندق في ضحى الغد ووجدت الغرفة مفتوحة ووالدها غير موجود بالفندق. وذهبت تسأل شامة، فلم تكترث لسؤالها ورفضت حتى أن تنظر إليها. ولما لم يحضر في المساء أخذت خوليا تسأل عنه كل من تلقاه عسى أن يكون خبره عند بعض الجيران.

لم تكن تودة هنالك لتساعدها في البحث أو لتعطيها كسرة خبز تأكلها. وبسقوط الظلام بدأت تبكي من الخوف لأنها جائعة ولأنها قد تضطر إلى المبيت في غرفة غير مقفلة، فعادت إلى شامة، ولما وقفت أمامها ثانية تفهمت حالها وسمحت لها بالدخول عسى أن يكون والدها قد تأخر في بعض أسواق الضواحي ووصل إلى الأسوار بعد إغلاق الأبواب واضطر إلى المبيت في قرية مجاورة. ويحتمل أيضا، كما تصورت شامة، أن يكون قد لجأ في تلك الحالة إلى زاوية النساك وبات هناك في ضيافة المقيمين بها وهم لا يسألون من أوى إليهم لاعن بلده ولاعن دينه ووجهته.

عاد علي من جلوسه بالجامع بين العشاءين وفوجئ برؤية خوليا في بيته، وأخبرته شامة بأن بيدرو لم تعد وبأنه ترك الباب مفتوحا، ففكر مليا، ورجع إليه صدى آخر تحية من بيدرو إلى شامة : "أنت عظيمة تقدرين أن يحبك كل الناس". أرجأ علي الجزم بما ظنه من أن يبدرو هاجر ولن يعود. وبعد تناول بازن، خرج علي لينام في غرفة بيدرو وترك شامة وخوليا في مسكنه.

وفي عشية الغد استدرجت تودة خفية بنت بيدرو إلى غرفتها وأخبرتها أن نبأ وصلها من بعض المقربين من صاحب الشرطة يقول إن والدها أدى واجب المجاز على نهر سبو وأنه

حمل مخلاة على ظهره واتجه في ركب لحق به هناك في طريقه إلى سبتة.

وبعد أن بكت خوليا بكاء مرا بين يدي توده، بادرتها هذه الأخيرة بالحديث عن مشاريعها معها في المستقبل وبكونها ستكون لها بمثابة الأم والأب وأنها ستحميها لأنها مسموعة الكلمة عند الحكام والأعيان. وقد جاء على التو ما يحقق أول تلك الوعود حيث إن تودة تدخلت لدى من يهمه الأمر فتلقى محتسب الأملاك أمرا بتسجيل اسم خوليا عوض اسم أبيها في سجل كراء الغرفة بالفندق.

شاع هذا الخبر وتأكدت به شامة من المصير المظلم الذي ينتظر الفندق وساكنيه. وأظهرت جفاء ظاهرا لبنت بيدرو وحاميتها تودة، وقررت أن تسد الباب في وجههما.

14

وفي تلك الأيام وصل ركب العائدين من الحج إلى سلا، وكان الترحيب بهما على المعتاد في الخروج إلى ظاهر المدينة في طريق تفلفلت من الباب الشرقي، واحتفل بذلك أهالي العائدين وبجانبهم الحجاج السابقون وأهل النسبة الشريفة وأعيان العلماء ومعلمو القرآن والحفاظ ودراري الكتاتيب والمبجلون من أهل الزهد وأرباب طوائف الطاعات والمداحون وكل من يليق للتعبير عن تقديم التهانئ لرجال ونساء قطعوا الفيافي والقفار وتحملوا نصب الطريق ومخاوفها لأداء فرض الحج والوقوف على أعظم الحرمات.

وبعد استقبال جميع من في الوفد في الجامع الكبير حيث حُملت من دور الأعيان والمتصدقين أطايب القرى والطعام والصدقات للمعدمين من الحجاج والألبسة للمحتاجين منهم، تفرق الواصلون وذهب بكل حاج إلى أهله ليقام له دخول خاص في بيته أو بيت أقاربه أو أحبابه.

في ذلك الاحتفال بالجامع الكبير قال بعض من حج إنه رأى في الطواف وفي أثناء قضاء مناسك أخرى أحد سكان فندق الزيت وهو أبو موسى. صرح بذلك أكثر من واحد، وناقشوا مع من حضر من المستقبلين حول صحة ذلك أو عدم صحته، وأنكر البعض ذلك الادعاء لأن أبا موسى لم يغادر الفندق في موسم الحج، وحتى إن غاب فإنه كان يغيب بمغارته المعروفة بجانب البحر شمالي سلا، حيث يمكث يومين أو ثلاثة على التوالي ثم يعود. وسخر هؤلاء المنكرون ممن ادعى الرؤيا وعذروهم بقولهم : يخلق من الشبه أربعين.

أنهي إلى العامل ما ادعاه بعض الحجاج من كون الرجل النكرة المهمل المدعو أبا موسى المتردد في سكناه بين فندق الزيت

وبين مغارة بجانب البحر خارج السور شمالي المدينة، قد حج هذا العام معهم ومن أنهم لقوه ورأوه وكلموه أثناء أداء المناسك.

أرسل العامل من أعوانه المستخبرين من يحقق مع شرطة المدينة وحراس فندق الزيت خاصة ولاسيما البواب المعروف بأبي جعرة، حتى يعلموا منهم ما إذا كان أبو موسى هذا قد تغيب في وقت الحج مدة تكفي لرحلة إلى الحجاز. وقد جاءت كل الأجوبة بالنفي وأكدت تحركات هذا الرجل بين فندق الزيت ومغارة شاطئ البحر في أيام وأوقات محددة مقيدة في أزمة الرقباء على الأبواب.

أرسل العامل رئيس شرطته ليحضر شهودا ممن سمع من حجاج بأسمائهم تلك الدعوى المتعلقة بلقاء أبي موسى حين أداء المناسك. واجتهد رئيس الشرطة ما وسعه حتى جمع اثني عشر شاهدا على ثلاثة من الحجاج، ولم يوفق في استكمال المطلوب بخصوص آخرين.

تم استنطاق الأشخاص الحجاج المعنيين، وأقر واحد منهم ما ورد في شهادة العدول، وقال اثنان إنهما يشكان في أن يكون الشخص الذي لقياه أبا موسى بالذات وقد يكون شبيها له وليس هو بعينه، وسرح الشاكان على غرامة لأنهما أسهما في ترويج إشاعة كان من شأنها أن تثير الفتنة بين الناس. أما الثالث فقد أمر العامل أن يضرب بالجلد ثلاثين مرة فيختبر إن كان قد تاب من هذا التخريف المضر بالسكينة بين الناس وبسلامة تمييزهم. لكن العامل ارتأى أن يقوي حكمه برأي مكتوب من كبير المفتين في المدينة سيأتي لا محالة موافقا للمرغوب منه، وسيدخل اسم العامل لأول مرة بذلك في سجل من استفتى العلماء في مثل هذا الأمر الغريب صيانة للعقيدة وحفظا لمروءة الإشهاد وتخفيفا من تهمة العامل بالاستبداد.

وصل طلب العامل إلى المفتي واسمه يحيى قولان، ونصه :

"اعلم حفظ الله سيدنا أن رجلا حج هذا العام وعاد إلى بلده سالما فأشاع بما أقر إشهاده عليه به أنه لقي شخصا أثناء المناسك وتحقق منه وربما تحدث إليه، بينما شهد الجم الغفير من أهل البلد أن هذا الرجل المدعى له الحج لم يغادر مدينتنا إلا لقضاء حوائج في ساعات أو أيام خارج السور. وقد ادعى الشهود عليه بالرؤية البصرية أن سفر المدعى له قد يكون على سبيل السفر طيا كما تواتر عند أهل الأزمان الماضية ووقع الإقرار به لبعض الصالحين. فالمطلوب منك الإفتاء بجواز وجود شخص واحد من مكانين متباعدين في وقت واحد، وهل هذا السفر بالطي، إن تحقق، يمكن أن يقر به شرعا وتمضى على أساسه الأحكام."

وجاء جواب المفتي كما يلي :

"اعلم، حفظ الله خدام سيدنا، أن الأحكام لا يمكن أن تمضى على أساس الإقرار بإمكان وجود شخص واحد في مكانين متباعدين في آن واحد. أما السفر طيا بالطيران أو غيره فقد يكون بالروح وقد يكون حتى بالجسد على ما عرف للصالحين وتواتر في أخبارهم قبل هذا الزمن الذي تفشى فيه المنكر وشوهد فيه الجهر بالموبقات."

وصلت الفتوى إلى العامل جرمون وقرئت له، ولما التفت إلى بعض مستشاريه أظهروا له ما فيها من خطر سياسي، فأرعد وأزبد وأرسل في طلب المفتي.

دخل المفتي إلى مجلس العامل ووجده محاطا بعدد من رجال حاشيته ومن بينهم صاحب الشرطة والمحتسب وبعض جلسائه من المتفقهة والمتحذلقين، فأذن له في الجلوس بعد السلام، وبادره قبل استوائه قائلا : "لقد ورطتنا يا قولان إذ أحسنا بك الظن واستفتيناك، وورطت نفسك أيها المفتي، وأنكرت

الرعاية ولم تشكر الجميل، وخالفت ما كان عليه السلف، ومن واجب هذه المدينة أن تتبرأ منك وإلا أوبقتها. فما الذي حملك على الغواية حتى شططت في مكتوبك الركيك وأخذت تشتم عهد سيدنا المعظم وتضعه دون عهد من سبقه حيث وصفته بزمن تفشي المنكر والجهر بالموبقات ؟ "

ذهل المفتي واصفر وجهه وتلعثم لسانه إذ ارتاع من شدة المفاجأة وفادح التهمة بشيء لم يكن يتوقعه. ولما عاد إليه بعض انتظام أنفاسه تشجع وقال :

" يا سيدي ! حاشا أن يكون قصدي بتلك العبارة لمز عهد سيدنا المجيد، وإنما قصدت بالزمن زمن الذين يجحدون نصيحة سيدنا ويكفرون بنعمته من عصاة أمره. ولم أقصد الواقفين عند حدود ا لله من خيرة رعيته... "

وعندها قاطعه العامل والتفت إلى أحد جلسائه المتفقهة وقال له : وما قولك في هذا الرد أيها الفقيه ؟

فقال الشخص المسئول وكأن جوابه كان محضرا جاهزا :
"نعم يا صاحب العفو والمكرمات، بعد أن قرأت جواب المفتي كما أمرت، وجدت أن الأمر الذي يخلصنا ويخلصه هو الإقرار بأن هذا النظر الذي أدلى به فيه قولان، وهنا ضحك كل من بالمجلس للجناس بين هذا اللفظ وبين كنية المفتي، ثم تابع الفقيه قائلا :

إما أن يفسر قوله على التنقيص من عهد سيدنا كما فهمت ذلك السيادة المنيفة، وفيه ما فيه من البهتان وسوء المغبة علينا جميعا لو رفع الأمر إلى الحضرة العلية، وإما أن يحمل قوله على ما شرحه لنا الآن فيكون يقصد بعض الناس لا غير، وإذ ذاك فعهد سيدنا بما أفاء عليه من سمو مقامه وعظيم بروره ومنيف رعايته للحرمات والقربات أولى من العهود السابقة بأن يظهر فيه الكرامات ويتفيأ وارف ظله الصالحون والزهاد من أصحاب خوارق

العادات، فهو حفظه الله أول الزهاد وأعظم الصالحين، والناس، كما قيل، على دين ملوكهم.

التفت العامل إلى قولان المفتي وقال :

- أعفيناك من الإفتاء حفظا لك وحفظا لرعية سيدنا من سقطاتك، فالزم دارك من الآن.

والتفت إلى صاحب الشرطة وقال :

- لا يجلد الحاج المتهم برؤية المهبول في الحج، ولكن مَحِّصُوه حتى يتشكك في دعواه، فهو غير متأكد منها، ثم خلوا سبيله.

وأخيرا قال لجليسه المتفقه :

- اجمع المفتين غير هذا المتاهفت وحرروا لنا رأيا بمقتضى ما ذهبت إليه في كلامك مما يخلصنا، واقرأوا نصه بالجامع واجعلوا الحكم في القضية على وجه الشك، وأنذروا من تقرب للمهبول أو اعتقد فيه بالوعيد من أعواننا.

نفذ تدبير العامل، ولكن تفاصيل القضية وصلت إلى أسماع الناس وزادهم ذلك استياء من نزق العامل وتسلطه، ولفت انتباههم إلى أبي موسى المهبول الذي دار هذا كله بشأنه دون أن يعلم أو يستشار أو يسأل. فهو لا يكاد يكلم أحدا إلا بالسلام أورده، ولا داعي له لأن يفعل، فهو يعيش من عساليج البحر ولا يعرف أحد ماذا في القفة التي يحملها ذهابا وجيئة ولا تفارقه، وهو لا يلبس إلا من ثياب يتصدق بها عليه عارفون بحاله من عدم الاستجداء، يضعونها على شريط الغسيل أمام غرفته وهو غائب، ولا يظهر أنه يستعمل القنديل إلا قليلا للإضاءة بالليل سواء في فندق الزيت أو في مغارة شاطئ البحر. ولا أحد يجرؤ عليه في طلب شيء، مشهود له بأنه مهيب بلا قوة ولا مكانة، إذا صادفه أحد وخاطبه بكلام رد بابتسامة تسفر عن أسنانه الناصعة البياض التي لا ثلمة فيها ولا تسوس، تبدو من فم صغير بين شارب

مقصوص ولحية غزيرة الشعر لا بياض فيها، وهو نصف في القامة، ذو وفرة، وعمامته خضراء أو بيضاء نظيفة لها ذؤابة، يلبس مرقعات صوف تحت سلهام في الشتاء، ويتزر بقطعة رقيقة من صناعة الحائك في الصيف.

أخذ بعض النساء والأطفال يترصدون أبا موسى للسلام عليه بتقبيل يده، وكان يتهرب من ذلك، بل إنه اختفى من المدينة عدة أيام حتى فهم الناس تضايقه من إثارة الانتباه.

15

أما شامة فإن قضية أبي موسى أعادت إلى ذاكرتها كل ما سمعته من قصص المجاذيب والأولياء والصالحين، وكانت تحكي ذلك لعلي وهي على غاية اليقين بصحته. ولقد تعجبت لكونها لم تلتفت إلى حدود تلك الأيام لجارين من جيرانها في الفندق بما يناسب انطباعها الطيب عنهما منذ البداية؛ أولهما أبو موسى وثانيهما لقلاق شيخ يتربع على عش تاريخي فوق شجرة صفصاف قرنية الجذع والعروق تعلو وسط الفندق وتتفرع أغصانها المهشمة عن جذع أبيض علوه بقدر علو الطابق الرابع من البناية. وبين هذه الأغصان من بداية تفرعها بنى أجداد هذا اللقلاق عشا منذ قرون، فشامة تعرف هذا اللقلاق وقصته لما كانت بدار ابن الحفيد، وما تخيلت يوما أنها ستجاوره في المسكن، وقصته معروفة في آفاق المغرب وغيرها من الآفاق التي يأتي منها التجار إلى سلا، وله مكان في سجل ناظر الأحباس لأن سيدة نبيلة جعلت إيراد كراء حانوتين لها بسوق الشوائين وقفا على حاجة اللقلاق، يشترى له من مدخوله اللقط من الحبوب والبيض وكل ما جرب أنه يعجبه ويقبل عليه ولاسيما أثناء إعالته صغارا وأمهم، وقد حدث المعمرون أن هذا الوقف وقع التوسع في الإنفاق منه في القديم حتى على أطباء جبروا كسر طير من جنس اللقلاق أو غيره من الطيور المعطوبين بالاستناد إلى فتوى بعض الفقهاء. وفي بداية كل جيل من أجيال هذا اللقلاق المحظوظ يستدرج الذكر أنثى من جنسه إلى ذلك العش، وهناك تبيض ويفقس البيض وتهاجر، ويكبر صغارها ويهجرون. وإذا مات الوالد يوما لم يفرغ العش سوى مدة قصيرة حتى يحل به لقلاق جديد، يظنه الناس من سلالة المنقرض لا من غيرهم وكأنها سلالة نبيلة صالحة من بني

لقلاق، بل إن بعض الفاهمين عزا ذلك الامتياز إلى التسبيح للرب آناء الليل وأطراف النهار، ومن ذلك جاء اسم اللقلاق الذي هو في الأصل مشتق من "لك، لك" اختصارا لتسبيحه بعبارات مثل : الحمد لك، الشكر لك، الخ. ويظل الوقف جاريا عليه ويظل الناس على نسج الأقاصيص حول الطائر الشيخ بفندق الزيت بسلا.

استعادت شامة هذه الأقاصيص كما كانت تسمعها منذ صغرها، ومر بخاطرها ما غير صفوها وهي تفكر في مصير إناث اللقلاق وهن أصل هذه السلالة، فالواحدة منهن تطرأ على العش وتستولد وتهجر، وفكرت في الولد يسقط من العش وينكسر، وفكرت في كونها لم ترزق ولدا بعد وسط البلايا المتوالية عليها، وتمنته وأشفقت منه وخافت وعادت فتمنت وشعرت بأحشائها تضطرب ثم تهدأ وبقشعريرة تتكون فيها كما تسري الدوائر في لجة يرمى فيها بحجر صغير. وعادت لتتأمل اللقلاق كما هو الآن أمامها في العش، أمام بيتها كما يبدو من فوق الحوش الدائر بالطابق. إنه هادئ ساكن تارة في عشه، منتفض تارة أخرى بجناحيه محدثا قهقهة تنم عن شيخوخة يعاني الطائر من عقابيلها. وهناك تذكرت حفلة عرسها بالجورائي في السواني خارج سور سلا، وتذكرت الورقاء التي غنت والقاضي الذي أنشد فيها شعرا للقدماء، وكيف خطر له بصددها كلام الطائر وتلك المناجاة الشاعرية له قبل أن يعطيها اسما جديدا، ورقاء، هذا الاسم الذي ألبسته ثم خلع عنها، عنوان حلم جميل صنعه لنفسه مقرب للسلطان. وتجنبت شامة أن تقارن بين تلك الأيام وهذه الساعة التي تعيشها، فإنها ولاشك أسعد من الأخرى ؟ إنها لا تحتاج إلى أن تفكر وتقارن، فهي الآن تأخذ وتعطي، وحبال المكر منصوبة أمامها، وهي تعاني ولكنها تحب، وهي تعرف أنه حب

مصيري قيضته لها يد القدر التي تعاملها بعناية، ولاتهم النتائج، ولكن المهم هو أن القدر بلاها في كل التقلبات ووجدها لا تكف عن العطاء.

كائنان يشهدان على كل ما يجري في الفندق ولا يتكلمان : اللقلاق وأبو موسى، ولعلهما الوحيدان اللذان يعرفان ما ستأتي به الأيام، ولكنهما راضيان بذلك مشفقان منه. وهي تظن أنها تستطيع أن تتقرب من أبي موسى على الأقل، وتسأله أو تطلب منه إذا كان يعرف ما يخبئه لها القدر، فهي لا تشك في ما راج حول سفره إلى الحج طيا، ولا تشك في أنه من أهل الولاية والمعرفة، وأنه مجرد رجل أنهى كل شيء هنا وينتظر. فلا شيء يكدر صفو قلبه إذن، ولا غشاوة على بصره الذي ينظر إلى الحقيقة، وهو ولو تقربت منه لن يرفضها لأنها، كما قال بيدرو، يستطيع أن يحبها كل الناس.

دقت شامة بيت أبي موسى ولم تر أحدا فعل ذلك من قبل، وأطل من بابه فأطرق ببصره وانتظر منها ما تريد أن تقوله، ولكنها لم تستطع أن تقول سوى طلب واحد لم تكن فكرت فيه من قبل وهو : هل تقبل يا سيدي أن يقضي معك زوجي وقتك في النهار حيث تقضيه ؟

فأجاب بالقبول وتعجبت، وكأنها كانت تتصوره أخرس، أجاب بسرعة وطلاقة وقال : نعم يستطيع أن يفعل ذلك متى شاء.

شكرته وتراجعت وهرولت إلى أن دخلت غرفتها، ولم يكن علي هناك، فارتمت على السرير وخبأت وجهها فيه كأنها عادت من مقابلة ملك في السماء، مبتهجة بهذا الغنم الذي حققته لزوجها، وكانت تخاف عليه في هذه الأيام من كآبة الوحدة وسآمة البطالة.

16

خرج علي أول يوم في الضحى مع أبي موسى يتبعه عن بعد حتى لا يشعر عسس الباب بعلاقة بينهما. ولما أراد أن يخرج من الباب الشمالي الغربي للمدينة، وهو باب سبتة، حجزه العسس بعد أن تحققوا من هويته وطلبوا منه أن ينتظر مدة قبل أن يتمكن من الخروج، وخرج رئيس العسس وأمامه غلام مساعد جرى ليقضي أمرا كلفه به ثم قال لعلي : لا نخفي عليك ما عندنا من الأوامر في شأنك، فكلما أردت أن تخرج من أحد الأبواب فلابد من إعلام العسس في الأبواب الأخرى بذلك حتى لا يسمحوا لزوجتك بالخروج، ولو خرجت هي لما كان بإمكانك أن تفعل.

دهش علي لهذا التحجير واحتاج إلى أن يتراجع ويعود إلى شامة ويخبرها بما ليس في حسبانهما. ولكنه تجنب إظهار الغضب والانفعال، وانتظر حتى طاف الغلام بالأبواب وعاد فسرحوه.

لم يدر إلى أين يتجهَ. ولكنه ألقى بصره جهة البحر فرأى أبا موسى تحت شجرة ينتظره، فالتحق به وتقدما دون كلام بينهما إلى أن وصلا إلى المكان الذي به مغارة أبي موسى على شاطئ البحر. فدخل إليها أبو موسى ودعاه ليتبعه، فإذا هي مغارة مفتوحة على البحر في قدم جرف عال، تتسع لجماعة من الناس، وفي جدرانها علقت حبال بها معقودات من مختلف الفواكه والخضر اليابسة وأكوام من اللحم القديد ومن الحوت المملح ومرقعات نظيفة ومخلاة بها أوراق ولوح خشب به كتابة كادت أن تمحى بمرور الزمن عليها، وفي جانب من أرض المغارة قلة ماء وحبات من الرمان.

صلى أبو موسى ركعتين وخرج من المغارة حاملا قفته واتجه إلى رصيف ترتطم به أمواج البحر، وأخذ يلتقط العساليج ويضعها في القفة. استغرق في ذلك مدة ما وكأنه يتخير ما يلتقطه أو كأنه في التقاطه هذا يقوم بعبادة ما بسكينة تامة لا فور فيها. يقف ويتأمل ثم ينحني ويغرس موساه بين الحجارة ثم يسحبها، وهكذا بلا ملل.

يفعل ذلك وعلي ينظر إليه تارة ويسرح بصره في أفق البحر تارة أخرى، وكأنه يغتسل في قرارة روحه من أدران الفندق ويفرغ ما علق بسمعه من الجلبة هناك، وكأنه الآن قد نسي الناس جميعا إلا المرأة التي تسكن جنبيه وتدبر حياته، وتداوي أسقام روحه، شامة التي عرفت أن خروجه مع أبي موسى سيرفع همته عن أرض الخساسة المتربصة بعشرتهما، ثم إنها أرسلته إلى البحر هناك وكأنها فعلت لتوقفه أمام مرآة نفسها وهي كالبحر تلامس أمواجها البر وتعود إلى منبعثها، وأرسلته كأنها أرادت أن تخرجه إلى فضاء أرحب لو أوقفته أمام زرقة في عمق زرق عينيها، وهي طالما خافت عليه من ضيق صدر يجعله فريسة لزمن المكايد الذي يعمل الآخرون على حبسهما فيه.

عاد علي وحكى لشامة ما وقع له في رفقة أبي موسى، وأخبرها أنهما، هو وهي، في شبه أسر بالمدينة، لا يجوز لهما أن يغادراها لسبب لا يعرفانه. لحد الساعة لم تعر شامة كبير الاهتمام لذلك التحرش الذي تكرر من حكام سلا. وألحت على أن يقص عليها كل تفاصيل خرجته وسكنات رفيقه وحركاته، فهي تحب البحر وتهابه وتحس وكأنها تستطيع أن تتحدث وتستمع إليه، ولكنها لوفائها لم تنس جبروته لما بطش بمن كان في أسطول السلطان، وكيف هوى بهامات إلى حضيضه وأنشب مخالب

الموت في رجال عظام، ورمل منهم النساء ويتم الأطفال. وأي شيء في صفاء البحر يعكس مثال الخالق، في جماله وفي جلاله.

يعود أبو موسى إلى المغارة بين الحين والآخر ليأكل أو يشرب أو يصلي أو ينظر دون تحريك شفتيه في المصحف الذي أخرجه من مخلاته المعلقة، كل ذلك وعلي يقتفي أثره أينما تحرك ويشاركه في الدخول والخروج والأكل والشرب والصلاة. وبعد العصر يعودان إلى المدينة.

مرت أيام على رفقتهما دون أن يتبادلا زيادة على السلام سوى كلمات معدودة، وعلي يعرف كل طقوس صاحبه الآن، وهي لاتكاد تختلف من يوم لآخر، وأكثر انشغال علي بالنظر إلى البحر من داخل المغارة، وكأن البحر صار يحتل مكانا في باطنه ويعمل فيه عمل ترياق ينتشي به قلبه ويتسع. وهو الآن يعرف أن صاحبه أبا موسى يقضي ليالي الجزر بجانب البحر فلا يرافقه فيها ويقضي ليالي المد بالفندق، وأيامها يرافقه.

17

رجع أبو موسى وعلي ذات يوم غائم في الوقت المعتاد فوجدا باب المدينة الشمالي قد أغلقت، ولم يلحقا بأي باب من الأبواب الثلاثة الأخرى إلا وقد أغلق، فضحك أبو موسى في ابتسامته العريضة التي لا يحدث صوتا معها، وقفل راجعا إلى مغارته في البحر، واتبعه علي وكأنه تلقى منه إشارة بذلك، فوصلا والظلام قد أطبق والشفق قد مات في الأفق. دخلا إلى المغارة والعين قد استأنست بالليل وصفحة الماء تعكس على الرصيف الذي به المغارة ضوءا يجعل تلمسهما لمكان الجلوس غير متعذر.

قدح أبو موسى زنادا استخرجه من كوة وأشعل قنديل زيت وصلى المغرب متأخرا وصلى بجانبه علي. ثم مد يده إلى الرمان فأعطاه حبة، واستل من حبل السمك المشوي المملح وحدات فآثر عليا بأكثرها. وكان علي يراقب الرجل ويتفرس فيه فيبدو له في هذا الموقف الليلي أكثر أسرارا وأعمق غورا. فأسنانه البراقة ليست عادية في مثل سنه ولا في حال من يعيشون مثل معيشته. وهو الآن قد فرغ من أكله، فقام وتمضمض خارج المغارة واستاك بقضيب أخرجه من جيب مرقعته. مد يده إلى المخلاة المعلقة وأخرج منها المصحف، وصار ينظر فيه وملامح وجهه تتبدل كما لو كانت تشخص بتعابيرها معاني ما يقرأ، فتارة يستغرق في شبه الكآبة وتارة يسكن ويرتاح وتارة يفرح حتى إنه يكاد يتحرك من الوجد والطرب. ثم أنهى النظر في المصحف، واتكأ وكأنه لا يشعر بوجود أحد معه، يحرك ملامح وجهه كأنه يتكلم في داخله، بل يبدي ما قد يشعر بأنه يرى أمامه أشياء ويتبعها، وفجأة انفعل ووجم ثم تجهم ثم أخذ يحك لحيته بكلتا يديه، ثم أخذ يحك بطنه وظهره وكل مكان في جسمه كمن يتعرض لجرب في جلده أو كمن وقع

فريسة لجيوش من البق أو القمل، فهو في حكه لا يفتر ولا يكل، ولكن لا يظهر عليه أنه يتألم.

تأثر علي لما رأى ولم يشك أنه من أسرار الرجل التي لن يستطيع اقتحامها عليه، وما جرؤ أن يسأله أو يواسيه، وما يزال ينظر إليه حتى صرفه عنه خواطر التفكير في شامة، كيف هي وكيف ستفهم ما وقع وكيف يمكن أن تقضي ليلة آمنة وهو غائب عنها. وتسلى بكونها أذكى وأنضج من أن تخاف، وهي تعلم مع من خرج، ورفيقه أبو موسى لم يعد هو أيضا إلى غرفته، وهي تؤمن أن هذا الرجل المبارك لا يقع في معيته مكروه، وأقرب ما يمكن أن تحسبه أنهما استسلما للنوم بعد العصر حتى طغى ماء البحر على جهة خروجهما من المغارة بلا سباحة، وكان قد وصف لها الموقع حتى إنها تستطيع أن تتخيله. وكانت هذه التأويلات تطمئنه وهو يسترخي على إيقاع هدير أمواج البحر، ومازال يغفو حتى غط في نوم متقطع كلما استفاق منه تذكر أين هو واستعاد تذكر كل ما يجعله مطمئنا على شامة فيعود إلى نومه من جديد.

وفي وقت الفجر أيقظه أبو موسى للصلاة، وتفرس فيه علي ولم يظهر له عليه أثر نوم ولا أثر إجهاد وإعياء، ولكنه تذكر أنه كان يحك جلده بقوة قبل أن يحول النوم بينهما، أما الآن فلا يحك ولا يفعل شيئا يثير الانتباه.

توضآ وصليا وخرجا من المغارة في اتجاه المدينة. ولما وصلا باب الشمال كان قد فتح، وكان باب الفندق أيضا قد فتح، فدخلا ودق علي غرفته ووجد شامة جالسة وكأنها لم تنم الليل كله، فاندفعت إليه وتعلقت به وخبأت وجهها وكأنها أرادت أن تجهش بالبكاء فتصبرت، وعجب علي لقوة اضطرابها بين يديه، وشم عطرا ولاحظ أنها قد تكون تزينت له الليلة الماضية وطال انتظارها في حال لم تجربه من قبل، وتعجب أيضا لكونها لم

تسأل عن الذي جعله لا يأتي بالليل، بل إنه هو الذي بدأ يحكي لها ويعتذر. وحكى كل شيء عن المبيت في المغارة وعن أحوال أبي موسى وصلاته ومخلاته وسمكه ورمانه واستغراقه في أحوال كأنه يجالس فيها ويخاطب أشباحا خفية، وحكى عن ضوء البحر ليلا وهديره، ثم ذكر لها ما اعتاد مضيفه من حك جلده طوال الليل.

عندئذ قفزت شامة وتوارت عنه قليلا وقالت : كيف ؟ تقول إنه قضى ليله يحك جلده ؟ وكيف ذلك ؟ وهل سألته عما حمله على ذلك ؟ صف لي كل شيء مما اعتراه من حك الجلد هذا ؟ ومتى بدأ ؟ ومتى انتهى ؟

فهم علي منها إشفاقها على الرجل، وأنها بإلحاحها تريد أن تعرف علته، وأن تبحث له عن الدواء الملائم لها، فتلك من سنتها، أن تتألم للآخرين وتحنو عليهم وتساعدهم بما تستطيع. فهي متيقنة أن علة أبي موسى هذه لا علاقة لها قط بأدران عالقة بجسمه أو ثوبه إذ هو في غاية النظافة، فلو لبس فاخر الثياب لكان شامة في الرجال. وداء حك الجلد مرض معروف وعقاقيره معروفة أيضا، وهي ذات علم ودراية بالعقاقير وأسرار الأعشاب، تستطيع جزما أن تخاطب أبا موسى وتقترح عليه دواء وتوثق بذلك صلتها به عسى أن يفتح قلبه لها، وهذا ما تمنته على الدوام، بل تمنت غير ما مرة أن تصبن جبته وأن تستضيفه في دارها، لاعتقاد تبرك لديها فيه كامل الرسوخ.

أعاد علي على سمعها كيف رأى أبا موسى يحك جلده، وكيف كان يفعل قبل أن يطرأ عليه ذلك، وكيف كان يفعل وكأنه ينفذ شغلا لا علاقة له بألم ينزل به...

وهنا قالت شامة : كفى، لقد وصفت لي ما كنت أريد والآن عرفت علته، ولكننا لا نستطيع أن نخاطبه في علاجها، فأنت

اطلعت على سر من أسراره في عقر مأواه، ولا يجوز أن يعلم أنك أطلعتني عليه.

تبين لعلي أنه لا يفهم شيئا من اللياقة أمام هذه المرأة الكيسة، واقتنع بصواب رأيها. قامت وهيأت له فطورا، وطلبت منه أن يخرج إلى سوق تحت السور عسى أن يجد فيه ملوخية تطبخ عليها قطعة لحم ضأن للغذاء، ورآها تنتحي جانبا لتنام عسى أن تسترجع قوام مزاجها. والواقع أن شامة لم تنم وإنما أرادت أن تصرفه لتخفي انفعالها بما سمعت وبما وقع لها الليلة التي تخلف فيها علي عن الدخول.

18

الواقع أن الذي جرى لها وزوجها غائب، له علاقة بما اعترى أبا موسى في مغارته. ففي تلك الليلة دق عليها الباب بعد العشاء وظنت أنه علي، قد حن إلى دروس الوعظ بالجامع والتحق بها بعد رجوعه من البحر توا لذلك تأخر، لكنها فوجئت وهي ترى المرأة الكريهة جارتها المسماة باللصقة تنتصب أمام بابها وتبتسم لها وتقول : شخصان غريبان يطلبان أن يكلماك. ولما تنحت توده، تقدم أحد الشخصين وسلم عليها وقال :

- زوجك في دار العامل معزوم الليلة، وقد جئنا نحضرك إلى هناك، ولك وقت قصير لتأخذي أهبتك. وإذا تأخرنا فسنستحق غضب سيادة العامل.

فوجئت شامة ولم تصدق شيئا من ذلك، ولكنها فهمت أن الرجل قد ضمن كلامه تهديدا، ولم يترك لها أن ترد أو تعقب لأن الرفض أو المماحكة في هذا الموقف مما لا يفيد ولا يستساغ.

قدرت أن الأمر جد واتخذت بعض الزينة ولبست فوق كسوة رائقة برنوسا رماديا من عمل النسيج الأمالفي، ونزلت فإذا الشخصان في حديث عادي مع البواب الذي يظهر أنه يعرفهما حق المعرفة.

تقدمها أحدهما وتأخر الآخر، ولم يتجها بها إلى الباب الكبير لدار العامل بل دخلا بها إلى دويرة في زقاق ضيق ليس به باب غير بابها، والدويرة لصيقة بدار العامل من الخلف ويظهر أنها مرتبطة بها بواسطة بويبة.

هنالك دلفت في فضاء هادئ ليس به أثر لساكن وتوقعت شرا لا تدري مداه وكيف سيدور، فأشير لها بالدخول إلى قبة مريحة رائقة من صنف ما عرفته وألفته بدار ابن الحفيد، والقبة

مضاءة بقنديلين وزرابيها عتيقة وطنافسها مغطاة بأغطية مشابهة لأثواب الخز المزوق. وفي وسط القبة طيفور نحاس عليه آنية ممتلئة بالفواكه، وفي الجهة المقابلة للباب فضاء مضاف عبارة عن حجرة تتسع لسرير من أسرة النبلاء تعلوه ناموسية من حرير في شكل هرم.

لم تنتظر سوى وقت قليل حتى دخل عليها شخص سبق أن مثلت أمامه، إنه العامل جرمون الذي اضطرها يوم اقتيد زوجها إليه وهي معه، أن تميط عن خمارها. دخل وحياها وردت وجلس وهو مرتبك وقال لها : ليس هناك من شر يمكن أن تتوقعيه وإنما أغتنم فرصة قضاء زوجك ليلة خارج السور لأسألك عن أشياء تهم خدمة السلطان طالما تمنيت أن أسألك عنها على انفراد. وبدأ يسألها عن الجورائي وزواجهما، وعن العتاب الذي تعرض له من قبل السلطان بسبب ذلك الزواج، وعن كنوز قد يكون ابن الحفيد خبأها في نطاقي داره أو تحت جدران في رياضه، ثم سألها عن خادمة السلطان التي رافقتهما في حملة الأطراف الشرقية، وهل أخبرتها بشيء من مهمتها معها، وعن مدى علمها بأن بيدرو صد يق زوجها وهو التاجر الذي غادر الفندق أخيرا كان متجسسا لأحد أمراء الأندلس النصارى.

كان جرمون يمطر شامة بهذه الأسئلة وتفاصيلها وأخرى من قبيلها، وكانت شامة لا تعلم عنها إلا القليل، وقد خف توترها لأنها تأكدت الآن من أن العامل دبر إغلاق الباب دون زوجها قبل الوقت ليتسنى له استقدامها لهذا الاستجواب مدفوعا بأغراض شخصية عنده تمس حقده الدفين على ابن الحفيد وشراهته للمال وتجسسات دارت بينه وبين شرطة الحضرة بفاس في شأنها لما تزوجها الجورائي، وما كان يتوقع لذلك من ذيول قصتها مثل وصية الأميرة أم الحر بتسريح شامة من القصر.

بيد أن جرمون ما لبث أن حول الكلام إلى وجهة أخرى حيث بادر شامة قائلا : إن هذه الأمور لاتهمني بقدر ما يهمني أن تتعاوني معي وألا ترفضي صداقتي، وسأعرف كيف أجنبك المخاطر المحدقة بك، وأتغاضى عن هنات زوجك، لأنني واثق أنه يستطيع أن يعيد النشاط للتجارة في فندق الزيت وتعود مكوس هذه التجارة إلى قدرها الذي جعل مدينة سلا في ما مضى محط اهتمام الحضرة بفاس، ثم قال : وقبل أن نمضي إلى موضوع آخر، فإنني سأتركك حتى تتناولي من الطعام ما يروقك في المائدة الموضوعة في الطرف الآخر من القبة وتدخلي الحمام إذا كنت في حاجة إلى ذلك.

خرج جرمون وامتثلت شامة لأمره وتصنعت تناول شيء من الأكل لكي لا تغضب العامل الذي تعرف أنه يستطيع أن يتخذ أتفه الأسباب لكي يلحق بها من الإهانة كل ما تحدثه به نفسه أو يراه موافقا لأطماعه.

عاد بعد حين وبادرها بالقول : والآن مازلت على لبستك التي دخلت بها، وكأنك ترفضين التشريف الذي منحناه إياك باستدعائك وإدخالك إلى مكان السر بدارنا ومحادثتك في أمور تهم شئون الخدمة العلية وتهم مصلحتك أيضا، وأنت قد تعلمت كثيرا من المراسيم والآداب وما يليق بمثل هذا المقام، فلا أظنك نسيت الطاعات الواجبة على الخادمات من أمثالك.

أطرقت شامة وهي لا تجيب ولا يسعفها الموقف على شيء، فهي في حالة طمس توقف معها كل نشاط في ذهنها، يمكن أن تدفع أو تركم أو يلقى بها من جرف كالحجرة لا غير، ولا يمكن أن يصدر منها رد إلا إذا تألمت، أما الفهم والقول والتمييز فهي أمور صارت عاجزة عنها تمام العجز في هذه اللحظة.

رآها جرمون لا تجيب فاقترب من مكانها، فتراجعت وقال : أظنك ستفهمين الفرق بين أن تظهري الآداب معي وبين أن أضطرك إلى الالتزام به. ولما ظلت كما هي لا تجيب، بقي في مكانه. ثم شعر بالحاجة إلى حك لحيته بشيء من العنف غير معتاد، ثم شعر أيضا بالحاجة إلى حك ما تحت إبطيه، ثم بدأ يحك بين أصابع رجله، وحملق بعينيه في البساط وفي أغطية الطنافس وفي الجدران كأنه يبحث عن حشرات ظنها سبب ما يجده من ألم في جلده، فلم يتبين شيئا.

كانت شامة تسترق النظر إليه وهي شبه مطرقة مخافة أن يفاجئها بعدوان لم تكن تترقبه، وتعجبت من انشغاله بحك جلده بحدة غير معهودة، وفجأة أحست به في شديد الحاجة إلى حك مواقع من ظهره لاتصل إليها يده، فخرج من القبة، وسمعت رتاج باب غرفة أخرى يتحرك وتصورت أن جرمون أسند ظهره إلى ذلك الرتاج.

عاد إلى القبة وجلس وعادت إليه حاجته الملحة إلى حك كل موضع في جسمه، فخرج مرة أخرى، وأحست به وكأنه دخل إلى الحمام ومكث مدة ثم عاد، وما أن يجلس حتى تعاوده حكته من جديد. مر عليه وقت طويل وهو يدخل ويخرج ولا يسرى عليه مما نزل به، وأخيرا غضب وقال لشامة :

- هل حملت معك تمائم من صنع السحارين ؟

أنت سيئة الحظ فعلا هذه المرة، ولكنك ستكونين أسوأ حظا في المرة القادمة.

خرج من القبة ودخل الباب الذي بين هذه الدار وبين داره الكبرى ولم يعد، وبعد حين حضر أحد العونين اللذين جاءا بها، وحياها كأنها محل الرضى التام من سيده، وقال لها : هيا بنا نعود. وخرجت إلى الزقاق وخفرت كما في المرة الأولى، وكان الليل

قد انتصف ولم يبق في الشوارع غير العسس في مفترق الطرق والبياتين من حراس الحوانيت في الأسواق.

كان بواب الفندق أمام الباب، ولما رآهما فتح ودخلت وانصرف العونان. ولما وصلت إلى الطابق الرابع لم تشك في أن أقدامها أيقظت امرأتين اثنتين على الأقل تترقبان أن تعرفا ساعة عودتها، تودة وبنت بيدرو.

لم تنم شامة ولم يزعجها شيء بقدر ما أزعجها أن تكون جارتها تودة هي التي دقت بابها وأخبرتها بالعونين اللذين جاءا في طلبها، فهذا يؤكد أنها تشتغل بأمور لحساب العامل وأنها ضليعة في مؤامرة ضدها، وهي لم تستبعد كل ذلك منذ حلت بالفندق، ومن ثمة كرهتها، ولكنها اليوم تتأكد من هذه الحقيقة، وأفظع ما يمكن أن يصدر عن تلك الشريرة هو أن تستعمل واقعة الليلة للضغط عليها في أمور تتخيلها، تحت طائلة إخبار زوجها بما تكون تصورته جرى لها في ضيافة العامل.

تعذبت نفسها في الاستقرار على الحل الأصوب وهل تخبر زوجها وتصارحه بما كان من دعوة العامل لها وما جرى أثناءها، وبين أن تخفي عنه ذلك، خوفا من ألا يصدق ما جرى فعلا، مع ما في ذلك من خطر سقوطه فريسة لشكوك وأوهام يصعب التخلص منها، وقد تكون وبالا على حياتهما الزوجية التي صمدت لحد الآن في وجه جميع المحن والابتلاءات.

وقد قررت شامة ألا تخبر زوجها بما وقع، لكنها بعد أن فاجأها بقصة أبي موسى وما كان يفعله في المغارة من حك جلده مدة في تلك الليلة ندمت ندما شديدا على كونها لم تفض إليه بكل شيء بمجرد دخوله، فلو سبقت وأخبرته لوجد أن الذي وقع للعامل كان بتصرف من الرجل الصالح أبي موسى وبتأثير روحاني منه، ولو فعلت لما تشكك في روايتها للوقائع. أما الآن فقد فات

الأوان، ولربما فكرت في أن تحكي لـه مـا وقـع، وإذا ظهـر عليـه تشكك في صدقها لجأت إلى التطارح علـى أبـي موسـى ليبرئهـا، مادام فعله الذي فحل هو ما أنقذها من شر محقق كانت ستتعرض له على يد العامل الذي ربما كان لن يـتردد في قتلهـا لـو امتنعـت عن الإذعان لإرادته. ولكن أبا موسى قد يرفض تماما أن يحشـر في هذه الأمور عيانا. ولربما كان نفسه يجهل كل شيء عن الموضـوع، فلربما كان غائبا عن وعيه حين كان يحك جلـده لأن قـوى خـيرة تحل به وتسخره أو تستخدم منه قوى كامنة فيـه، وهـو لا يـدري عنها شيئا، ولا يدري حتى لأي غاية يكون تسخيرها. ومهما يكن فإنها ندمت على خطئها بالسـكوت لأنهـا حسـبت حسـابا مبنيـا على نية طيبة، ولكنها وقعـت ضحيـة الشـعور الـذي ظنـت أنهـا تغلبت عليه إلى الأبد وهو الخوف. ولو غلبت الصدق ولم تحسـب العواقب بعقلها لحمتها تلك القوى التي تدخلت لحمايتها من كـل المآزق السابقة، لأن هذه القوى تؤثر الصدق على أي حساب، فـلا تكفي النوايا الحسنة إذا كانت مبنية على حساب، فلابد أن تقود الاجتهادات مبادئ لها أسبقيتها مثل هذا الذي خالفته اليوم وهـو الصدق. أما الآن فإنها ستُعذب بسبب إذعانها للخوف، وسيفضي بها خوف إلى خوف. وبسبب تفضيلها لحسـاب لم يسـتكمل كـل معطيات الغيب والشهود ليأتي صحيحا وموافقا للقـدر. وأفظـع مـا يتوقع هو أن تستعمل جارتاها ضدها أحسـن اسـتعمال مـا تعلمانـه مـن خروجهـا مـن الفنـدق في ثيـاب زوجهـا ليـلا إلى دار العـامل ورجوعها في وقت متأخر من الليل.

وفي يوم الغد خرج البراح، وهو الذي يبلغ إعلامات العـامل للناس بصوتـه الجهـوري، حتـى وصـل إلى فنـدق الزيـت وأذن في التجار وقال إن من تلتي تجارة ولم يصرفها بالبيع بعد أسبوع، أو لم يؤد عليها الواجب في بيعها بعد أسبوع حتـى ولـو لم يبعهـا

بعد، ستترتب عليه ضريبة اسمهـا ضريبـة مبـايت السـلع، وهـي نسبة من المكس كل ليلة بحسب قيمة البضاعة.

قـرر العـامل إحـداث هـذه الضريبـة بعـد ركـود نسـبي في محاصيل تجارة الفندق والمدينة عامة، وبعـد رسـالة تقريـع وإنـذار تلقاها في هذا الشأن من الجابي الكبير بحضرة فاس. وقـد استشـار بعض أعوانه وجلسائه في التدابير الكفيلـة برفـع مدخـول المكـوس فأشاروا عليه بمحاربة الاحتكار الذي يتوخـى منـه التجـار انتظـار غلاء الأسعار والاحتفاظ بالسلع تحت أيديهم إلى أن يشـتد الطلـب عليها ويتأتى لهم بيعها بالثمن الذي يريدون.

تفشى هذا الإعلام وامتعض له من بالفندق ومن بالبادية مـن التجار وغيرهم. وبعد أيام شاع أن ثلاثة من كبار التجار قد سافروا إلى سبتة وتركوا جلساتهم بالفندق دون وكيـل، علامـة علـى أنهـم هاجروا إلى الأبد. ولم يتعظ العامل بهذه الفاجعة بل أمـر المكاسـين أن يقوموا، معززين بأعوانه، بإحصاء ما تحت أيـدي التجـار مـن السـلع حتـى تطبـق عليهـم ضريبـة المبـايت. وحـدث أن أمطـرت السماء على معظم بلاد المغرب عشرة أيام كاملة لم تصل فيها سـلع جديدة ولا حضر زبناء لحمل مشتريات من مدينـة سـلا إلى غيرهـا من البلدان. وبتمام شهر بدأ المكاسون في حساب المسـتحقات علـى التجار من تلك الضريبـة، فعجـز كثـير منهـم عـن أدائهـا ودخـل بعضهم حرم بعض الأضرحة حتى يعطاه الأمان بتبرئة ذمته.

19

وفي وقت غروب الشمس من اليوم الموالي ليوم تفتيش مخازن السلع، دخل علي زوج شامة إلى الفندق راجعا من رفقته لأبي موسى، فوجد عونين من أعوان العامل، تعقباه إلى غرفته وقالا له إنه مطلوب للقاضي في صباح غده، وعليه أن يشهد أمام بواب الفندق أنه تلقى منهما ذلك الاستدعاء.

أخبر علي شامة بذلك الطلب، ولم يكلفا نفسيهما عناء التخمين في موضوع عدد التهم التي يمكن أن توجه إليه، وذلك لسبب واحد وهو أن مصدرها هو العامل، ومن ثمة فإن تلك التهم يحتمل أن تكون في كل ما يمكن تصوره ومالا يخطر لهما ولا لغيرهما على بال. ولكن حدس شامة ومعرفتها بالواقعة التي أخفتها عن زوجها جعلها تتصور أمرا أخطر مما أثير لحد الآن. لذلك أقنعت عليا بأن تغادر هي أيضا غرفة الفندق بعد خروجه إلى القاضي في الصباح، وأن تصحب معها أنفس ما يملكان وهو حليها من الذهب والأحجار الكريمة مما رجعت به من هدايا الجورائي وإنعامات الأميرة أم الحر، وأن تلجأ إلى دار أشراف من أهل النسب القرشي من بني سعد سكنوا سلا مهاجرين من الأندلس بعد استشهاد كبيرهم في غزوة العقاب، وقد أتحفهم السلاطين المتعاقبون من دولة الوقت بظهائر توقير واحترام تعفيهم من بعض التسخيرات وتجعلهم في حصانة من ضيم الحكام وخسفهم. وشامة تعرف عيالهم وحريمهم فردا فردا وتعلم ما لديها من حظوة لدى زوجة النقيب فيهم.

مثل علي أمام القاضي بحضور صاحب الشرطة، وبعد أن أمر القاضي بتوثيق يديه أمر كاتب عدله أن يقرأ عليه رسما يتضمن التهم الموجهة إليه وهي :

- سعيه لدى المشعوذين والسحرة لتركيب تمائم تضر ببعض خدام الحضرة.

- تحريضه على هجرة التجار من سلا وإخلاء أماكن تجارتها وتنقيص مكوسها.

- العثور على زق خمر بمخزن سلعه السابق فحصه خبراء الحسبة وقالوا إن المسكر كان به إلى ما قبل أشهر.

- عدم استكمال الطهارة الواجبة للمسلم وعدم صحة عقد زواجه بشامة.

بعد تلاوة صك التهم أمر القاضي بإيداع علي في سجنه، وهو عبارة عن غرفة ليست بأفسح ولا أقل قذارة من بنيقة العامل، وذلك إلى أن يطلبه في يوم آخر ليجيبه عن الاتهامات الموجهة إليه.

لم يسمع الناس في سلا بمثل هذه الإدانة المركبة والتهم المنوعة، ولذلك نقلها من حضر جلسة القاضي، وانتشر خبرها في المدينة بأسرها.

وبعد عصر اليوم نفسه توجه النقيب أبو عبد الله السعدي الذي لجأت شامة إلى داره توجه إلى مجلس العامل، وأذن له في الدخول وقابله العامل بقوله : أنتم السادة على الرحب والسعة، مشفعون إلا في من يهدر حرمات سيدنا، وحرمة سيدنا من حرماتكم.

فهم الشريف مرمى كلام العامل، وأن شرطته نقلت إليه خبر لجوء شامة إلى داره، وبعد أن اتخذ مكانه بين الجلوس استأنفوا حديثهم، وكان جله حول مآل التجارة بالمدينة ونقصان مداخيل مكوسها. حاول النقيب أن يعرف من جرمون تفاصيل التهم الموجهة لعلي، ولكن العامل تظاهر بعدم الاكتراث بهذا الموضوع وصرف القول إلى موضوع الدعوة الموجهة من الحضرة إلى

النقيب لحضور مجالس العلم التي يقيمها أمير المسلمين في شهر رمضان.

انصرف النقيب من دار جرمون وهو ممتلئ غيرة على المسجون زوج شامة، هذا الغريب الحديث الإسلام الذي يواجه مصيرا مجهولا على يد عامل يستعمل كل الخدام وأهل الخطط لأغراضه. ولما عاد إلى داره أرسل من يدعو القاضي ليصل إليه بعد العشاء دون أن يشعر به أحدا.

ولما حضر القاضي واسمه أبو جبر المدهون، جامله النقيب وأظهر له ما أطمعه في فوائد ودعم من جانبه إن أفضى إليه بما يطلبه من بيان حول التهم الموجهة لعلي سانشو.

قال القاضي المدهون : إن بيناتي التي أستند إليها في إدانته وردت في محاضر صاحب الشرطة، ولن يفلته من تبعاتها إلا شفاعتك له لدى السلطان بفاس.

قال النقيب : وما جلية السحر المتهم به ؟ ومن هو ضحيته من خدام سيدنا، ومن شريكه الذي عقد وأنجز أعمال السحر بطلب منه ؟

أجاب المدهون وقال : إن صاحب الشرطة يذكر أن الحكم يجب أن يصدر كما لو ثبتت البينة بذلك، وإذا ألح القاضي فإن الشخص المتضرر من تلك الجريمة يمكن أن يكشف له وحده عن هويته لأن التستر عليه تقتضيه المصلحة العليا وصيانة الأعراض.

قال النقيب : وما هي عقوبته على ذلك العمل إن أمضيتم الحكم فيه كما تتصورون ؟

قال المدهون : أن يجلد ويسجن.

قال النقيب : وكيف البينة عليه في التحريض على هجرة التجار والإضرار بمداخيل بيت المال ؟

قال الدهون : سفر موكله الأمالفي، وكان ممن نفقت بنشاطهم تجارة سلا. وقبوله تدبير تجارته وهو غير مؤهل لذلك، وإدلاؤه ببيانات مكذوبة حول أرباحه. وتشجيعه على هجرة بيدرو الذي وكله هو. ثم هجرة ثلاثة من التجار كلهم تأثروا بخسارته وبما أفسد من سمعة فندق الزيت.

قال النقيب : وأي عقوبة ترون إنزالها به إذا أثبتم هذه التهمة ؟

قال الدهون : غرامة ستستغرق كل ما يملكه.

قال النقيب : وهو لا يملك شيئا.

قال الدهون : قصدت أن قدرها يكون على حسب ما نقص من مداخيل المكوس في هذه الشهور، وهو قدر عظيم سيطالب به تحت طائلة جلده وإطالة سجنه. ولاشك أن زوجته تملك ما تخفف به عنه هذه الذعيرة، فمن إحسانه لنفسه ألا يقول إني لا أملك شيئا. بل أن يقول: لا أملك هذا القدر ولكن أستطيع أن أؤدي نصفه أو ثلثه على الأقل.

النقيب : وما البينة عليه في شرب الخمر وعدم حسن إسلامه ؟

الدهون : أما شرب الخمر فأثبتناه من زق وجده الأعوان بمخزن تجارته، وقد عرضناه على المحتسب فأجاب ذوو الخبرة من أصحابه بأنه آنية من عمل مالقة، استعملت لحمل الخمرة مدة جعلتها تتشبع بها، قال ذلك من له المهارة بالشم وبعرض شقاق الآنية على النار بطريقة خاصة.

النقيب : وما علامات عدم حسن إسلامه الأخرى ؟

الدهون : كونه لم يستكمل الطهارة بالختان.

النقيب : وكيف قلتم إن عقد زواجه بشامة غير مستكمل الصحة ؟

المدهون : لأن الشرطة سجلت عليه سؤالا وجهه وهو يبتسم إلى الواعظ في المسجد الأعظم ذات ليلة حيث أراد أن يعرف حكم من عقد على امرأة مسلمة على أنها ثيب وأصدق لها على ذلك الأساس ثم تبين له بعد الدخول أنها بكر. فلا معنى لهذا السؤال إلا أن يكون هو المعني بهذه النازلة.

قال النقيب : وأي عقوبة تنزلون به جزاء له على هذه الأمور الثلاثة ؟

أجاب المدهون : حد الخمر وتطليق امرأته عليه وإخضاعه لجزية النصارى إن كان مصرا على البقاء بأرض المسلمين.

أنصت الشريف السعدي لما ذكره القاضي وتعجب من حماسه لإدانة المسجون بهذه الدعاوي الواهية وقال له :

– اتق الله يا رجل: قاض وقاضيان...

فقال المدهون :

– أيها الشريف الهمام، عندما كانت نفوس الناس ممتلئة بالورع فإنهم ولاشك قد يسروا على جميع القضاة من أسلافنا الدخول إلى الجنة. أما في عصرنا هذا، وقد تمكنت الجراءة من العباد، فإن عملنا شاق ومحفوف بالمخاطر، والقاضي الذي يطمع في الجنة بعد الموت يوشك أن يلقي بالناس في الدنيا إلى جحيم الفتنة التي يوقدها الأشرار في كل يوم، ويعمل عمال سيدنا على إطفائها، فنحن الخدام نشتري لكم جنة الأمن، والقائمون على هذا الأمر محقون في اجتهاداتهم ولو قامت على الظنة، وذمة الناس مستغرقة لهم، فمهما أعطوهم فلن يوفوا لهم حقوقهم وأتعاب سهرهم على راحتهم إذا هم نائمون، فكيف تريد أن أتحرى في تهم هذا الجباس النصراني الذي ادعى الإسلام وتبناه سلفي من القضاة، وجناب العامل يريد أن يجعله عبرة للمستخفين به ولاسيما في التهاون في أمر جلب التجارة إلى

مدينتنا ؟ فما نسبة قدر عرضه كله بهذا الازدهار الذي نعمنا به وشكره جباة الحضرة، فإذا نحن نراه اليوم يوشك أن يضمحل وينزل علينا بعده البؤس والمعرة والشقاء ؟ ثم كيف وقع أن بالغ أهل هذه البلدة في الاحتفال بشخص طارئ لمجرد أنه أعلن الشهادة بلسانه ولم يقدم شيئا يصدقها بفعله، ولو فعل لحمده المسلمون، فلو ذهب إلى العدوة وحارب هناك في جنود سيدنا لاستحق النصيب الذي ينوبه في الغنائم ؟ وكيف يجوز أن يترك طاعما كاسيا بجانب البحر دون أن يتحقق أحد مما هو منهمك فيه من التدبي ؟ فلعله يتوقع عدوا يطلع علينا من البحر فيكون هو أول من يرفع أعلامه ويمهد لطليعته، وقد داخلنا في أحوالنا ومعاشنا وأحل له ناس عفا الله عنهم، شططا، بضع بكر على أنها ثيب، والحال أن الجورائي لم يكن من الفحولة بحيث يدخل بها، وإنما أوقعها في أسره على سبيل التلهي وهو عاجز عن استكمال الشرط المطلوب في النكاح. ألا تتصور أن هذه الخادمة التي تشرفت بالعيش في حريم كبار خدام سيدنا وتعرفت على قواعد أمرائنا وتراتيب دولتنا يمكن أن تكون تفضي في ساعات الضعف لمن هو في حكم بعلها بأسرار يمكن أن تستغل ضدنا إذا وصلت عن طريق بعض هؤلاء التجار القادمين من الآفاق إلى عدونا في جهات لا يخفى عنك تحرشها بإمارتنا ؟ ولنفرض أن ما يشيعه بعض البطالين في مدينتنا صحيح من كون جناب العامل إنما يضايق عليا طمعا في هذه الخادمة التي تحته الآن، ألا يكون العامل بجاهه وخدمته لنفعنا ودرء الشرور عنا أولى بهذه المرأة لو أراد أن يقضي منها وطرا ؟ ألا ترى أنه ليس من المروءة ولا من الدين أن يبقى بعض الناس في عماهم بل وتعنتهم دون أن يقروا يوما بفضل لانهاية له لمن يؤمن أحياءهم وسبلهم ويحمي أموالهم وأعراضهم، فذلك من الشكر الصريح بالنعمة، وغيره المنكر.

شعر الشريف بتقزز من كلام هذا القاضي المعتوه ولم يفته أن يدرك أنه قصده هو أيضا ضمن من يتوجب عليهم هذا الخنوع للحكام لأنهم يضمنون أمن الناس من الخوف، فلا بأس أن يخافوهم هم ويعترفوا لهم أنهم يستحقون أن يتنازل لهم عن كل ما يشتهونه حتى ولو تعلق الأمر بالمحارم، *فقاطعه قائلا* :

– ممن يحمينا هؤلاء يا ترى ؟

فأجابه المدهون بقوله : من جميع أهل الجراءة من الأعداء المتربصين بنا، بل هم يحموننا حتى من أنفسنا، فكل جماعة منا تجاهر بمعاداة ذاتها، بل وكل شخص منا شخصان بينهما عداوة مستحكمة، ومن أراد أن يتحلل من كل القيود ويرفض الطاعة لابد أن يتحول من شخص واحد منسجم إلى شتات داخل نفسه أي إلى محارب لذاته بعدم السلم معها، فلو حققنا هذه السلم في أنفسنا لأرحنا واسترخنا ولدخل القضاة الثلاثة الذين ذكرتهم جميعهم إلى الجنة.

قال الشريف : الآن فهمت أن لا كلام معك ولا مع صاحبك العامل، ولا يفل الحديد إلا الحديد.

خرج القاضي شبه منهور، ولما رجع الشريف إلى مجلسه أرسل خادما إلى كاتب العدل الذي يساعده في تحرير رسوم الأنساب وأملى عليه هذا الكتاب :

بعد البسملة، "إلى السيد النحرير حاجب الحضرة العلية، نلتمس منكم إبلاغ العلم السامي أن عامل سلا يتحرش بالصونة وصيفة المرحومة بكرم الله أرملة والده المعظم السيدة أم الحر، ويتعلق الأمر بأرملة القاضي الأمجد الشهيد الجورائي تغمده الله برحمته، وهي تحمل رسم وصية بالحمل على المبرة من السيدة أم الحر زكاه سيدنا بكرمه. وعامل سلا الآن سجن زوجها وهو من الإسلاميين

المباركين، ويتآمر لتطليقها عليه إشباعا لأطماعه. وبه الإخبار والسلام."

"نقيب أهل النسبة الشريفة في سلا وعملها."

ثم أملى على كاتب عدله كتابا إلى جرمون وفيه :

"عامل الحضرة العلية على سلا، بعد الدعاء الواجب لسيدنا، نخبرك أن المرأة المسماة شامة بنت العجال الساكنة بفندق الزيت قد لجأت إلى دار الأشراف واستحرمت بأولادنا فرارا من الذعر الذي هالها بسبب سجنك زوجها وإيداعه لدى القاضي. ولقد قبلنا استحرامها رعيا لما تخوله لنا ظهائر سيدنا ووالده ووالد والده، نعمهم الله تعالى، من قبيل الحمل على كامل المبرة نحن ومن لجأ إلينا. ولما كانت السيدة المذكورة تمسك بيدها رسما يتضمن وصية بها من السيدة المنيفة المتغمدة بكرم ربها الأميرة أم الحر أرملة والد سيدنا، أمضاها الجناب الكريم وعليها أمر تنفيذ بشكل حاجبه وخادمه الأسعد الذي ما يزال على الخطة، فإننا كتبنا أمس وأرسلنا على وجه الاستعجال إلى الحضرة كتابا نلتمس فيه تأكيد توقير السيدة المذكورة ومن يتصل هناؤه بهنائها ونقصد زوجها الذي هو في سجنك اقتناعا منا بأنه لم يرتكب ما ينقص من دينه ولا من عرضه ولا من اعتقاده في طاعة الجناب السامي المنيف. وعليه نعلمك لتنتظر وصول جواب الحضرة، فلا يمض على المحبوس المذكور قبل ذلك حكم قاض ولا محتسب ولا منفذ، إلى أن يظهر رأي الحضرة، وبه يكون الرضا وعليه تجري التصرفات."

"نقيب أهل النسبة الشريفة بسلا وعملها."

وصل الكتاب إلى جرمون وقرأه فغضب له غضبا شديدا لأنه كان يستطيع أن يزج بعلي وزوجته في السجن في آن واحد، وقد حنق على الشريف وكره منه التعرض على تدبيراته، وفاجأه لأنه لم يسبق أن بلغ في تدخله لمستشفع هذا المبلغ حتى يكتب في شأنه إلى الحضرة. ثم إن العامل فوجئ بما قاله النقيب من كون شامة تتمسك بتوصية أم الحر التي ظنها هو مجرد رسالة وقتية إلى ابن الحفيد. فلم يحسب لهذا التحدي حسابا، وجرمون يعرف أن سياسة التقريب والتأليف التي كانت تمارسها الحضرة إزاء الأشراف في ذلك الظرف لا تترك للعامل أملا في إمكان إبطال تدخل النقيب أو الحيلولة دون ورود جواب في الموضوع من السلطان.

ومما زاد من حنق جرمون أن النقيب كان يبعث مرة في اليوم أحد خدمه ومعه الخودة التي كانت تزور شامة وتواسيها في محنتها، ليحملا إلى علي المسجون طعاما وحاجات أخرى من الأكسية وغيرها، فتصله ولا يحال دون تمتيعه بها، مراعاة للتوقير السلطاني الذي يتمتع به الشريف. وزاد تحرج جرمون من هذه المسألة بعد أن وصله من بعض كبار الخدام الذين كان يبعث إليهم بالرشاوى الوافرة في الحضرة، تأكيد بوصول رسالة الشريف وتعذر الحيلولة دون إعلام السلطان بمضمونها، ونصحه بعدم الإصرار على محاكمة علي لأن ذلك قد يؤدي إلى إصدار الأمر من الحضرة بإجراء تحقيق في الأمر المهم الذي اتهمه به جرمون وهو تحريض التجار على الهجرة، مع وجود خطر إصدار توكيل بالتحقيق لخدام لا يقدرون جرمون، بل ربما يكرهونه أو يكنون له العداء.

20

تنبه جرمون بعد أن تلقى الرسالة من فاس إلى أن الأمر الأعظم الذي يوشك أن يجر عليه البلاء بالتأكيد هو نقص عائدات مكوس التجارة. ولما ظن أنه يستطيع أن يفعل شيئا لتدارك هذا النقص أذعن لنصح بعض مستشاريه الذين أشاروا عليه بأن يقوم قبل حلول الأجل المعتاد بتجديد سمسرة حوانيت فندق الزيت ومخازنه وجلساته، ونصحوه بأن يدفع بمزايدين وهميين إلى المغالاة في كراء هذه الرباع. غير أن النتيجة التي كان يتمنى الوصول إليها قد جاءت معكوسة، إذ تخلى أغلب التجار عن محلاتهم في فندق الزيت عند أول وهلة من فتح السمسرة، وانفضح أمر المزايدين الوهميين، ولم يكن المكاس ولا المحتسب ولا النائبون عن العامل الحاضرون للسمسرة من اللباقة بحيث يتداركون الأمر عند سمسرة أول ربع أو حتى بعد معاينة رد الفعل التجار بتخليهم عن عدة متاجر، بل استمروا في إجراء السمسرة حتى النهاية. وفي ماعدا سكنى أبي موسى التي هي وقف متوارث على البهاليل وسكنى علي وشامة التي كان محتلاها غائبين، وسكنى تودة وسكنى خوليا بنت بيدرو، وهما لم تعرضا على المزايدة، فلم يقبل الزيادة سوى خمسة وكلاء كان أصحاب رؤوس أموالهم في مدن بعيدة، وقد زايدوا تحت التحفظ والتزام المحتسب بإعفائهم، بعد المخابرة مع موكليهم إن لم يوافق هؤلاء على الأسعار الجديدة.

ولما علم جرمون بما أسفرت عنه السمسرة ثارت ثائرته ووبخ المشرفين عليها وتوعدهم بأقسى أنواع الانتقام، وأرسل إلى أمين التجار يطلب منه أن يثني المتخلين عن الحوانيت عن قرارهم على أساس موافقة صورية على ما طولب به كل واحد منهم من

الزيادة مع وعدهم بالتراجع عنها بعد شهرين لا غير. لكن التجـار طالبوا ألا تكتب عليهـم عقـود وبـأن تسـقط عنهـم ضريبـة مبـايت السـلع الـتي دمرتهـم وأضـرت بكـل إمكانيـة للاحتكـار والـترقب المطلوب للوقت المناسب لصرف السلع بالثمن المناسب.

غضب جرمون من موقف التجار ولم يرد إظهار ما يفهم منه أنه تراجع عن شيء قرره، إذ من شأن أي تنازل في نظره أن ينال من هيبته التي عليها قام هيكل سلطانه والتي يعتبرهـا أهـم حتـى من عيش الناس وحياتهم. وليعبر عن سخطه على معانديـه أرسـل حرسه ليحملوا التجار بأسلوب عنيف على الإفراغ وإرغامهم علـى إخراج سلعهم في يوم واحد.

21

أخذت شامة مكانها في دار النقيب منذ أن لجأت إليها طالبة أن تستظل بحرمتها لما توجست أن أيام سجن زوجها لن تكون قصيرة لو لم تفعل شيئا لحمايته، وأن جرمون ما كان ليوقرها وهو، قابض على زوجها. وقد أرادت أن تعلم بالتهم التي وجهت إليه حتى تواجه خططه الشيطانية.

وهي هنالك في ذلك الملجأ بدار الشريف محط كل عناية وموضوع كل عطف. شاع خبر لجوئها إلى دار النقيب في المدينة وتواردت عليها خفية في معظم الأحيان بنات الأسر وربات الحجال لمواساتها وعرض إعانتها والتخفيف من كربتها.

أما أهل الشريف فشامة في نظرهم، وإن كانت وضيعة المولد، وبالرغم من كونها مقيمة اليوم بفندق الزيت الذي هو مقر التجار والباعة من مختلف الآفاق، فهي محاطة بالاعتبار الواجب الذي تستحقه لتقلباتها في دور النبل والإمارة، وهي مميزة بالتقدير لارتباطها برجل اختار عن بينة اعتناق الإسلام، رجل أعجب الناس بصناعته وشهدوا له في فن تزيين المباني بما يدل على ذوقه الرفيع وعلى روحه المبدعة.

لكن شامة لم تقف عند التمتع بما تخوله لها كل هذه الاعتبارات والحيثيات، راضية بموقف لاجئة تستدر الرأفة والعطف، بل اندمجت في حياة بيت الشريف بخدمتها في ما هو رفيع من الترتيبات التي هي فيها ذات باع طويل، وبآرائها التي جلبت لها على الدوام جميل التفات المتمدنات من سيدات البيوت، سواء في تهييء الأطعمة وإقامة الولائم أو في اختيار المفروشات والآنية أو في تعليم الصنائع من توشيات وخياطة ونظم عقود واختيار الحلي أو التفنن في رسم مبتكرها للصاغة أو في

اختراع تفصيلات الألبسة المقترحة على الخياطين أو تقطير رحيق العطور الغريبة من ورق أنواع الزهر والورد والأعشاب أو استحضار عقاقير تنشيط الأجسام وإراحة الأمزجة من الفواكه وعروق الأشجار أو صناعة مواد التجميل والتطرية من أنواع الشجر وقشره ولحاه ومستقطرات النبات ومسحوقات المعادن والمعاجين. وإضافة لكل هذه الحذاقات فشامة كانت على الدوام مرجع من حولها من النساء في رقائق جميل المعاشرة بين الأزواج وفي معالجة ما يعتور بنات جنسها من الأحوال الخاصة وفي الإيحاء بالإشارات الكيسة المعينة على مداراة العواطف، فما بالك بمعرفتها بفرائض الدين ومندوبات الأعمال وما يليق بكل مقام من الموعظة الحسنة.

لو لم يكن لشامة أي شيء من كل ما ذكر لكفاها العطاء الإلهي الذي تجلى في خلقتها الأنثوية، فجمالها الخارق يذكر با لله ولا يمكن على هذا الاعتبار أن يكون عورة توقع في الفتنة. ولكنها أحست على الدوام أن ذلك الجمال كان عبئا ثقيلا على كاهلها، فحتى شديدات الغيرة من النساء كن يتحدثن عن جمالها لمحارمهن من الرجال وكأنه متعة تعلي قدر النساء قاطبة. وهي لا تريد أن تلتفت إلى شيء من نفسها حتى لا يكون العجب سببا لها في الأعطاب، لذلك تبدو كالمنهمكة كل وقتها في صرف الانتباه عن مظهرها المتجدد كالشمس، تجعله بردا وسلاما لا يصطلي به من حولها، تلطف أوراه بالتواضع ونكران النفس والإحسان في خدمة الآخرين، تعتبره نعمة وابتلاء، لكنها تخاف أن يكون في محاولة طمسه جحود نعمة أو إطفاء لنور ا لله لو شاء أن يبديه كضوء النهار، لذلك فهي مع كل ذلك لا تكف عن تعهده وإضفاء سمة البهاء عليه برقيق الحركة ولطيف البسمة ومنتقى العبارة مع فائق الأدب ولين الجانب وغض الطرف والبذل المتواصل، وغير ذلك من كل ما كان من شأنه أن يجعل جمالها وحيا يبسط جناح

المهابة على الكون خاليا مـن العدوانيـة الـتي تثـير الغرائـز. فهـي أشبه بطائر الطاووس الذي يثير الإعجاب ولكنه يبعث لدى متأمله على البهاء والسكينة في آن واحد.

زلزلت المدينة زلزالها لما نزل من الإفلاس بتجارة فندق الزيت، وقد توقع كل من في سلا أن تظهر لهذا الإفلاس عواقب مفجعة على مكوس السلطان مما كان يجبى له من هذا البلد وعلى معيشة الناس خاصة، فباضمحلال المبادلات في فندق الزيت ذهبت أرزاق التجار والسماسرة وكتاب التقاييد والعقود والصناع وأصحاب الرباع والأكرية وتفجع له حتى النقالون على البغال والحمير والحمالون على ظهورهم والوزانون والخراصون والعيارون وحتى المسادون في الحمامات وبائعات الخبز وصناع القفف وأظرفة الدوم والتلاليس والشواءون والعارضات المتجولات بأطباق الحناء والحرقوس، وحتى القراء في الولائم والمسترزقون مما يطرح من الوعدات والهبات في صناديق أصحاب الروضات، كل أولئك أصابهم ضيق شديد من هذا الكساد وأحسوا بإدبار السعد والتفات الدنيا عنهم كأنما استحقوا سوط العذاب الذي بات يسلخ جلودهم. فمنذ أن عين عليهم جرمون عاملا وهم تحت وطأة تعسفه ولكنهم كانوا بالرغم من كل ذلك مترفهين من رواج فندق الزيت الذي كان كالقلب النابض في جسم المدينة، بما كان يأتيه ويتوزع منه من تجارة مختلف البلدان.

عاد ركب حجاج سلا في تلك السنة وجرى استقبالهم على ما جرت به العادة من الحفاوة، وكانوا في ذلك العام استضافوا حجاج تامسنا ليبيتوا بسلا ليلة واحدة، ويزيلوا بدخول حمامات المدينة والتردد على حلاقيها أدران السفر ويقوم موسروهم بابتياع ما هم في حاجة إليه من أسواقها. ولكن السلاويين العائدين فوجئوا بالفتور الذي يطبق على المدينة وكأن جسمها قد طرأ عليه نزيف حاد ذهب بمعظم قوته. وما لبثوا أن تبينوا هول الكارثة

التي أصابت هذا البلد المزدهر على امتداد القرون إلى أن جاء هذا الزمان الذي انحرف فيه التجار عن المدينة وهجرها المتمولون الذين اتخذوها مقرا على اختلاف بلدانهم ومللهم. وكان من بين العائدين من الحج تجار كانت لهم جلسات أو مخازن في نفس الفندق، فإذا هم يواجهون بطالة وخيبة ومصيرا مجهولا.

كان من بين العائدين السلاويين من الحج هذه السنة أيضا من ادعى من جديد أنه رأى الرجل المعروف بأبي موسى الساكن في فندق الزيت، رأوه في موقف عرفة أو في المشي بين الصفا والمروة أو في الطواف حول الكعبة، تصايحوا بذلك في مجالسهم بعد رجوعهم وتعاضدوا على تأكيده ولم يذكر أحد منهم أن أبا موسى أقبل عليه أو كلمه أو رد على سؤاله، بل ذكر من ذكر أنه رآه ولم يدر على وجه التأكيد كيف تفلت منه أو اختفى عن أنظاره أو تملص من إرغامه على الكشف عن هويته بما لا يدع مجالا للإنكار والتشككات.

لم يأبه الذين ادعوا لقاء أبي موسى هذه السنة لما وقع في الماضي من التحقيق والامتحان من جهة العامل في حق من قال بمثل قولهم، ولم يثر هذا الادعاء أي متابعة من العامل أو صاحب شرطته هذا العام، إما لأن المنطق الذي أفضى إليه البحث في المرة الماضية اقتضى أن يسمح برواج مثل هذه الإشاعات حتى يقوى اعتقاد الناس في إمكانية وجود صلحاء في زمن صالح، وإما لأن حاكمي سلا وقعوا في ما هو أدهى وأمر لما تورطوا بإجراءات جبائية جرهم إليها سلوكهم الاستبدادي فطغى ذلك على مشاغلهم حتى صاروا تحت وطأته لا يلتفتون إلى ما دونه من الأقضية الحادثة.

بعد شيوع هذه الشهادات وتسامع الناس بها تجدد الالتفات إلى أبي موسى في سلا، وعزز كل مهتم بهذا الأمر صحة

ما قيل بما تذكره هو من أحوال الرجل الدالة على تقواه مما كان لا يثير أدنى ملاحظة من ذي قبل. وذكر بعضهم ممن يتاجر في بلاد الشرق أن رئيس سفينة من سفن الروم وصف له رجلا من أهل سلا تنطبق أوصافه على أوصاف أبي موسى طلب أن يركب سفينته إلى المغرب يوما من الاسكندرية فلم يقبله، وكلما وقف بمرسى من المراسي وهو في طريقه إلى المغرب جاءه ذات الرجل وضحك في وجهه واختفى، حتى أصاب رئيس السفينة من ذلك ما كاد يفقد به عقله. ومع ذلك فلا أحد يجرؤ إلى حد ذلك الوقت على مقاربة أبي موسى أو مشاركته في أي أمر من الأمور ماعدا رد السلام وحضور صلاة الجمعة، وماعدا خروج المسلم الجديد علي سانشو معه إلى البحر يسير من ورائه ولا يكلمه. لا يعرف أحد سر ذلك، ولا يعرف أحد أن أبا موسى استجاب في قبول تلك الصحبة لالتماس امرأة لا تدري هي نفسها لحد الآن كيف أنها ذهبت إليه في شيء ولما واجهها في باب غرفته نطقت بشيء لم يكن في نيتها من قبل. أما مسكنه في المغارة فمعروف ولا باب له، يقتحمه الفضوليون من الرعاة ولا يمد أحد منهم يدا لما فيه من بعض الفواكه اليابسة التي يلتقطها من أشجار في الخلاء غير المملوك لأحد ومن الحوت اليابس المملح الذي يخرجه من البحر ويهيئه بملح يشتريه مرة في العام بأجرة عمله يوما واحدا حمالا للسلع في الفندق، وزيت قنديله هناك وفي البيت يأخذه إن احتاج إليه من خابية الصدقات من الزيت على زاوية النساك، وطعامه في أغلب الأيام من عساليج البحر.

فأحواله الآن من جملة ما يتردد الكلام فيه في المجالس بسلا، وذكره يجر إلى ذكر من كان بالمدينة في غابر عصورها من الزهاد والمبجلين وذوي المناقب، وقد جرى ذكر أبي موسى يوما في مجلس علماء فقال شيخ جماعتهم : ما سلم الناس لأحد من

الأحياء مثل ما وقع هذه الأيام من التسليم لأبي موسى، وما ذلك في نظري إلا لكونه لا يملك شيئا ولا يريد شيئا، ومن ثمة لا يحتاج إلى أمير. واعترض واحد ممن كانوا في المجلس بأن الصلاح يكون بنفع الناس لا بالاكتفاء بنفع نفسه، ولكن الحديث بعد تضارب الأقوال واستعراض الشواهد أفضى إلى الإقرار بأن الناس ثلاثة : رجل لا يضر الناس وإنما ينفعهم ورجل لا يضر الناس ولا ينفعهم ورجل يضر الناس ولا ينفعهم. ومن يصغ لما دار في ذلك المجلس ويفهم التلميحات والإشارات يفهم أن النقاش دار حول جرمون عامل سل، هل ينفع الناس حقا بشيء بعد تحقق ضرره، وما إذا كان نظيره أبو موسى الزاهد ينفع الناس بشيء بعد أن تحقق أنه لا ينالهم بضرر. وقد احتج من رأى للعامل نفعا بأن نفعه في ردع اللصوص وقطاع الطرق. واحتج من رأى لأبي موسى نفعا بأن الله لا يعذب الناس وفيهم صلحاء، وقالوا إن نفع هؤلاء يتصرف غيبا. وقد استشهد أصحاب هذا الرأي الأخير بكرامات الغابرين وذكروا قصة المجذوب الذي ورثه أبو موسى في المسكن بفندق الزيت وما وقع منه عندما خرج الناس من الجامع ووجدوه يلاعب أتانا وادعى أنه يصلح الخرق في سفينة، فتهكم منه البعض وهم آخرون بنهره، فإذا بسلاويين من الملاحين الذين كانوا في حملة الأطراف الشرقية ينجون إلى البر بعد أيام ويذكرون أن سفينتهم انخرقت وأنهم رأوا رجلا في صورة هذا المجذوب يتدخل لرتقها بأعجوبة. وانتهى المجلس بسخرية تملؤها نفثات الحزن والمرارة عندما قال بعضهم : حبذا لو عمل أبو موسى على إعادة التجارة إلى فندق الزيت أو نفعت بركته في تخليصنا من آلام الظلم الذي يلوي أعناقنا.

لو حضرت شامة ذلك المجلس أو استمعت لما جرى من حديث بين أعيانه لكان لها شهادة تدلي بها تثبت بما لا يدع

مجالا للجحود أن نفع أبي موسى حقيقة لا مراء فيها. فهي لا تزال تحت وقع القصة التي جرت يوم أحضرها أعوان العامل إلى دار سيدهم وكيف حيل بينه وبينها بسبب حكة الجلد التي أصابته، وكيف علمت مما حكاه زوجها علي الذي قضى الليل مع أبي موسى بمغارته أنه قضى ليله يحك جلده.

قصة لا تستطيع شامة حتى لو حضرت أن تحكيها لأنها كابوس لم تتخلص بعد من شبحه ولن تتخلص منه لأن امرأة أخرى بل امرأتين بعلمهما ذلك الاستدعاء من وجهة الشبهة ولا علم لهما بحقيقة ما وقع، ثم إنها قصة ذات شقين، أحدهما تعلمه وهو ما جرى للعامل أمامها والشق الثاني ما حكاه لها زوجها عما اعترى أبا موسى وهو معه في المغارة . والعلاقة بين الأمرين يقينية في نظرها ولا يمكن أن ينكرها إلا ناكر مغرض، ولكن التأكد من نتائج استعمالها حجة لتبرئتها لو تطلب الأمر ذلك يتوقف على وضع الأمر برمته أمام قاض عادل يحتاج إلى شاهدين يقران كل بما وقع له وهما العامل جرمون وأبو موسى، وهو أمر متعذر. وتبقى شامة لغياب فرصة هذا العدل البشري بريئة أمام الله وحده، أما الناس فإنها تعرف كامرأة أنها حتى لو أقروا يوما ببراءتها فلن يتخلصوا تماما من ذكرى كونها كانت متهمة يوما من الأيام، فبمجرد التهمة يثبت نصف إجرامها.

23

انصرم شهران كاملان على اليوم الذي قام فيه جرمون بالزج بعلي في السجن بدار القاضي ولم يحاكم إلى ذلك الحين في انتظار جواب الحضرة بفاس على التماس نقيب الشرفاء بسلا. وهذه هي المدة التي توقع فيها الشريف أن يصل الرد على التماسه. وقد بدأ قلق شامة يزيد عما كان عليه، وهي تتصور أن يكون جرمون قد قطع طريق الوصول على الرسالة إلى السلطان أو رشا هنالك من يشير على الأمير بعدم الاكتراث بمصير هذا السجين الأعزل وتعزيز نفوذ العامل في ما يدعيه من السعي إلى حماية الجبايات. ثم تصورت أيضا أن تصل الرسالة وأن يصدر فيها الأمر السلطاني بما ينصف المظلوم، ولكن التنفيذ سيبقى معلقا بسبب عدم المتابعة وكثرة المشاغل أو حتى بسبب تدخل جرمون بوسائل الإفساد المعروفة عنه لتحقيق أغراضه.

لكن الرد على التماس النقيب وصل إلى العامل بعد أيام من تزايد قلق شامة، وفيه أمر سلطاني بتسريح المسجون علي زوج شامة وتمكين شامة من ظهير توقير يجدد وصية الأميرة أم الحر ويدخل أهلها في دائرة التوقير والمبرة، بحيث لا يقع عليها ولا على من تشمله دائرة انتسابها ضيم ولا تبعة من حاكم ولا تطالب هي ولا أقاربها بما يطالب به عامة الناس حتى من الواجبات والتكاليف السلطانية.

أمر العامل بتسريح علي من سجنه فورا ورد إليه بعض المال الذي أخذه منه على سبيل الذعيرة واعتذر له عن عدم الإنصاف في حقه بسبب أخبار مغلوطة كانت تنقلها إليه عنه شرطة سلا. وفي نفس الساعة بعث جرمون إلى نقيب الشرفاء وسلمه أصل ظهير

التوقير الذي ورد في اسم شامة من الحضرة العلية وأبلغ القاضي أيضا بمضمنه، وكذا فعل مع سائر كبار خدام السلطان في المدينة.

أقام الشريف حفلا بداره بمناسبة نجاح مساعيه لأن ا لله وفقه إلى رفع جائرة فظيعة بحسن تصرفه على مقتضى منزلته وما يتوقع منه من الذود عن الحرمات وصيانة الأعراض والفضائل.

لم يظهر جرمون ارتباكا ولا خجلا لما وقع ولا تحرج في تنفيذ ما صدر له من الأوامر، كما لو أنه كان في كلتا الحالتين لا يعدو أن يكون منفذا لأوامر سيده مع بذل الجهد المخلص في ما يرضيه. والواقع أن كل توقحات جرمون وتجاوزاته يعدها من اجتهاده في خدمة السلطان، بل إن أغراضه وشهواته الشخصية داخلة في ذلك الشأن. أما أهل سلا فرأوا في هذا التخليص لمسجون مظلوم وفي كف عادية العامل عن امرأة يتهامسون يوميا بما كان ينصبه لها من مصايد ويدبر لها من مكايد، صفعة لجرمون من يد السلطان وعبرة عليه أن يعتبر بها في ما يستقبل من الأيام. لقد كان في ذلك تنفيس لهم وانتصار وهمي لكرامتهم المديسة.

دوى في المدينة صدى التحرير الذي ورد من حضرة فاس إلى شامة وما ترتب عنه من تسريح زوجها الذي كان الجميع مقتنعا ببراءته دون أن يجرؤ أحد على مناصرته بلسانه أو بيده. والواقع أن شامة كانت تشعر بخيبة كبرى لأن ظالما أوشك أن يمضي ظلمه على بريء ولا رادع يردعه. وكثيرا ما فكرت في هذه المأساة وتساءلت عما إذا كانت الرجولة مجرد أسطورة ارتبط وجودها واستمرارها بعدم وضعها على محك من هذا القبيل. وعما إذا كانت الشجاعة تقتصر على ميدان الحرب بين عدوين. وكان غبنها مضاعفا لأنها كانت تتمنى لو كان موقف مناصرة للحق أمام ظالم قد صدر من جماعة معينة أو حتى من فرد واحد غير هذا الشريف النقيب ليجعل أهل ملتها يكبرون في عين زوجها

الحديث العهد بالإسلام. فكأنما خافت عليه أن يرتد أو تنال تلك الشدائد من إيمانه الهش. بل ربما تصورت وتمنت أيضا أن يكون ما يجمع بينه وبينها قائما على عهدين، عهد مع ربه في هذه الملة، قوي بحيث لا يلين لأي امتحان مهما اشتد وعظم، وعهد معها لا يخفي عنه حقائق الواقع المر، ولا بأس إن زاد في تمسكه بالعهد الأول. ثم انتهى بها هذا التفكير إلى القول في نفسها : المهم هو أن يبقى لي، وستضمد جراحه ويلهم الحكمة التي اقتضت أن يقع ما وقع.

24

توقع الناس في سلا ألا تعود شامة وعلي إلى سكنى الفندق نظرا لحرمة التكريم السلطاني الصريح الذي يتمتعان به من الآن فصاعدا، ولأن الفندق قد كاد يفرغ من كل نشاط محترم بعد ذهاب التجار، وقد شرع العامل جرمون يرخص في كراء المساكن والحوانيت والمخازن الفارغة لنساء غير متأهلات ينتقلن إليه من فنادق أخرى قديمة أو من مساكن في الحارة التي تحت سور جهة الشمال. وكذلك توقع الشريف النقيب أيضا أن تعمل شامة بإشارته في تغيير سكناها رعيا للاعتبارات السابقة، ولحرصه الشخصي على أن تظل متصلة بداره، وأهله يرغبون في ذلك لأن هذه المخلوقة تسحر الناس بأنسها وبودية معشرها ومهارتها في كل فن تحسنه بنات جنسها. وكان إيجاد مسكن لائق بهما حتى خارج أملاك الأحباس التي يتدخل العامل في كرائها أمرا ممكنا.

غير أن شامة أصرت مبدية تواضعها على أن تعود وزوجها إلى مسكنهما في الفندق. والحقيقة التي أبطنتها حتى على زوجها هي اعتقادها في صلاح أبي موسى وتفضيلها لجواره عن أي جوار، فهي تعرف وحدها أنه كان متورطا بوعي أو بغير وعي في الأمر الخارق الذي وقع يوم استدعاها العامل ليلا، وشامة أكثر الناس إيمانا بأن ما يروج حوله من السفر إلى الحج كل عام بكرامة طي الطريق صحيح لا يتطرق إليه الشك. ثم إنها تذكر كيف استجاب لها في قبول صحبة زوجها علي إلى البحر في معظم أيام خروجه إليه، وهي تحس بالسكينة التي تغمر زوجها بفضل هذه الصحبة، وهي لا تنسى مواساة أبي موسى لهما يوم مضايقة العامل لزوجها وهروب الناس منهما هروبهم من الجرب، ثم إنها لا تأمن على زوجها أحدا، وتحمل هم غربته عن أهله وحداثة

اعتناقه لدين جديد، فقد تكبر صدمته بمرافقة أشخاص من مرضى الاعتقاد أو من المتساهلين في التمسك بالأدب الضروري اللازم للإيمان. وفي بعض الأحيان تفكر شامة في التخلي عن هذه الفكرة، وترى أن زوجها عليا قد يكون من مصلحته أن يخالط كل الفئات ويتعرض لكل الصدمات حتى يشتد عوده ويرسخ إيمانه مادام يحكي لها في كل مساء الشاذة والفاذة مما وقع له أو شاهده أو سمعه. ويكفي أن تتكفل بتصحيح ما يحتاج فهمه إلى التصحيح، غير أنها لم تستطع أن تتخلص من خوف أخذ يداخلها في الأيام الأخيرة بشأنه، وكأنها ستفقد زوجها وتحرم منه.

استمهل النقيب شامة وزوجها في داره حتى تنقها من محنتهما، وبعد أسابيع تلقيا فيها تهاني عدد من الناس بنهاية كابوس أقض مضجعهما، وهو مضايقة العامل لهما، ولاسيما سجن علي في الأخير، عادا إلى الفندق، وهنالك تأكدا عيانا من التغيير الذي وقع في هذا المبنى الذي كانت شهرته قائمة على التجارة وكان سكانه العاملون فيه من التجار. فقد هجره هؤلاء إلا قلة قليلة ولم يعد يسكن طوابقه الثلاثة سوى أبي موسى وثماني نساء هما تودة وخوليا بنت بيدرو ست ساكنات جدد حللن بهذا المكان أثناء غياب شامة وزوجها.

وبعد أيام قليلة تعرفت شامة على وجوه جاراتها دون الانغماس معهن في أي ألفة أو تساهل يجر إسقاط ما هو ضروري من الكلفة. وحتى لو رغبت شامة في أن تعرف قصة كل واحدة من هؤلاء النساء لما استحقت منها كل واحدة لرهافة حسها وطيبة قلبها غير الشفقة والحنان.

25

بية، حميراء بضة قصيرة، نشأت منذ طفولتها في بيت شيخ منَ شيوخ زناتة قرب أنفا، مدينة تامسنا القديمة، خادمة من جملة خدم في بيت كبير سكانه بضع عشرات، الشيخ وإخوته ومن يعولون ويستخدمون من زوجات أمهات وأولاد وبنات وكنات. وفي تقاليد هؤلاء العريقين في الاستقرار الماهرين في فلح الأرض وفي الفروسية، تعتبر الصحة وصفاء الدم مقياس الجمال، واعتدال القوام وطول بارز في القامة عندهم سمة غالبة، ولذلك كانت بية توصف إذا عيرتها حاسداتها بأنها جبلية، لوضوح قصر قامتها. لكنها بالرغم من بعض الامتلاء كانت جلدة في الخدمة، تتنافس عليها الزوجات وأمهات الأولاد حتى تكون منسوبة في الخدمة إلى الواحدة منهن تكفيها كثيرا من مشقة نوبة القيام بلوازم يوم كل اثني عشر يوما، بتهييء الطعام والشراب وتغيير الأفرشة وغير ذلك.

شبت بية وزادت في مزاياها إتقان الشطح على أصوات العيطة الزناتية التي بها يحرض الفرسان والمجاهدون، لكن شيئا آخر كان لها مبعث افتخار وعجب ومثار غيرة وحسد، ألا وهو الشعر الفحيم الغزير الطويل المشبه عندهن بشعر عرف الفرسات. إذا جمعته كان قفة ثقيلة على كتفيها، وهي لا ترخيه حتى لا ينجر على الأرض. لم تنل منه ملوحة الهواء ورطوبة البحر التي تفقر شعر غيرها من النساء وتجعده وتذهب برونقه. ومن حسد مشاكساتها في دار الشيخ الزناتي أن يقال لها من حين لآخر إن صحة شعرها تعود إلى أن أهلها من مصامدة الجبل، يشربون ماء الحياة المقطر من العنب المطبوخ كما تعلموه من اليهود المتساكنين معهم في حياتهم. وإذا سمعت بية مثل تلك الشتائم قلقت وقالت:

أنا لا أعرف ماء الحياة هذا ولا شربته، ربما شربته أمي أو ضمخت به شعري في الصغر، وا لله أعطاني ما أعطاني. وهي إذا فكرت في هذا الأمر بينها وبين نفسها حارت في كون الناس يصرون على أن يجعلوا كل شيء جميل متأصلا من ذنب أو مرتبطا بخطيئة.

وإذا لم تجد حاسدات بية سببا لإذايتها وإخفاء غيظهن قلن إنها مشغولة بشعرها عن الأشغال المطلوبة منها، أو إنها تضيع الوقت مع العطارين لشراء الأمشاط والحناء والقرنفل، وهي ترد على من يعاتبها بأن عنايتها بشعرها من شكر تلك النعمة. ومع ذلك فقد تعرضت للأذى الفعلي غير ما مرة بسبب تلك النعمة، ومن ذلك أنها نامت ليلة بعد جهد مضن في استضافة قبائل، ولما استيقظت وجدت أن شعرها قد جز منه الثلثان بالمقص الذي يجز به صوف الأكباش. ولم تصدق، وظنت أنها تحت تأثير كابوس مرعب، ولما فركت عينيها وتيقنت أنها الحقيقة ارتاعت وضجت وسبت وبكت، وتمثل أمام عينيها المشبوهون الذين يحتمل إقدامهم على هذا العمل الشنيع، ولما استيقظ من بالدار واساها بعضهم وشمت بها آخرون. ولم يخف على أحد أن المدبر غير المنفذ، وأن المدبر لا سبيل لإثبات ضلوعه في النكاية والمنفذ لا سبيل لاتهامه أو حتى توجيه العتاب إليه ولو عرف. وهو معروف ومعترف، إنه أحد أولاد الشيخ المراهقين المدللين من أبناء الزوجة المقربة.

وقصة بية مع هؤلاء الأولاد الكثر كغيرها من الخادمات قصة طويلة، تردف صغارهم وتجامل الكبار، وكانوا سبب خروجها من دار الشيخ الزناتي، إذ تبارز اثنان من شبانهم بعد تخاصم حول ترتيب أفرشة طلب كل واحد منهما أن تكون بية

هي التي تقوم بها، ولم يقبل أي منهما أن يأتي الثاني في التمتع بالخدمة.

وقد قرر الشيخ أن يستغني عن خدمات بية دون أن يعيدها إلى أبويها في جبال تادلة، لأنه يعرف أن مستقبل حياتها لم يعد هناك. وقد تآمر مع أخ له سيذهب مع ركب قبيلة زناتة إلى موسم سنوي يقام حول ضريح مجاهد من مجاهدي ركراكة دفن في الغابة التي بالضفة اليسرى لنهر بوركراك. فكانت بية بأمر من الشيخ في من صحب أخاه من النساء إلى هذا الموسم. وفي اليوم الثالث من الاحتفال أوعز بعض أعوان أمير الركب الزناتي إلى بية بأن تصاحبه ساعة للانخراط في حلقة طائفة شهيرة بشطحها الروحي وأمداحها في تلك المناسبة. وبية ميالة إلى كل ما يطرب، وما أن علا صوت المداحين بتلك الحلقة حتى كانت من أول المنفعلات اللائي اقتحمن الحلقة ووقفن يرقصن على أنغامها وإيقاع دفوفها في "جذبة" عميقة، وقد انفرط من بية الشد الملتف حول شعرها فتدلى الشعر إلى الأرض وتراقص يمينا ويسارا على إيقاع الأصوات وتمايل الصدر، فافتتن كل من بالحلقة بما رأوا، وذهب عن كثير منهم الوجد بالمعاني الروحية التي في الألحان والأمداح ليحملقوا والفم فاغر في هذه الباقة المسكية التي تلوح بها امرأة بضة سقط عنها الإزار من شدة الغياب عن حواسها حتى ظهرت ثياب زينتها.

كانت في الحلقة امرأة كهلة من سلا، ظلت تنظر إلى بية وتخطط لها: فكأنما بخبرتها في الأمور قد قرأت حياة تلك المرأة أو سمعت أنين آلامها العميقة وحنين أحلامها المظللة بالحرمان. فما أن خف طرب بية وعاد إليها سكونها حتى بادرت المرأة السلاوية إلى بية تمسح عرقها وتجمع إزارها وتلم شعرها وتسندها للخروج بها من الحلقة. وما أن تأتى لها أن تسائلها حتى دخلت

معها في حوار عرفت منها به كل شيء عنها، وكانت الشمس تميل إلى الغروب. انتفضت بية من بين يدي المرأة تبحث عن العون الذي رافقها إلى الحلقة، فإذا هو قد اختفى. كل ذلك والمرأة السلاوية لا تفارقها. وسارعت بية إلى جهة المخيم الذي به أهلها الزناتيون، وما أعظم مفاجأتها عندما وجدت أن هؤلاء الذين جاءوا بها قد شدوا الرحال وغادروا المكان قبل الموعد الذي ضربوه، وهو فجر اليوم الموالي.

دارت بية في كل اتجاه وجلست تنتحب لأنها عرفت عندئذ أنها جيء بها لتلقى في مزبلة، كما يذهب بعيدا بالكلب العقور لإتلاف طريق رجوعه. فهمت كل شيء واسترجعت كل التفاصيل التي تنبئ بأن دار الشيخ الزناتي قد ضاقت بها بما رحبت، ولكنها كانت من السذاجة بحيث لم تربط اصطحابها إلى هذا الموسم بمكيدة تستهدف التخلص منها. وهي تعرف أنها لم تظلم أحدا ولم تشط في سلوك، ولكن مصلحة الدار التي خدمتها منذ طفولتها هي التي تطلبت التخلص منها بلا رحمة أو شفقة. وهي تعرف أن أولئك الفحول المتغطرسين يؤمنون قبل كل شيء بمصلحة الدار، وباسمها يتصرفون بسهولة في أكثر من مصير. فقد كان يخطر ببالها منذ أن بدأت تحس بعنفوان شبابها أن مصيرها في بناء عش تحلم به أي امرأة في حياتها هو أن يزوجها الشيخ بأحد أعوانه فتبقى وإياه في خدمة الدار كما كان مصير سابقات لها من الخادمات، غير أنها شعرت بتوالي الأيام أن ذلك الأمل بدأ يتبدد بسبب ما ثار حولها من إشاعات وما نسب إليها ظلما من إثارة الشغب والحزازات بين أولاد الشيخ أو أولاد إخوته. وتبين لها أن ذلك الطعن كاف لاستئصالها من منبتها حتى ولو تصورت أن رجلا سيخطبها وسيتغاضى عن قصر قامتها الذي هو معرة عند هؤلاء القوم ذوي الطول الملحوظ نساءا ورجالا.

فهمت بية أنها لا تستطيع أن تعود إلى دار الزناتي وقد تخلفت عن الركب لأنها ستطرد ولا تقبل منها معذرة . أما المرأة السلاوية التي سابقت خيالها وأجابت عن أسئلة حيرتها فقد رأت منها بية أنها تتصرف معها كما لو كانت مكلفة بأن تتسلمها من يد من أتى بها لتحيلها إلى مصير جديد.

صحبتها بية إلى سلا مضطرة، فإذا بالمرأة تقطن وحدها في دار لا ساكن فيها معها سوى خادمة سمراء. ومنذ اليوم الموالي رأت بية أن مضيفتها قد صارت تعاملها معاملة السيدة لخادمتها، مع تلطف تفهم منه أنها تخبئ لها عناية خاصة، وقد كان يزورها رجال من ذوي الهيئات الأنيقة فكانت تحرص على أن تكون بية مسخرتها ومناولتها في تلك المجالس.

دفعت بية لتقوم بخدمات خاصة في بيوتات، وكانت لا تعرف الأجر الذي تتلقاه سيدتها، ووجدت نفسها كالمملوكة الأسيرة لتلك المرأة ذات الاتصال الواسع بالمرموقين من ذوي المال والنفوذ.

وما لبثت بية أن تحققت من المصير الذي سيقت إليه وتخلت عن كل آمال الاندماج في الحياة العادية للناس، وتعرفت على كل ملابسات عيش امرأة مثلها في مدينة. وبعد سنوات كان كل ما وصلت إليه هو أن تحقق استقلالها عن مالكتها بعد خناقات واستعمال تدخل أشخاص من ذوي النفوذ صاروا من معارفها هي أيضا. وهكذا رشحها العامل جرمون بإيحاء من معاونيه لتنتقل من حي تضايق أهله بها وتسكن فندق الزيت بعد أن هجره التجار.

إجًّا، ومعنى اسمها "عَطِر". وهي طفلة بيعت في سوق من أسواق البادية زمن المجاعة، باعها زوج أمها في أحد أسواق قدم الجبل، وكان ثمنها أمدادا قليلة من الشعير. اشتراها رجل من أعراب السهل فرعت له البهائم في جملة رعاة آخرين. ولما شبت إجًا غارت منها امرأة سيدها فباعها الرجل لفرقة زفانين يرتادون دور الأعيان في القبائل والمدن.

انضافت إلى خمس أخريات وكانت أصغرهن وكن يلعبن في مناسبات الأفراح للرجال والنساء. وكان في الفرقة أربعة رجال، ورئيسها ناظم زجال ماهر معروف في الستين من عمره، يحنو على جميع من في فرقته ويمارس مهنته في جلال ووقار ويخضع معاونيه ومعاوناته لصرامة درب عليها، وكانت عهدا منه لشيخه في ذلك الفن الذي يمارس في حرمة، ولا يشك أنه إذا مورس بإذن من أهله لابد أن يؤدى على مقتضى المروءة، يعلم أفراد فرقته، ولاسيما النساء، كيف الذهاب في الصنعة إلى حد إثارة الإعجاب وإشباع نوازع الفرجة الفنية عند المتفرجين دون إطماع أحد في هتك ستر الحياء.

تعلمت إجا استعمال الناي والضرب على الدف واستعمال النواقيس الضابطة للإيقاع وتنغيم الأصوات وحفظت كثيرا من الكلام الملحون، ومع مرور الأيام صارت نجمة الفرقة بلا منازع، وكأنما تجدد بها نشاطها وزادت شهرتها. لم تجرؤ إجًا يوما أن تسأل أيا من زميلاتها في الفرقة عن تفاصيل القدر الذي انتهى بها إلى تلك الفرقة، ولكنها لم تشك في أن لكل واحدة منهن قصة تشبه قصتها، ولا تهم تفاصيلها مادامت تقبل أن تتصرف كالمملوكة لهذا الرجل الذي يربطه بهن خوف وتبجيل.

وفي نهاية فصل خريف بعد نهاية موسم الأعراس والحفلات، ذهب صاحب الفرقة بأصحابه لزيارة شيخ من صلحاء الجبل، وحملوا أنواع مواد الطعام التي تكفي لأيام عديدة من الإقامة المرفهة، واشترى من سوق في قدم ذلك الجبل ألبسة رائقة للرجال والنساء، وابتهج جميعهم في نفسه بما أظهره رئيس الفرقة من الرضا على اشتغال المجموعة في الصيف وتعبها في التنقل من مكان إلى مكان لإرضاء طلبات المحتفلين، حتى جمعوا من الجولة مالا معتبرا ولقوا إقبالا يبشر بأن الطلب على الفرقة سيزداد مع مرور الأيام.

ولما حل أفراد الفرقة بجوار الضريح الشهير، قاموا بزيارة، وتصدق رئيسهم على أحفاد صاحب القبر وعلى المساكين والقراء المجاورين هناك، ثم أووا إلى مسكن بالكراء. واشتهى الرئيس ثريدا بلحم ضأن، تفننت نساء الفرقة في تحضيره للعشاء وهن في غاية الانشراح والحبور. وبعد العشاء جلست الفرقة للأنغام لمتعة أفرادها لا لغيرهم هذه المرة، فكانت ليلة بهيجة. وبين صوت وصوت كان رئيس الفرقة يدعو الله لنفسه ولأصحابه ويتضرع ويتخشع، وكانوا يؤمنون عليه.

وفي آخر الجلسة قال لهم : اسمعوا يا أبنائي ويا بناتي، إن إجا لا يمكن أن تبقى في سنها هذه وهي لم تتزوج بعد، وسأتزوجها إن قبلت غدا إن شاء الله على سنة الله ورسوله وتحت رعاية هذا الولي الذي ننزل بمقامه، وتعلمون أنكم شهودي وأنني قد اشتريتها. ولدي أغراض أقضيها في قرية مجاورة غدا سأذهب إليها عند الفجر، فخذوا مالا تشترون به كبشا من أحد الرعاة، واذبحوا لهذه المناسبة، وتصدقوا منه واصنعوا لنا عشاء لائقا في الغد إن شاء الله.

خرج رئيس الفرقة ورجاله إلى محـل نومهـم بعـد أن هنـأوه وتمنوا له مزيد الصحة والبركة في العمر، وتركوا النساء وفيهن إجا وهي مرتبكة غاية الارتباك لسماع أمر لم تفكر فيه ولم يخطـر لهـا ببال. فهي قد تمرنت على أن تدافع كل خاطرة لها علاقة بالزواج لأنها لا تملك أمر نفسها، وليسـت في كنـف أم وأب يهمهمـا أمـر حياتها العادية، فهي في شغل لا يستغنى عنها فيـه، وهـي تؤمـن بقسمة الأرزاق ووجود رب هو أرحم بالناس حتى من أنفسهم، ولو تخيلت الأسباب التي يمكن أن تغير مصيرها الحـالي لتصـورت أن تستبد يوما بإعجاب أحد المكترين للفرقة أو المتفرجـين، فيفـاوض في شرائها رئيس الفرقة بثمن مغر لا يـرده. ولكنهـا تعلـم أن ذلـك الأمر إن حصل فلن يصدر إلا من بعـض رؤسـاء العسـكر أو رؤسـاء البحر أو التجار الأجانب، أما أرباب البيوتات وأبناؤها فـلا أحـد منهم يرضـى أو يقبـل منـه أن يسـتو لـد امـرأة اشـتغلت في فرقـة متجولة من الزفانين.

اجتمع النسوة الخمس على زميلتهن إجـا يخففـن دهشـتها وارتباكها، وأخبرنها أن كل واحدة منهن لقيت هذا المصير، حيث اشتراها رئيـس الفرقـة، ومرنهـا علـى الاشـتغال، وفي سـن معينـة تزوجها لمدة عامين، ثـم طلقهـا وخيرهـا بـين البقـاء في الفرقـة أو الانصراف عنها حرة طليقة. أما الرجـال المشـتغلون في الفرقـة فـلا يقبل لأحد منهم أن يتزوج بامرأة مـن زميلاتـه، وإن تعلـق بهـا أو كانت هي التي أظهرت التعلق به، ومتـى فكـر أحدهـم في الـزواج سرحه وأتى بغيره في مكانه.

تزوج رئيس الفرقة بإجا، ولكنه على خلاف ما جرت عليـه قصصه العادية مع الأخريات كان قد بلغ عندما تزوج إجا سـنا لم تعد نفسه تطاوعه فيهـا لفرض مـا درج عليـه مـن الصرامـة علـى زوجاته السابقات، فقد ظهر عليه توله زائد بإجا ونشـأ عـن ذلـك

خلل في الانضباط داخل الجماعة، بل إنه انشغل بها كثيرا حتى كان يعتذر عن مواعيد بعض الحفلات. وبدأ التدهور يظهر على صحته. وذات ليلة والفرقة تلعب بسلا وقع مغشيا عليه في وسط الحفلة. وطال مرضه في غرفة بأحد الفنادق، وكان أفراد فرقته ينتظرون إبلا له، فلما اشتد بهم العوز سرحهم بأمر صارم وتفرقوا شذر مذر، وبقيت إجا إلى جانبه تواسيه وتشتغل في بيوتات المدينة لإعالته. وبعد شهرين من انصراف أصحابه أدركه الموت. وبقيت إجا حيث تركها تنضم في المناسبات لبعض فرق الفرجة مقابل أجر، وتتعرض لكل الآفات التي تتربص بمن في مثل حالها.

ملالة، والدها من معلمي الصبيان، المشارطين على ذلك التعليم بأجر مع جماعات القرى، ينتقل من قرية إلى أخرى بعد عام أو أكثر. ماتت أم ملالة الصبية في نهاية طفولتها. ولم يتزوج والدها في انتظار أن تتزوج بنته، إشفاقا عليها. وكان يحبها ويبالغ في حبها، وكان متهما بتلك المبالغة في وسط لا يدلل الأطفال لكي لا يفسدهم للحياة، ولكنه كان معذورا في بعض ذلك لكونه محترفا بحرفة بعيدة عن الخشونة في أسباب العيش.

كان هذا الطالب قد علم ابنته القراءة، وكان يجلسها بجانبه في الكتاب وهي تحمل اللوح، ولا يشق عليها في حفظ ولا في تركيز. فهي قضت جل طفولتها وسط الأولاد، لا تخفى عنها أحوالهم، تشاكسهم وتخضعهم لرغباتها تخويفا لهم بسلطة أبيها عليهم، فكان كثير منهم يكرهها لذلك، وإن كان بعضهم يستفيد من عطفها عليه وإتحافه بأنواع المأكولات التي تأتي للمعلم من دور الجماعة.

ولما بدأت تظهر على ملالة علامات الشباب قرر والدها أن يطلب من بعض النساء المترددات عليه لطلب تمائم الشفاء وتقوية العواطف أن تعتني بها وتتفقدها في بعض الأمور.

غير أن ملالة لم تكن تظهر أي ميل لمعاشرة بنات جنسها. وبتقدم سنها بدأ قلق والدها بشأنها يشتد لأنه لا يتصور أن يتحمل فراقها لو تزوجت، ولأن بقاءها معه، وهي في سن الزواج، سيضر كثيرا بصلاحيته للمشارطة كمدرر في كتاتيب القرى وهو لا يتصور أنها ستقبل أن يودعها لدى جدتها من الأم أو إحدى عماتها من أخواته. وكان يزعجه كثيرا أنها تعده بالمداومة على الصلاة ثم لا تفي بوعدها. ثم إن جلوسها معه وهو في وقت التعليم

لم يعد مناسبا للمقام، وبقاؤها في غرفة سكناه بمفردها كـل الوقـت أمر ممل ولاسيما وأن الوالد يتغيب أحيانا بالليل في دعـوات لعقـد الأنكحـة وإقامـة العقائق وعشـاءات الجنـائز وغـير ذلـك مـن المناسبات. ثم إنها لا تتعلم كيف تطبخ لأن الجماعة تـداول إمـداد المشارط بالأكل الجاهز، ولا تتعلم كيف تغسل الثيـاب أو تخيطهـا أو أي شيء ستتوقف عليه في حياتها، لأن الشـباب مـن التلاميـذ يتولون ذلك من جملة واجباتهم نحو الأستاذ.

دخل المشارط من عقيقة بـالليل ووجـد بنتـه ملالـة تبكـي، فحزن لذلك وسألها عن سبب بكائهـا وألح في السؤال، فـإذا بهـا تواجهه بصراحة غير معتادة وقـالت إنهـا تريـده أن يزوجهـا مـن فلان بعينه، أحد طلبتـه الكبـار الذيـن أنهـوا القراءات وانصرفـوا للفلاحة وشئون الحرث.

سأل الأب ابنته عن ممهدات هـذا الطلـب فأجـابت البنـت بأنها رغبتها المحض ولا علم للمخطوب بشيء مـن ذلـك، وزادت أنها إما أن تتزوج به وإما أن تلقي بنفسـها في بـئر المسـجد الـذي يستقى منه للوضوء.

أخذ الوالد كلامها مأخذ الجد وكاد أن يبكي أمامها بدوره، لكنه تمالك نفسه وطيب خاطرها وقال : غدا إن شاء الله أدبر هذا الأمر. وبذلك عادت إليها ابتسامتها واستسلمت لنوم عميق.

أرسل المشارط إلى تلميذه السابق وقص عليه أمره وطلب منـه أن يستره إذا لم يقبل عرضه، وأن يقوم هو بدفـع أهلـه إلى خطبـة ملالة إذا رضي بمصاهرته.

لم يكن بوسع التلميذ أن يرفض لأن الأستاذ بمثابـة الوالـد، ورفض أمره من قبيل العقـوق، وملالـة ليسـت ممـن يعـاب خلقـة سيما إذا ذهب عنها الـنزق المعروف عنهـا حـين يكـون لهـا زوج وبيت وأولاد. ثم إن أم التلميذ وإخوته لا يستطيعون أن يردوا طلبا

لولدهم إذ يعتبرونه خلاصهم في الآخرة لأنه حافظ للكتاب، وهم يفخرونَ به أمام الجماعة كلما وقف بالنيابة عن الإمام يتلو نصف القرآن في صلاة ليلة القدر من حفظ صدره بلا ارتباك.

وافق التلميذ ودفع أقاربه إلى التقدم لخطبة بنت المشارط وهم لا يعلمون أنها صاحبة المبادرة. وتكفل أعيان الجماعة بتجهيز العروس وإقامة العرس في سابع عيد الأضحى. وانتقلت ملالة إلى بيت الزوج. وأصرت على ألا تضع يدها في عجين ولا تقوم بطبيخ. وتحمل الزوج وأهله تكاسلها رعاية لحرمة الأستاذ. وبعد أقل من شهرين خرجت ذات صباح ولجأت إلى أبيها في المسجد وهي تبكي وتدعي أنها تريد أن يوضع حد لذلك الزواج وأن تطلق وأن ينتقل والدها إلى قرية بعيدة بما فيه الكفاية حتى لا تسمع برجل سئمت عشرته وكرهت رائحته. لم ينفع في إقناعها بالتراجع عن نزوتها لا والدها ولا زوجها ولا أهله ولا من طلب منهم المشارط التوسط لديها.

وأذعن الزوج لرغبة أستاذه في تطليق بنته وأذعن والدها لرغبتها في الانتقال إلى قبيلة أخرى. وما أن استقر في كتاب قرية جديدة حتى خرجت بنته لتطوف في البيوت وتكشف عن نزقها وطيشها للجميع. وانقسمت الجماعة في القرية إلى حزبين، حزب يطالب بفسخ شرط المدرس، لأن سلوك بنته لا يلائم المكانة التي ينبغي أن يوضع فيها، وحزب يرى أن هذه المشكلة ستنتهي لو تقدم أحد رجال القرية بطلب الزواج من البنت.

غير أن البنت هي التي اختارت مرة أخرى العروس الذي تريد أن تتزوج به في شخص ولد بطال هو ابن مؤذن المسجد. وما أن خاطبه والده في الموضوع حتى قبل واشترط أن تكون مصاريف العرس ومعيشتهما بعد العرس على حساب والدها. ولم يجد

المشارط بدا من القبول هذه المرة لأن المخطوب ليس من تلاميذه ولأن البنت يعيبها ما يعيب المطلقات.

وبعد أسابيع قليلة ساءت العشرة بين الزوجي،ن وكان الزوج لا يتردد في تأديبها بالضرب كلما أظهرت بعض عوائدها الطائشة أو رفضت أن تذعن لأوامره في تعلم ما على الزوجة أن تحسنه من الخدمات. وكلما رأى والدها محل الضرب على بدنها تألم وبكى، ولكنها كانت شديدة التعلق به وإن كانت عاجزة عن إطاعة أوامره.

لم يطق المشارط الاستمرار على تلك الحال من مشاهدة بنته وهي تتعذب، وأهل القرية يتضايقون من بقائه في حال غير مناسبة لمقامه، فقرر تغيير مكان شرطه. لكن البنت رفضت أن يرحل والدها دون أن ترافقه، فلم يكن لها بد من الطلاق.

عاد الأب بابنته إلى أهله عسى أن يستريح من المحن بعض الوقت قبل البحث عن التزام جديد مع قبيلة أخرى. لكن ملالة لم تطق حياة المراقبة التي يفرضها عليها الأقارب، فكانت تتحداهم وتجر عليهم الفضائح.

وبعد أن نفد ما بيد المشارط من المال سافر بحثا عن الشرط في قبائل الشمال دون أن يرضخ لتوسلات ملالة ولا بتهديداتها لا في عدم الرحيل ولا في اصطحابها معه.

وبعد أيام قليلة بات بالقرية ركب من التجار كانوا متوجهين من الحوز إلى سلا، فتآمرت ملالة مع أحدهم خفية على أن يخفيها بين أحماله وبضائعه، ووصل بها إلى سلا، وبعد أيام رحل وتركها، فكشرت لها المدينة عن أنيابها، واستسلمت مكرهة لمتاهات عدم القدرة على الاختيار، حتى نسيت من أين أتت مادامت لا تستطيع العودة.

28

كبيرة، بنت إسكافي من مدينة أزمور، ذات اعتدال في القوام وملاحة في القسمات وقوة في اللواحظ، فكانت منذ التفاتها لذاتها في بداية الشباب تحسب نفسها بلقيس الزمان، جديرة بمدح كل صواحب أمها، مرشحة لأن تعرس بكبير من ذوي الجاه أو بأحد أصحاب الأمير أو أقربائه.

إذا ذهبت تستقي تأخرت عن رفيقاتها وانتظرت حتى تهدأ صفحة البركة لتنظر فيها إلى وجهها طويلا وهي تتملى متخذة مختلف الأوضاع، مرة تطلق تباشيرها ومرة تكشر ومرة تبتسم ومرة تتجهم حتى إنها قد تخيب قسماتها وتعيد تعديلها كما لو كانت تريد أن تبرهن على أنها تستطيع أن تنتصر بحسنها على كل عياب. تود لو انشطرت شخصين حتى يستمتع أحدهما بالآخر، من أمام ومن خلف، دون كلل ولا ملل. تغار على وجهها من الشمس وعلى خصلات شعرها من الريح وعلى رجلها من الماء، ولم تقتنع يوما بأن تجميل أصابعها يحتاج إلى الحناء. لا تنفك تحملق في صويحباتها لتعاير ما لديها بما لديهن عينا بعين وحاجبا بحاجب وقدا بقد وأنفا بأنف. فلو وجدت لدى حسناء كل كمال، لقالت : نعم غير أن أذني لم توهب مثل رقتها ومناسبتها للثغر والوجه بنت حواء. تشعر أن أمها إذا تجلت في محفل سيعرفها الجميع ويلحظها لأنها أم فلانة، وأن أباها وإن كان يقضي يومه في خرز أحذية الرعاة والفلاحين وتزكم أنفه روائح الجلود، يحق له أن يفخر على العلية ويتميز عنهم ببنته الحسناء. وهي على كل حال أمل والديها الوحيد في أن يكون لهم يوما مّا ذكر وظهور بين الناس.

تقدم لخطبتها يوما ولد إسكافي، أبوه من طائفة أبيها، فغضبت وشتمت واعتبرت تلك الخطبة مكيدة ضدها، ولم تقبل أن يشيع خبرها. وتقدم يطلبها للزواج ابن صاحب دار للنسيج والطراز فنصحته بأن يداوم على فتل الخيوط لأبيه إلى أن يجد المخطوبة التي يمكن أن تقبل عليه وتواتيه. وترجت أم الخاطب في عدم إشاعة خبر الخطبة أصلا.

وتقدم لخطبتها شاب والده حواء يجمع الأفاعي ويدعي الاستناد إلى ولي وهبه الاعتقاد فيه مناعة من سم الثعابين. وهو يجمع من عرض الأفاعي للفرجة في الأسواق ومن مداواة المخدوشين مالا غير مظنون تحصيله من ذلك الفن ولا من صناعة باليد. لكن أم كبيرة هي التي كفت بنتها مؤونة الرد هذه المرة، وكان ردا عنيفا بالرفض بلغ حد التشاجر وتبادل الشتائم مع أم الخطيب، فإذا بقصة كبيرة بنت الإسكافي، البنت المتكبرة التي ترد الخطاب وتكسف الآباء والأمهات وتضرب بالأعراف والعوائد عرض الحائط، لا لشيء إلا لأنها مغرورة ومتكبرة، قد صارت حديث الوارد والصادر في بلد أزمور.

مرت سنوات لم تجعل الناس ينسون قصة كبيرة في رد الخطاب ولم تأت لها بالفارس المنتظر من ذوي الأقدار ممن يعرف أن يحمد للطبيعة كرمها في تسوية خلقة بنت إسكافي، وممن يجد في جمالها ما يبرر له أن يغمض عينيه عن أصلها وقدر أهلها وجهلها بمتطلبات القيام بدور العروس في دار من دور النبلاء أو الرؤساء.

كل يوم يمر كان يقرب كبيرة من التعنس إلى الأبد، حتى صارت تنعت من بنات الحي ونسائه بأنها "الكبيرة عن الزواج". وحزن لذلك الوالدان وهي وحيدتهما، وزاد نكدهما لما صارت تظهر عليها أعراض مرض وصف بأنه مس الجن، وفسر بعض

الناس ذلك المرض بقولهم : إن سلطانا من الجن تعشقها منذ صغرها لحسنها وهو الذي عاكس كل حظوظها في الزواج، وهي اليوم عروسه يتلبس بها بين الحين والحين.

وجدت الأم في هذا التأويل بعض العزاء، وحتى الأب صار يغمغم به ولا يفصح إذا سأله الناس، ولكن تعريس البنت بملك من ملوك الجن لم يعف الأب من استدعاء المشاهير من أهل التمائم والرقى بقصد صرعها وتخليصها من الساكن فيها. كان الأب يبذل في ذلك المال والوقت والجهد، ولم يعفه أيضا من التطواف بها لزيارة الأولياء وقضاء الليالي بجوار أضرحتهم.

وفي أيام إبلال كبيرة من المس الذي يغشاها كان كل شيء حولها ينكأ جرحها، كلمة من أمها تحسبها انتقادا لحالها وكأنها المسئولة عنه، سماع أصوات جوقة أو زغاريد مما يصاحب مواكب الخطوبات والأعراس وأفراح العائلات، خبر تقذفه إليهم جارة تتعلل بطلب شيء من الملح أو الخميرة لتذكر أنها حضرت عقيقة عند خطيبها الأول أو زفافا أقيم لخطيبها الثاني أو الثالث.

كل ذلك جعل كبيرة تنفر من ذاتها، بل وتفكر في الانتقام منها، فهي تحس بأتون الرغبة في ذلك ينبعث بشدة من أعماقها، وتخامرها أوهام تفقدها رشدها وتنزع بها إلى الاستخفاف بكل العواقب.

قر عزمها على أن تجد حلا لمشكلتها خارج هذه المدينة الشقية التي أحرقت بلا شفقة كل آمالها وتبخرت فيها كل أحلامها، وعاقبتها، ظلما، على كونها اعتزت بشيء ليس متاحا لكل الناس وهو جمالها.

كانت كبيرة تدير هذه الأفكار في رأسها في كل ظهيرة وهي تطل من شرفة دارها التي تشرف من فوق الجرف العالي المطل على مصب نهر أزمور. ومن كثرة ملازمتها لهذا المرصد حفظت

حركات السفن الداخلة إلى النهر لوسق البضائع أو إفراغها أو الراجعة بالصيد أو الباحثة عن سمك الشابل في فصله داخل الوادي. ومن الاهتمام بالداخلين والخارجين من رؤساء السفن العاملين عليها صارت تعرف من منهم البلدي ومن هو من الأجانب، وكانت تعرف بأعلامها الفلك التي من مدن أخرى ولاسيما سفن سلا لكثرتها. صبت كبيرة اهتمامها على هذه المراكب السلاوية ورصدت من بينها سفينة متوسطة الحجم من تلك الزوارق البارزة الأنف التي تباهى بابتكارها دار الصناعة بسلا. وكانت تلك السفينة كلما دخلت من البحر وقف في مقدمتها رئيسها وهو شديد طول القامة مفتول العضلات تنعكس على حنكيه الملوحين المائلين إلى السمرة أشعة الشمس كما تنعكس على المرايا المتحركة. كان كالصاري الذي يوازن بثقله وانتصابه اعتدال السفينة، يقف منتصبا كما لو كان في معركة يحرية، على رأسه شد أزرق وكتفاه عريضان عاريان، ليس عليه من اللباس سوى صدرية من جلد وسراويل مائلة إلى الصفرة. تتصور كبيرة أن ساقيه محفوظان في تلك الأحذية الجلدية التي تربط بخيط طويل من جلد البقر وتصنع خصيصا للملاحين.

راقبته كبيرة دون غيره أسابيع طويلة ونسجت في خيالها قصة كاملة بارتباط مع هذا الرجل الذي لا تعرفه، وفكرت أن تتعجل في تحقيق تلك القصة لأنه قد يختفي تماما عن أنظارها إذا حول وجهته الأسبوعية نحو مرفأ آخر. فهي لا تشك في كونه لاحظ وجودها في تلك الشرفة من جملة ما يزين تلك الشرفات المليئة بالأزهار التي تتحمل رطوبة النهر وملوحة الماء. وهو لاشك يستطيع لو أراد أن يعرف الزقاق الذي عليه دارها، بل والدار نفسها مادام يبيت ليلة بأزمور، وهو يتردد عليها ولاشك لعدد من السنين.

وفي اليوم المعلوم من الأسبوع ذات مرة، وفي الوقت المعتاد من ذلك اليوم بدا إهاب السفينة يدافع الموج في مدخل النهر، وأغلقت كبيرة منَ خلفها باب الغرفة التي عليها الشرفة وأخرجت المنديل الأبيض الذي أعدته لعلامة التحية وتوارت قليلا حتى لا يرى تلويحها أحد من شرفات الجيران. ولما تأكدت أنه الشخص نفسه قاومت ارتباكها وبدأت تشير بالمنديل، ورأت الملاح ينتبه لذلك التلويح ولا يرد عليه، وهي تعلم أنه لا يمكن أن يفعل لأن عيونا كثيرة تطل على هذا المدخل من أعلى الشرفات، وقد يعرض نفسه لو فعل لما لا تحمد عقباه، ولكنها تيقنت أنه رأى التي تحرك المنديل وأنه عرف فيها تلك المرأة التي كانت تجلس دوما في الشرفة ولا تلوح، وأنه أراد أن يشعرها بأنه انتبه لتحيتها أو لرسالتها على الأصح، فظل يلتفت إلى أن اختفت سفينته بعد المنعرج الذي ترسو وراءه السفن ويحميها من الرياح.

وقبيل شروق الشمس من صبيحة الغد، وهو موعد خروج السفينة السلاوية، كانت كبيرة في الشرفة تلوح بمنديلها. كان البحار في ذات الموقع في مقدمة سفينته، ولكنه هذه المرة بقي ينظر في اتجاه الشرفة حتى خرجت سفينته من المصب ودارت يمينا بمحاذاة الساحل في اتجاه الشمال.

وفي الأسبوع الموالي تجدد ذلك الموعد عند دخول السفينة إلى المرسى، ولم تعد كبيرة تشك في أنها بلغت رسالتها وبقيت تنتظر الرد وهي تتخوف من أن تستمر تلك اللعبة وتتجدد خيبتها في تحقيق أي خلاص.

وبين العشاءين من ذلك اليوم دق باب دار كبيرة، وفتحت، وكان والدها ما يزال في الجامع، فإذا بامرأة تقول لها : لقد كلفني بحار يحمل بريدا من قريب لكم بالأندلس أن أبلغكم أنه

نازل في فندق الغرباء، وإذا شئتم أن تستلموا منه البريد فأرسلوا من يفعل ذلك قبيل فجر الغد موعد رحيله. فأجابت كبيرة : نعم ليس لدينا أحد من الأندلس، ثم تداركت وأردفت بصوت خافت: ولكن، قولي له.. قولي سيأتي من يأخذ هذا البريد في الوقت المعين.

تنكرت الكبيرة قبل الفجر في جلباب صوف لوالدها لتضليل البياتين وعسس المرسى، ووجدت على مقربة من فندق الغرباء عبدا سودانيا لا تخفي حالته أنه من البحارين بوجود خرصة متميزة الشكل في أذنه، واقتربت لتسأله، فإذا هو من طاقم تلك السفينة، ولما تأكد أنها تطلب بريد الأندلس، أخذ بيدها حتى توارت في ركن عن نور فنار الزقاق وبسط من تحت إبطه كيسا من الكتان وأشار إليها أن تدخل فيه، وحمل الكيس فوق ظهره وهرول تحت جناح الظلام، وسمعته يتوقف ويتحدث إلى أشخاص لعلهم العسس، ثم تقدم فإذا به يمشي فوق أخشاب وينزل درجات، وأخيرا يضع الكيس برفق وتخرج منه، فإذا بها في طارمة السفينة. جلست ترتعد من الانفعال الذي يمتزج فيه الخوف بانتظار مفاجأة مفرحة.

بقيت جالسة والسفينة تتمايل بها في السير، تسمع الأصوات ولا يأتيها أحد لعدة ساعات.

فتح عليها الباب رجل أسمر لعله ذلك الذي حملها في الكيس إلى السفينة، فتبسم لها وسألها عن حالها ووضع أمامها أكلا وشربا، وتوارى ورد خلفه الباب. وبعد ساعات جاءها ثانية وسحب الماعون وأشار إليها لتخرج حتى ترى مكانا يمكن أن تجد فيه الماء إذا أرادت أن تتوضأ.

مضى يوم كامل والسفينة تتقدم. شعرت كبيرة في رأسها بدوار خفيف، وهي قلقة لأنها لم تر بعد الرجل الذي تحسب أنه

المستجيب لتلويحاتها بالمنديل، وغامرها لحظة وسواس في أن تكون ضحية مكيدة اختطاف سيفضي بها إلى استرقاق دبره شخص تتبع حركاتها وعرف قصتها ومرادها من الفرار من بلدتها. غير أنها رأت من جديد ذلك العبد الملاح يأتي ليشعل مَنارا مثبتا في جدار الطرمة ليبدد الظلام، وما أن خرج حتى دخل عليها الشخص الذي كانت تلوح له وتعرف قامته وإجمال ملامحه حتى إنها كانت تراه في المنام. بادرها بالسلام وخاطبها باسمها ثم أخبرها بأنه كلف منذ الأسبوع الماضي من يتعرف على دارها ويقرر له قصتها، وأنه دفع لذلك ثمنا، وأنه يظن أنه يفعل خيرا لما أراحها وأراح والديها من شقائهما بها، ثم سألها : إلى أين تتوجهين ؟ وأضاف بقساوة : سأنزلك في وسط سلا في ذلك الكيس الذي خرجت فيه من أزمور، وعليك أن تنسي قصة رحيلك ومن أعانك عليه إلى الأبد وإلا فإن الملاح الذي رأيته لن يرتكب ذنبا إذا قطع لسانك في أي مكان تظنين أنك آمنة فيه. ولو كنت أنا مسلما مثلك لخطبتك من أبيك، ولكنني علج من نصارى غرب الأندلس، وهوة الدين تفصل بيننا، وإن كنت في الحقيقة بعد ثلاثين عاما من العيش في البحر لم أعد أعطي لهذه الحدود أهمية كبرى. قولي الآن إلى أي وجهة تقصدين ؟

فوجئت كبيرة وارتاعت مما سمعت وتحققت أن هذا الرجل الطيب أراد أن يحسن إليها ولكنه فظ غطريس لن يلبث أن يتخلص منها، فهو ليس ذلك المنقذ الذي اختزلت تصوره في اندفاع، لأن أي خلاص سعيد لا يمكن أن يأتي لها بهذه السهولة، وقد سكتت وهمت أن تقبل يده شاكرة، فردها إلى مكانها بيده القوية، كانت أول يد أجنبي تلمسها لا لتضمها كما تخيلت بل لتدفعها إلى الوراء. تراجعت واحتقن وجهها وتلبدت

سحب حزنها وأمطرت بغزارة وهو ينظر إليها. وبعد حين تركها وخرج ورد من خلفه الباب.

سمعت كبيرة ضحكات وصخبا في الفضاء المجاور يصدر عن رجال لا تدري إذا كان رئيس السفينة من بينهم، واختنقت مسالك تفكيرها فقعدت صماء ذاهلة النظر فوق سفينة تغالب الموج في اتجاه سلا، وهي لا تدري كيف ترد على جواب مهربها. وبعد حين داهمتها الأسئلة من جديد، هل ينبغي لها أن تتوسل إليه في أن يسعفها في طلب مًا ؟ وهل ستنزل بمجرد وصول السفينة وتنساه وتنسى سفينته إلى الأبد ؟ وإلى أي الناس يكون ملجؤها ؟ وهل أثار أمر الزواج بهذه السهولة لكي يصرفها عن كل خيال مثل الذي دفعها إلى هذه المغامرة ؟ وهل هو وقور إلى هذا الحد فيطلب منها البقاء في جبة الصوف خوفا عليها من برد البحر ؟ وهل ستقوم المرأة التي توسطت في تهريبها بنشر قصتها في مدينة أزمور ؟ وهل سيترتب عن ذلك ملاحقة والدها لرئيس السفينة وبحثه عن طريقها هي حتى يقف على أثرها في سلا ؟

استسلمت للنوم في منتصف الليل ولم تستيقظ إلا على حرارة النهار والرطوبة تخنق أنفاسها. وجدت طعاما للفطور عند قدميها أكلت منه بعد أن عادت من وضوئها.

جاء رئيس السفينة ووقف أمامها لتراه لأول مرة على مسافة أقدام منها في واضحة النهار، خارت قواها وكادت تذهب مهجتها أمام ذكورة هذا الرجل الذي أعاد لها في صوت كاد يذيب قلبها نفس سؤاله بالأمس : أين ستتجهين بعد وصولنا إلى سلا ؟ فما تمالكت أمام جفائه القاتل أن أجابت : افعل بي ما تريد. عند سماع هذا الجواب انصرف الرجل وهو يقول لكبيرة : ارتدي جبة والدك فإن رياح البحر لن تلبث أن تعود قارسة.

وصلت السفينة ليلا إلى سلا ولم تدخل المرسى، بل وقفت قريبا من الساحل الشمالي لمدخل النهر وأنزل البحارون قاربا صغيرا منها وتقدم العبد الملاح من كبيرة وفتح أمامها ذات الكيس وألبسه إياها هذه المرة وقد خرق فيه فتحة في الصدر لتتنفس منها فحمل الكيس من الطرف الذي به رجلاها وأنزلها مع ملاح آخر في القارب وأوصلاها إلى البر ورجع الملاح الآخر بالقارب، وحملها نفس الشخص إلى أن أدخلها بيتا تسكنه عجوز وجدها تستضيء بقنديل وتطبخ دشيشا لعشائها فوق كانون.

انصرف الرجل بعد أن همس للمرأة بكلمات وبعد أن وضع الكيس برفق وسحبه عن كبيرة. ظنت كبيرة أن المرأة خادمة لرئيس السفينة أو من ثقته التي يمكن أن يودع عندها أمانة ريثما يتسنى له العودة إليها.

فاجأتها المرأة العجوز بعبارات أسف وشفقة، ولم تسألها من أين أتت ولا إلى أين هي ذاهبة، وإنما أخبرتها بأنها ساكنة في المقبرة الواقعة تحت الأسوار جهة البحر، وأن كبيرة تستطيع أن تقضي عندها الليلة إلى أن تفتح أبواب المدينة في الصباح، سيما وأن الرجل الذي أتى بها قد أدى لها درهما صغيرا على ذلك المبيت.

فهمت كبيرة أن ما لم يخطر على بالها هو ما وقع، فبعد أن لقيت رجلا يستطيع أن تعبر له لو تقبلها عن أعنف ما تستطيع أن تنطق به الحياة، هاهو ذا يلقي بها في مقبرة ويقطع كل حبل تخيلت أن يصله بها. وغدا ستلتهمها مدينة تعج برجال ليسوا بمثل ضعف هذا البحار يخافون الله أو القانون، وليسوا بمثل قوته حتى يفهموا تلويحاتها ويرعووا أمام فتنتها لو قالت لأي منهم : افعل بي ما تشاء. ما أن تمثل لها مصيرها حتى داهمت جسدها قشعريرة تلاها عرق بارد، وأحست بعدها كبيرة

أنها نفسها صارت من خشب، حققت ذلك المسخ في نفسـها لكـي تنتقم بالطريقة الممكنة لها، تخلت عن جلد امـرأة تريـد أن تـأخذ وتعطي واستبدلت به جلد هيكل محنط جاف من كل عطـاء، وقـد لا يضيره أن يؤخذ منه أخذ غصب أو شراء.

رقوش، كانت في صغرها بنتا مليحة في قرية كبيرة من قرى شرقي تامسنا. بلد خصب وافر وفروسية وصحة أجساد لدى الرجال والنساء. والدها ممن لا يملكون أطيانا، ولكنه مزارع يكتري بالربع ويفخر بأبنائه وبناته الذين صنعوا شهرته حتى صار الملاكون يعرضون عليه الشركة في استثمار ضيعاتهم. لمثل هذا يصلح الأولاد والبنات، وقلما يختص الذكور بشغل من أشغال الحرث وجمع المحصول، بل يشاركهم الإناث ويزدن عليهم بأشغال الدار وتربية الأولاد وبعض أعمال الحقول كاقتلاع الأعشاب الضارة بالمزروعات.

شاركت رقوش منذ نعومة أظفارها في الأشغال التي جعلت من والدها ذلك المزارع المشهور، ونشأت هذه البنت ماهرة في ركوب جميع أنواع الحيوان، الحمير حين إخراج الغبار أو نقل كل ما يوصل إلى الحقول أو يجمع منها، والبغال التي تحرن لغيرها تكون لها دلولا طيعة، والخيل تركبه وتسابق الرياح حتى صارت مضرب المثل عند فرسان الرجال. تركبها ملطاء بلا سروج ولا تحتاج في تحريضها أن تؤذيها بمهماز، وتذعن لها الفرسات على الخصوص. وحتى التيران الهائجة عند سماع طائر يثير شبقها في الربيع، تطوع لرقوش وتنقاد لها بإشارة أو صيحة.

لم تكن رقوش منذ صغرها تحتاج إلى من يرفعها أو يدعمها لتمتطي صهوة جواد أو على ظهر بغل أو حمار. ولم تكن تبحث عن مرتفعات تقربها لمتن تعتليه، بل كانت تقفز قفزة واحدة فإذا هي قد استوت فوق ركوبها، تتمدد على سيسائها وتقودها من لبتها ولا تحتاج فيها إلى لجام.

شبت رقوش وظهرت كقطب رحى في دار أبيها، تسير كل شيء وتحسن تدبيره ولا ينفرد عنها أبوها وإخوتها الكبار في شيء إلا بمفاوضة أهل الأطيان قبل فصل كل حرث.

مع تقدم رقوش في السن كان الجميع يخشى أن تتزوج ويكون في ذلك ما يشبه "خلاء الدار" أي انتقال قوة خارقة على تحريك الآخرين واستحضار مواعيد الأشغال والسهر على رأسمال العائلة ولاسيما في تعهد الحيوانات بمختلف أنواعها. ومثل رقوش من البنات يرصدهن أمهات الأولاد ويطلبنهن للزواج بالأبناء حتى قبل البلوغ لما في ضمهن من الربح للأسر وتقويتها على تدبير المعاش والزيادة في المال.

كانت رقوش قد تجاوزت سن البلوغ بسنتين لا غير عندما طلبها للزواج بابنه الأكبر أحد أعيان القبيلة ممن يعطي الأطيان في شركة الحرث لوالدها. وكان في هذه الخطبة اعتزاز الطرفين معا، لأن هذه البنت اشتهرت بمزاياها وبعنفوان صحتها، فلا أحد يستطيع أن يعيب على صاحب الأطيان انه انحدر لما خطب بنت المزارع بالأرباع لأن هذا قد تمول هو أيضا لاسيما في السنين الأخيرة.

وكان الاستعداد للعرس بهالته في الخريف، وأنفقت فيه مبالغ من الدراهم لتجهيز العروس وكسوة جميع من في الدارين والأقارب وتجديد فراش وماعون وعدة من مذبوحات البقر والغنم ودقيق القمح وأنواع الإدام، حتى يروق العرس الحاضرين من أعيان القبائل التي تتعارف ويجمعها التباهي وتلتقي في السوق الكبير.

وباقتراب يوم العرس زادت الكآبة لدى عائلة رقوش ولدى أمها على الخصوص بسبب أمر يعرفونه ولا يذكره أحد، كما لو أنهم كانوا يستقبلون يوم الحساب، فرقوش التي كانت تمثل العفة

بكل معانيها ستوزن بذلك الميزان الواهي الذي تفرضه التقاليد وتضخم مغزاه وتختزل إليه حياة عفة حتى إن عدم الرجحان فيه قد يتسبب في كوارث وخيمة العواقب التي من جملتها التشهير والمطالبة برد المصاريف وإلصاق وصمة الاستهتار بالبنت وأهلها.

أما أهل العريس فقد اتخذوا مظهر العنف المعتاد في معاملة أهل العروس منذ قبول هؤلاء لتلك المصاهرة، كل يعبر عن هذا العنف بطريقته من كبار وصغار، وآخر مظاهره ما كان عليه الوفد الذي جاء لحمل العروس من إظهار القساوة في التعبير والسلوك وكأنهم في عملية حرب وغصب عدوانية.

ووصلت العروس، وبعد دقائق قال أهل عريسها إنها غير جديرة بأن تدخل في جذمهم وحمايتهم، وانقضى ما بقي من وقت الحفل في فتور، وكان أكثر الناس مفاجأة بما قيل رقوش نفسها لأنها لم تفهم كيف يكون الذي يكون وكيف يقع أن لا يكون.

لم تكن تحب سوى ركوب صهوات الخيل وإرضاء والدها بالخدمات، ولو ظلت على ذلك طول حياتها لما شعرت بالحاجة إلى شيء آخر ليكمل سعادتها. لكن من الذي يصدقها أو يكف الألسنة عن لوك سيرتها والافتراء عليها.

رجعت رقوش بعد أيام إلى دار أمها، وتبين لها أن لا أحد يطلب خدماتها، الأب يتجنب رؤيتها والأم تثقل عيناها بالدمع وتبحث عن مخابئ لتفرغه بعيدا عن نظر بنتها، والإخوان يهمون بأن يدعوها أن تغادر إلى غير رجعة، والأخوات يرسلن إليها نظرات الازدراء، ولم يعدن يشركنها في أمر سر أو علن، كل شيء حولها انهار وهي تعرف أنها لم تقترف ذنبا ولا عصت ربا.

خرج والدها وأولاده إلى السوق ليلا وغطت الأم والبنات بعد خروجهم في النوم. وتسللت هي من مكان فركبت جوادا وأخذت طريق الشمال إلى أن بلغت النهر وحادت إلى جهة الساحل وهي

ماهرة في الركوب وفي تفادي لقاء السابلة على الطريق إلى أن بلغت بعد يومين أسوار سلا. ودخلت القرية التي تحت السور بعد أن سرحت الجواد وأهملته، ولم تفكر بعد ذلك في أن تحفظ شيئا أو تتحرج في شيء حتى تعيش، أي عيش، بعيدا عن أهلها بعد أن حال بينها وبينهم موج عات كالجبال.

30

مماس. استقر أهلها وهي صبية ببلدة تفلفلت علـى الطريـق مـن سـلا إلى مكنـاس بعـد حيـاة طويلـة مـن النجعـة ورثوهـا عـن أجدادهم. كان يأتي إلى خيمتهم رجل مـن عسـكر السـلطان، كـان من جملة حامية الطريق. وكان يتقرب إلى الأهل بنسبة بين أهلهـا وأهلـه في مواطـن النجعـة بأعـالي وادي ملويـة، ويتـودد إليهـم باستعمال نفس لغتهم، وحفظ نفس الأنغام التي تطربهـم والأشـعار التي تمجد أجدادهم وتؤثر في وجدانهم.

كان يزورهم مرة في الشـهر، ثـم صـار يزورهـم كـل خميـس ليسهر معهم الليل في الطرب بالضرب على البندير والنفخ في الناي وغناء يكون فيه الأب وابنه الطفل وزائرهم صوتـا رجاليا تحاذيـه وتعارضه الأم والبنت وأختها الصغيرة بصوت نسوي رخيم. كـانت أصواتا من أصوات الحماسة والحنـان والصبابـة في آن واحـد، وفي غمرتها يباح للشابين أن يبادلا من الكلام ما يعبر عن أغراضهمـا، فيردد معهما والداها لازمة الشعر وكأن الشعر ساحة حرة مقدسة لا رقابة عليها، وكأن سلطة الأعراف ومواضعـات الحشـمة لا تجـوز عليه.

وبعد شهور صار خفير الطريق يأتي كل يوم ويبيـت، يـأتي ومعه ميرة وكأنه من جملة أهـل الـدار، ودون إقامـة أي طقـس أو إحضـار أي شـهود صـار العسـكري يعتبر البيـت بيتـه وممـاس زوجته، ووافق على ذلك دون اعـتراض أو تسـاؤل أهلهـا تكريسـا لواقع لم يستشارا في إبرامـه يـوم وقـع، ولعـل ممـاس وزوجهـا لم يفكرا في الأمر هما أيضا ولم يتذاكرا في تفاصيله وملابساته وآفاقـه. كذلك فهم الأبوان وكذلك وقع بالفعل. فما الفائدة من أي مماحكة أو فرك شيء يخاف عليه أن يفرط ويتناثر.

ليس ذلك بدعا أو أمرا مستغربا في حياة هؤلاء الرحل، فكتب العقود عندهم ليس شرطا، وكتابها قلة تصادف في بعض المواسم والأسواق، ورقباء الشرع لا يلزمونهم برسوم الأمور تأليفا لهم، وتبادل النساء بين الجماعات يتم بصدفة الملتقيات الموسمية والمنتجعات، والوفاء عندهم قيمة تعليها الذاكرة وتحاسب عليها، وفسخ الروابط لا تسبقه زوابع الغضب ولا تتلوه أعاصير الخيبة والانتكاس.

عندما تبين أن مماس تنتظر ولدا قرر أبواها الذهاب بها لزيارة ضريح الشيخ أبي يعزى بتاغيا، ورافقهم زوج مماس بعد أن أجازه قائد حامية الطريق. وكانت رحلة بورك فيها كل شيء.

ولد الولد وسموه أمناي أي الفارس، قبل أن يستكمل عاما جاء الأمر بانتقال أبيه إلى حامية طريق ممر تازة. عاد بعد ثلاثة أشهر ليزور مماس وأمناي وأخبرها أن ظروفه هناك لا تسعف بصحتبهما للإقامة معه. والإشاعة تقول إن تلك الحامية ستنشطر قريبا ويذهب نصف عدد من فيها لحراسة طريق سجلماسة. غادر الحارس بلدة تفلفلت ومماس تبكي من ورائه وهي مردفة ولدها على الظهر، ولم تعد إلا من مسافة بعيدة،ولما رأته لم يعد يلتفت إليها ويبتعد رمته بحجر، ثم ارتمت على الأرض وارتطم عليها الولد وهو يبكي. وكان الفراق فراق طلاق.

تزوجت مماس بعد أقل من عام برجل يكبرها بكثير، فكرهته ونبذته. وتزوجت بعده مرات ومرات حتى جاوزت عشر زيجات، وهي لا تجد للزواج نكهته الأولى مع الذي أعطاها أمناي. وكان آخر أزواجها شاب يصغرها بعشر سنين قررت أن تبقى في عشرته لأنه يحسن الغناء ويماشيها في كثير من الأذواق، غير أنه اعتدى بالضرب يوما على ولدها أمناي، وكان أمناي في سنه العاشرة في غاية الجسارة والطيش، فغضبت لذلك مماس

وأسرت أن تفصم عرى عشرتها مع ذلك الزوج عن قريب. وكانت مناسبة الأيام السابقة لعيد الأضحى، حيث يذهب أهل تفلفلت بأكباشهم لبيعها أضحيات للسلاويين وغيرهم من أهل تلك الجهة. فأصرت مماس على أن ترافق زوجها لتحرس معه الأغنام وتعين أهله على الإقامة هناك أيام السوق. وفي اليوم الثاني من احتدام البيع ونفاق سوق الأكباش تسللت مماس من خيمة أهل الزوج خفية منهم ودخلت في زحام السوق في جهة تباع فيها أمور أخرى غير الأكباش، وانحنت على بعض عجائز النساء البائعات للسواك حتى علمت من أين يوصل إلى أقرب باب للمدينة، فتابعت طريقها وولجت ذلك العالم الذي كانت تسمع به ولم تره، والتهمتها الحياة هناك وهي تصر على أمر واحد ولا تبالي بغيره من أحوال العيش وطرقه، تصر على ألا يكون لأحد عليها دالة بحيث يسمح لنفسه بأن يعتدي بالضرب على ولدها أمناي فهو النبض الذي تمتد فيه حياتها، وهو ذكراها الثمينة من متخل عنها كانت تحبه لم يسعدها أحد بعده مثلما أسعدها، وهي تقبل أن تبيع كل شيء لكي تشتري لأمناي حقه في الجسارة والوقاحة والطيش وتحلم بأن يدرك إذا كبر شأنا يمكنه من إمضاء أنواع القهر على الرجال.

31

لم يكن يهم المدينة أن تعرف قصة كل واحدة من هؤلاء النساء ومن في حكمهن ممن يسكن فنادق ذهب عنها مجدها في التجارة أو حارات الزمنى والمعطوبين أو أحياء قذرة يجاورن فيها من لا نفوذ له في دفعهن. لم يكن يفيد المدينة أن تعلم تلك القصص لأنها على كل حال لن تغير رأيها فيهن أو تخفف حكمها القاسي عليهن أو تقلل اهتمامها بهن كذلك. فهن معروفات متجاهلات يتندر بأخبارهن حتى في مجالس المتذرعين بمظاهر الورع، ولو أتاح الحاكم للعامة أن تقيم لهن موقدا جماعيا لأحالوهن إلى رماد وسط جمع مائج تعلوه التهاليل ويكشر فيه عن أنياب وتنتفخ فيه الأوداج ويخرج الزبد من الأفواه وتجحظ الأعين وتشبع الغرائز الوحشية بتأجيج وقود النار. ولو أتيح لأي كان من الأعيان والعلية أن يتخذ واحدة منهن خليلة لباع في ذلك مجده ولاستساغ ذلك الزواج بأنواع التبرير الذي يسمح به تأويل العرف أو الشرع. فهن ماهرات في المعاشرة بأساليب اللطف التي يوصي بها الشرع الصحيح، ولاشيء في هذا الباب يمنع أن يتخذن معلمات مرشدات في فنون الزواج لكثير من بئيسات ربات البيوت.

قرر العامل جرمون أن يجمع مختارات من أولئك النساء في فندق الزيت بعد أن كانت قراراته الخرقاء سببا في هجرة التجار منه. فهو يعلم من صاحب شرطته أنهن يستطعن أداء الأكرية وأداء مقابل الحماية وأنواع أخرى من العناية، أجرا لن يقل إلا قليلا عما كانت تدره التجارة من واجبات المكوس، وهو القدر الذي يرسله كل شهر إلى حضرة فاس واضطر إلى اقتطاعه من ماله منذ عدة شهور.

انتشر الخبر من دار العامل وعظم بذلك الاستياء في المدينة وتحرك وفد من الفقهاء لزيارة العامل محاولة لرده عن تنفيذ مشاريعه بخصوص فندق الزيت. وقد لفت رئيس الوفد انتباهه إلى ما في تأسيس ذلك الأمر من الإضرار بسمعة المدينة لأن قاذورات مجموعة ليست كقاذورات مبعثرة. ولأن جباية الحضرة لا يسوغ أن تدخلها مكوس وإن دخلتها فلا يجوز أن تأتي من جهة المحظور.

خاف جرمون أن يرفع هؤلاء المحتجون تظلما بغير علمه إلى السلطان، فتوقف عن كراء باقي حوانيت الفندق لهذا الصنف من السكان واقتصر على التي نصبها عريفة ليأتمر النساء بأمرها وهي تودة وصنيعتها خوليا بنت بيدرو وهؤلاء الست المنحدرات من عدة آفاق وخمس أخريات جاء بهن العامل أسيرات من قبيلة شارك فرسان سلا في خروج الجيش لحملها على أداء الدين الذي عليها من الجباية، فهرب الرجال أمام الجيش وتركوا النساء وراءهم، وتجرأ جرمون على أسر بعضهن لهذه الغاية وهي في إسكانهن بفندق الزيت.

كلف العامل عونه الذي اسمه جعران باستخلاص الكراء وغيره من الفروض على النساء، وما لبث الساكنات أن تعودن على الائتمار بأوامره التي تأتيهن بواسطة عريفتهن تودة. ولإحكام قبضته وقبضتها عليهن، تعمدت تودة استفزاز مماس أم الولد الجسور، فتعاركت معها بالأيدي وتخانقتا، وتدخل جعران والبواب وجاء العسس، فسيق كل من بالفندق إلى دار العامل ماعدا شامة وزوجها وأبا موسى. وهنالك نحي الولد إلى مكان بعيد حيث صفع وضرب على أيدي بعض الأعوان، وجلدت أمه أمام النساء خمس عشرة جلدة كتنبيه للجميع على وجوب الإذعان لأوامر تودة المكلفة.

وفي غضون أسابيع أُسكنت الغرف والمخازن الأخرى في الفندق ببعض العطارين وباعة مختلف العقاقير وبرجال من الملاحين والعساكر العزاب بل وحتى من كتاب التمائم والعرافين.

بعد أن صار الفندق إلى ما صار إليه توقفت شامة عن الذهاب على معتادها كل يوم إلى دار الشريف لتعليم بناته ونسائه ومن يحضرن من بنات الشرفاء عددا من الفنون التي تحسنها بأجر معتبر عينه النقيب. ولكن هذا الأخير أرسل من يطلبها وألح عليها في المداومة على التردد على أهله دون اعتبار معرة كونها تسكن الفندق. وقد اغتنم الشريف هذه الفرصة ليفاتح شامة مرة أخرى في إعانتها على إيجاد سكنى لائقة بها خارج الفندق.

وأمام إلحاحه ورعيا منها لفضله اضطرت شامة إلى أن تحكي لزوجته الكبرى قصتها مع أبي موسى وكيف أن العامل دبر ذات ليلة سد باب المدينة دون زوجها وأرسل من أتى بها إليه وكيف أنه انشغل عنها بحك جلده وكيف أن زوجها الذي بات بالمغارة مع أبي موسى رآه يتسبب في ذلك الحك الذي حدث للعامل في نفس الوقت. ولذلك فهي تريد أن تبقى ما لم يكن لها ولد ساكنة حيث يسكن ذلك الرجل ولا يهمها شيء من الأمور الفظيعة التي تراها وتسمعها وتشمها وتتخطاها كل يوم وكل ليلة.

كان أمناي ولد مماس يتسبب في قدر وافر من الضوضاء الذي يقوم بالفندق. ومعظم وقته طول اليوم وقبل أن يستيقظ أحد وبعد أن ينام الكثيرون يقضيه ماشيا في ممرات مختلف الطوابق أمام الحجرات.

ومن هواياته أن يستعمل مقلاعا لا يفارقه، يقذف به الحجر في كل الاتجاهات. وقد حدثته نفسه ذات يوم أن يقذف حجرة حادة مسددة إلى طائر اللقلاق الذي هو أقدم ساكن في الفندق، صاحب العش الذي على شجرة الصفصاف القرنية، شيخ

الطير الذي أوقف عليه أجيال المحسنين جرايات مزممة في سجلات الأحباس، الظاهرة التي اشتهرت بها سلا في المدن العريقة النائية والحواضر التي تمر بها مسالك التجار في الآفاق البعيدة، سدد إليه هذا الولد الشقي حجرا فلم يخطئه، رماه فاخترقت الحجرة صدره وهوى الطائر المهيب إلى الأرض وسط الفندق ميتا.

حزن لذلك كل من هناك وكل من في المدينة بعد سماع الخبر، وحضر ناظر الأحباس وأعوانه وشهدوا في الدفتر على تلك الوفاة، وأوقفوا في ذلك التاريخ الإنفاق من حبس الطائر إلى أن يأتي طائر من جنسه يخلفه، ماعدا ما وسع إليه ذلك الإنفاق من رعاية المعطوب من سائر الأجناس الأخرى من الطير.

وجدتها تودة فرصة سانحة لتغري جعران بإخبار العامل بأن الطائر مات بجريمة ولد مماس. جاء العسس وانتزعوا الولد من أمه وحملوه إلى دار العامل، ومشت أمه خلف الذين اقتادوه إلى هناك وهي تسب وتبكي وتصرخ ولا تبالي بأحد، باتت هناك بباب السجن ليلتين. ولما أطلق سراح ولدها، فحصته فوجدت على إليتيه آثار ضرب مبرح.

وبعد أيام قليلة استيقظ من استيقظ في في الثلث الأخير من الليل بالفندق على صوت شيء ثقيل سقط في وسط أرض الفندق من أعلاه. وتبينوه على ضوء القناديل فإذا هو جثة امرأة، إنها تودة صريعة في دمائها التي سالت من أنفها وفمها وقد أسلمت الروح.

أغلق الفندق وحمل كل من كان فيه إلى السجن غير أبي موسى وشامة وزوجها، ووجد في الفندق أشخاص لم يكن يعلم بدخولهم غير جعران والبواب، واستحلبهم العامل وأطلق سراح الجميع إلا الظنينة المسكينة مماس أم أمناي، فقد قيل إن الشرطة انتزعت منها الاعتراف بالدخول على تودة في ليلة كانت فيها

تنام وحدها، وخنقتها قبل أن تلقي بهـا مـن أعلـى بنايـة الفنـدق انتقاما منها لولدها.

لم يسمع أحد بعد ذلك بخبر مماس أو بولدهـا. وقـد كلـف العامل صنيعة تودة وهي خوليا بنت بيدرو بأن تشرف علـى أمـور أولئك النساء.

32

لم يعد علي يخرج كل يوم في رفقة أبي موسى ولكـن شـامة لم تكن ترى غضاضـة في تركـه بالغرفـة عنـد خروجهـا للاشـتغال بالتعليم ببيت النقيب. ويكون عندما تخرج هي إما نائما أو عاكفا علـى تصويـر رسـوم مخرقـات في رقيـق صفـائح الخشـب يبيعهـا للجباسين تعينهم في تزويق الجدران. وفي يوم من هذه الأيـام الـتي تخلف فيها علـي عـن الخـروج مـع أبـي موسـى تركتـه شـامة في خروجها المعتاد إلى بيت الأشراف بـين الظهـر والعصـر، وحملـت معها ماعون الحمام وما يستبدل من اللباس بالذي خرجت بـه مـن الثياب، وقالت إنها قد تتأخر في الحمام إلى قبيل مغرب الشمس.

خرجت شامة من دار النقيب قبل الموعـد المعتـاد وتوجهـت للحمام الكبير قرب الجامع، فإذا بـه متعطـل ذلـك اليـوم لإصـلاح برمته، وعادت لتوها إلى فندق الزيت وهي تحسـب أن تجـد عليـا قد أفاق لتوه أو تجده لم يفق بعد من قيلولته الطويلـة. لكـن عليـا لم يكن في الغرفة، وبابها غير محكـم الإغـلاق. اسـتغربت لغيابـه لأنه لم يخبرهـا بـأن لـه أغراضـا سيخرج في قضائهـا، فـأطلت، وخرجت ثم عادت إلى البيت ثم أطلت من الأعلـى علـى حوانيـت العطارين ولا أحد أمامها في تلك الساعة. فإذا بها تـرى بابـا ربـع مشرع يُطل منه وجه امرأة من جاراتها، فإذا بها إجا تشـير إليهـا أن تقترب منها، ونسيت شامة في لحظة حيرتها تلك أنها لا تكلم هؤلاء الجارات ولا تدنو من مساكنهن، فـإذا بهـا تنتصـب أمامهـا وتسمعها هي وتشير إليها بيدها وتقول : زوجك عند بنت بلده.

لم تصدق شامة ما سمعته، ولـو لم تعتـبره افـتراء مـن هـذه المستهترة لما جرت ودفعت باب غرفة خوليا بنت بيدرو فإذا علـي هنالك في حديث يبدو أنه وصل إلى نهايته.

تراجعت شامة وهرولت حتى التحقت بغرفتها وسدت الباب من ورائها وسقطت على السرير وهي تحدث أصواتا ليست بكاءا ولا ضحكا ولا أنينا ولا شكوى، كل ما هنالك أنها لم تعد تتحكم في حواسها ولا في توجيه عقلها وجهة معينة. وفجأة وكأنما استعادت هدوءها ورشدها وطوت كل شيء صارت تقول في نفسها : وبعد، فليكن، فلتخر السماء على الأرض، ألست أحبه! فليخرج الجحيم من صرة تلك الغادرة، ألست أحبه، ومن غيري يقدر أن يحبه كما أحبه ! ولتكن طعنته لي مقابل الشوق الذي كنت أعطيه، ألست أحبه ! هل قال يوما إنه لن يفعل الذي فعل ؟ لقد خنقناه وأبعدناه عن أمه، أعند بنت جنسه شيء آخر كنا قد حرمناه منه طول هذه المدة ؟ هل كان يراها قبل اليوم على غير علم مني ؟ أليس يجوز للواحد منا أن يخطئ مرة ثم يتوب ! وهل هذه مرته الوحيدة ؟ ثم يتوب. ولكن المصيبة أن غيرنا يعلم، فهل سأطلب أخبار عقدي المنفرط عند نساء لا تثيرهن الأخبار قط ؟ فكيف وقع استدراج علي، إذا ؟ فهل قصت عليه خبر خروجي إلى العامل في ذلك الليل وصدقها ! لاشك أن هذا هو السر الذي استعملته بنت راعية الخنازير. لماذا لم يفاتحني في الأمر ويطلب مني أن أقول حقيقة ما جرى واستسمحه إن كنت كتمته الخبر رفقا بحبنا وشفقة عليه من عذاب الشك ؟ أترى كان الذي وقع برغبة منه أم بسقوط غير منتظر في حبائل هذه الشيطانة الخطيرة. لا يهم ذلك كثيرا، فهو يحبني، وهي لا تعرف شيئا من هذا الذي جمعني وإياه، مسكينة هي، نثروا زهرتها بالغصب الذي تعرضت له، ثم ما هذا الذي يحدث بين شخصين أحدهما تكسر وعاء قلبه، إن الذي حدث لا يعني شيئا لأن تلك المرأة لا يمكن أن تحب، فهي لم تزد على أن رمته بأوساخ. وبإمكانه أن يغتسل، وأنا أستطيع بحنوي أن أعيد قلبه إلى سالف طهارته.

أستطيع أن أفتح الباب الآن وأبحث عنه وأدخله وأتصرف كأن شيئا لم يكن. سأغلب خجله وأذهب ارتباكه ولن أترك له حتى فرصة الاعتذار، لكن أتراه جالسا عند الباب ينتظر أن أفتح له ؟ أم تراه ما يزال حيث وجدته ؟ أم أنه خرج وأخذ طريق الشمال كما فعل بيدرو الذي فر من عار بنته الشقية. إنني أعرف شدة حساسيته، فهو الآن متضرر القلب، مختنق التنفس، يركبه الألم الممض ويعصر كبده شديد الندم، أين يغيب عن الإنسان كيانه عندما يرتكب الذنب ويخون نفسه، وماذا يكون اقترف حتى يحال بينه وبين قلبه. يظهر أنني لا أستحقه، فالذنب ذنبي وإلا فلماذا أصررت على أن أسكن به بين هذا الحطام النسوي الرث، بين مخلوقات يتحدين البؤس بإظهار أنواع الخلاعة ويغالبن انكسارهن بقولهن : لاشيء يهم ولاشيء يخجل منه ! إنني سكنت هنا وأصررت على البقاء فيه اعتقادا في صلاح أبي موسى، وعلي يعلم ذلك. ولكن عليا لا يعرف كل دين أبي موسى علي أنا، وهل أبو موسى يعلم ما الذي وقع الآن أو كان يقع من قبل ؟ أنا لا أعلم. ولاشك في أن له قوة في الكشف عن أسرار الناس، بل وتصرفا في أحوالهم، وإلا فكيف أنقذني من العامل في تلك الليلة! الحل بين يديه الآن ولن يردني، وسأجرؤ على إخباره بما فعل علي بي بعد كل الذي فعلته من أجله، والواقع أنني لم أفعل شيئا من أجله بل كل ما فعلته كان من أجلي لأني أحببته كما أحب نفسي، وهو تحمل كل شيء من أجلي، فلولاي لما تعرض لمضايقات العامل ولما خسر في التجارة، ولما اتهم زورا ووضع في السجن، كل هذا لا معنى له إذا كنت لا أعرف قدر إحساسه بما كنت أعطيه من حب، لعله كان يجاريني ليس إلا، وحبه هو قد يكون مجرد وهم بنيته لنفسي لأنني كنت أبحث لحبي عن محل ولعواطفي عن قيتارة ألحنها عليها. لن أذهب إلى أبي موسى لأن

هؤلاء المختارين لا يقتحم خباؤهم ولا يقصدون لقضاء الحوائج كما يقصد الناس العاديون. فلو رأى ما يوجب تدخله لتدخل، وقد يكون في الذي وقع خير لا أفهمه الآن. كل هذا هراء، لماذا لا أخنق بنت بيدرو وألقيها من أعلى ممشى في الفندق إلى وسط باحته كما فعلت الأخرى بالأخرى. سأكون امرأة عندئذ، لكن لماذا انتظرت كل هذا الوقت وتحملت كل الذي تحملته لأنتهي إلى مصير امرأة عادية، تغار وتقتل من أجل ذلك. لو فعلت لأعطيت للقدر مجرى لا حصانة فيه، وسيتحقق به للعامل مراده في سجني أو في ضمي إلى حريمه بعض الوقت ثم إلقائي بعد ذلك لكلابه. لو فعلت لأزريت بمبرة السلطان وبحكمة الفضليات اللائي ربيت معهن، الطاهرة وأم الحر. هذا ابتلاء ! ترى لو صبرت وأفوض أمري إلى الله. ترى لو صبرت.

استولى عليها كابوس شككها في إيمانها بنجاعة الخير، واعتراها وسواس وكأنه أعشاب ضارة توشك أن تختف ورود الطيبوبة في تربة قلبها، وقالت في نفسها : إنها فضيحة ! إنها فضيحة أنني لم أعرف اللذة إلا في العطاء ! ذلك ما عرضني للخيبة، وها أنا أتعرض للعذاب. لقد أهدرت فطرتي وبذرتها في آمال كانت كل غايتي فيها إرضاء الآخرين، ورفضت دوما أن أقر بأنني مجرد امرأة ضعيفة ساذجة. فمثلي من تضيق الحياة ذرعا بأوهامهن.

كانت تريد بهذه الخواطر أن تستقر على فهم نهائي لواقعتها حتى تعيد ترتيب علاقتها بالحياة. أحست وكأن قوى شريرة تعاكس طبيعتها وتريد أن تضطرها إلى الانكفاء إلى قفرها الداخلي وأن تجعلها تتوقف عن كل عطاء. فهي تريد أن تعزي نفسها بكونها سيئة الحظ، حالها حال كثير من الناس. فحتى لو كان من يستحق عطاءها موجودا فإنها قد تكون تخالفت معه منذ

الموعد الأول، وهاهي تعود لتعيب على نفسها ما ظنته شدة اندفاع نحو الناس. شكت مرة أخرى في أن تكون قد قدرت جيدا مدى وسع من كانت تحسب أنها أعطته بلا حساب، وتذكرت مواقف بعينها في حياتها مع علي فأدركت الآن عن بعد أنها كانت تخنق الرجل لما كانت تجره في هذيانها لتخرج به من جاذبية الزمان والمكان. فهو كان مجرد رجل مسكين من جملة من يمتلئ وعاءه بقطرة واحدة من ماء، وهي كانت تريد أن يشرب معها البحر. لم يكن يقدر هو إلا على وصل فاتر عابر وهي كانت تظن أنها من فرط الذوبان العاطفي بينهما كانت وإياه قاب قوسين أو أدنى من مقام الحلول، نعم، الحلول الذي في وصف قصيدة للششتري حفظتها من سيدتها الطاهرة.

اخترقتها كل هذه الخواطر كالنار تشد في الهشيم، ثم عادت وتمسكت بما ربيت عليه من مجاهدة النفس ثم قالت في نفسها : أعوذ بالله ! إنها الغيرة تستبد بي، وهي تفضح دعواي في العطاء. إن هي إلا الأنانية، إذ الواقع أنني كنت أخذ لا غير، وإلا فلم هذه الغيرة القاتلة !؟

تقلبت على الفراش ثم تقلبت وقامت كالمذعورة تجيء وتمشي في الغرفة، ثم استلقت مرة أخرى على وجهها وبكت بدموع مختنقة ثم انفجرت بالبكاء والعويل وهي تفكر في أمها وتتحدث إليها بالشكوى كما لو كانت أمامها. وذهبت في ضعفها وانحلالها النفسي إلى أبعد الحدود. ثم هدأت وسكنت وقامت وفتحت الباب وشمت هواء تصاعد من ساحة الفندق برائحة بهارات وحناء، ثم شعرت فجأة وكأن قرنا من الزمان قد مر على واقعتها.

أذن المغرب بقليل ودخل علي. ولو رفعت إليه بصرها لرأت ما يدل على أنه دخل الحمام قبل أن يمر إلى الجامع، ولكنها لم

تفعل ولن تفعل في الأيام المقبلة. لم تنظر إليه ولم تمكنه من النظر إليها. لم تكلمه ولم تترك له فرصة للكلام. لكن وجهها لم يكن يحمل أي علامة للحقد أو الضغينة، وحركاتها لا تدل على عنف أو غليان في دخيلتها، بل سكون واستسلام.

شعر علي وهو تحت ثقل خطيئته في تلك الأيام. وكأنها تمتلك زمام حركاته وسكناته، فلم يجرؤ على أن يعبر عن شيء. ود لو يبكي أمامها فلم يفعل، وود لو يسجد ليطلب عفوها فلم يفعل، فهو كالمصلوب وإن كان يمشي ويجيء. وظن أن الأيام ستصلح ما فسد، ولكنه يشك في أن يكون كل ما في الأمر هو إصلاح شيء فسد. فهو قد نمى حاسة حدسه بقربها وبتربية أخلاقها، ولديه فكرة مؤكدة عن قوة شخصيتها، لذلك كان يخشى أن تكون قد رحلت، أن يكون الذي بقي معه منها أقل بكثير كثير من الذي كان.

بحث علي عن أبي موسى ليخرج بصحبته إلى البحر فلم يجد له أثرا في تلك الأيام، وتأكدت خشيته في أن تكون شامة قد رحلت بروحها معه لتسكن جوار البحر ولتلقي بنظرها بعيدا إلى الأفق بعد أن تكون قد أدارت ظهرها إليه، إلى الماضي والحاضر معا.

33

مر شهر وأيام على تلك الواقعة وشامة تنتظر أن يعود إليها شيء من نفسها الداخلي لعلها تستطيع أن تعالج عليا وتعيده إلى محله الذي كان له أو إلى محل آخر في وجدانها. فإذا بالخبر يشيع في الفندق : خوليا بنت بيدرو تعاني من مرض شديد. زارها الطبيب الذي عينه العامل لفحص ساكنات الفندق كل شهر وأمر بنقلها إلى حارة الجذمى خارج السور. لم يكن بها جذام ولكن مرضها البادي في احمرار جلدها مما يقتل ومما يعدي الأزواج إذا انتقل إليهم من شريكاتهن، وقال الناس إنها عرفت مرضها منذ سنوات ولا تظهره، وأن عددا من الرجال الأجانب قد يكونون تأذوا من دخول هذا الفندق.

سمع ذلك علي وتحقق منه وعرف الذي يعنيه المتقولون، وأدرك أن يدا عليا تدخلت لتضع حدا لنعمته بشامة، ربما لأنه لا يستحقها، فهو أحس دوما بضياعه في وسعها اللامتناهي كقشة في فضاء سحيق. لقد قضي أمرهما بهذا الحدث المرعب ولم يبق له سوى أن يضع حدا لكل شيء. وذات صباح خرج من المدينة ولم يعد، ونقل الناس لشامة أنه شوهد في مجاز النهر الكبير شمالي المدينة وفوق كتفه جراب وهو في طريق الشمال.

قالت شامة وحواسها قد تبلدت : ماله ذهب ! ماله ذهب ! كان عليه أن يبقى، من غيري أولى بتمريضه ! من أي شيء خجل ! ألسنا هنا في فندق العار ؟ ألسنا نشهد كل يوم مغربات من صنيع الأقدار ؟ أم تراه عاد بجرثومة دائه إلى مسقط رأسه ! الآن بدأت أفهم، لقد كانت بنت بيدرو تكره أهل هذا البلد، ولذلك كان عشيرتها من تجار بر النصارى وهم الذين حملوا إليها تلك الجرثومة، ولما هجروا الفندق، صممت على الإيقاع

بعلي، فقد كان بالنسبة إليها من جملة العلوج في بر المسلمين، لا تعير كبير أهمية لدعواه باعتناق الإسلام، لماذا حرمني من الوقوف عند قبره إن تيقن أنه سيموت كما ستموت. هل كان متيقنا من أن أيامه في هذه الحياة أصبحت معدودة، لماذا استبعد كل أمل في الشفاء ؟ ألم نشهد معا أمورا من قبيل المعجزات ؟ أليس هذا الرجل الذي نساكنه ممن ينتمي إلى عالم الكرامات والخوارق ؟ أترى إيمانه كان يضيق عن هذا الخيال ؟ ماله ذهب ؟ ماله ذهب ؟

في جوفها اليوم فراغ بعمق هوة الصمت وقرارات الزمن، والفضاء من حولها خلاء تحوم حوله آلاف الكواسر، ومجاهيل الأيام حبلى، فما عساها أن تضع من مُغرب بعد كل الذي جرى. هي بحاجة إلى ملجإ، إلى حب. وتمثل لها إهاب مولاتها الطاهرة زوجة القاضي ابن الحفيد تقتعد أريكة السمو وتتفرغ من علي مقام الصبر إلى إنفاق المحبة على الآخرين، وترفل في حلى التبتل. فشامة تريد أن تتلبس بحالها في هذا المقام الذي رأتها فيه، وتذكره جيدا يوم قرر زوجها ابن الحفيد أن يعرس بزوجته الثانية، فلم تستشط ولم تغضب، ولكنها تخلت عن أمور وكأنما اكتفت منها أو أعرضت عنها، وظلت تعطي وتتوهج إلى أن أسلمت الروح.

تلبست شامة بحال مولاتها الطاهرة، ورضيت وسمت فوق ماضيها بمرور الأيام، ولم يجد في حياتها غير أمرين، تكليف النقيب خادمة من عنده تشاطرها مسكنها بالفندق تأتيها كل عصر وتنصرف من عندها كل صباح، وعناية أبي موسى بحالها، فكان يأتي إلى باب غرفتها مرتين أو ثلاث مرات في كل أسبوع ليدق حتى إذا أطلت سلم عليها وردت وتبسم في وجهها وانصرف.

لم يفعل ذلك قط من قبل، وهذا الالتفات بالنسبة لشامة دليل على أن هذا الرجل يعرف كل شيء، يعرف أنها من أجله بقيت في أتون محرق وسط خلاعة الفندق، ويعرف الذي وقع لعلي، ويعرف أنها صححت اليأس من كل أمل ولم تعد تنتظر شيئا، ولكنها راضية، ولعل هذا هو شرط التفاته إليها، ما أرحمه ! ما أرحمه ! ما أقساه ! ما أقساه !

إنها على يقين اليوم أن قدرها منذ كانت وقبل أن تلقاه بسنين تصرف على يدي أبي موسى، فهو حرزها والعين الساهرة عليها. كانت غافلة عن الغاية التي من أجلها صاحبتها إلى الأطراف الشرقية امرأة من البلاط تبدو وكأنها وصية عليها دون أن تشعرها بشيء، وهي تستطيع الآن أن تجزم أن تطليقها من الجورائي كان قد دبر في البلاط لتدخل في الحريم السلطاني لأن جرمون كتب يصف محاسنها إلى صاحب شرطة الحضرة في فاس، ولتهيئ تطليقها عوتب الجورائي على ذلك الزواج في مجلس من مجالس الندماء والمتملقين، ولذلك قال لها الجورائي : حفظك الله من الذئاب، ولذلك خاطبها باسمها الأصلي "شامة" وهو يخبرها بترتيبات الخروج إلى حملة الأطراف الشرقية. فهو كان شبه موقن بأن الحلم الذي بناه لنفسه معها تحت اسم "ورقاء" صائر إلى زوال. ولعل تدبير الإمارة كان من باب إصلاح المظالم، لأن أصحاب الشرطة يكونون رفعوا ما يفيد أن الجورائي لم يكن يقوم بجميع واجبات الزوج نحو زوجته. ولكن موعد تنفيذ ذلك التفويت كان قد حدد لما بعد الفتح، فتح القبائل التي من أجلها زحف الجيش الجرار التي رأت جحافله يومين كاملين بليلهما في تازة، وسمعت قعقعة عدته وسمعت منشديه المحرضين، وتعجبت من آلاف أحمال ميرته التي مرت ومئات المؤذنين الذين كانوا يعلنون فيه عن أوقات الصلاة. فهل يا ترى كانت من الجوائز

التي حضرت إلى هناك لتقوى بزواجها متعة النصر ؟ وهل انهزم السلطان بذلك الجيش العظيم لكي ينشغل عنها وينصرف، وبذلك تحفظ هي مما كان ينتظرها من الغصب والعدوان ؟ وهل كارثة الأسطول هي التي فوتت عليهم في النهاية ذلك التدبير ؟ إنها مبالغة وأنانية أن تخطر ببالها هذه المناسبة بين ضياع ملك وإنقاذها هي من الغصب، لا، إنها ليست مبالغة ! أليس غصب نفس واحدة كغصب النفوس جميعا ؟ فليغرق عشرون أسطولا ولتسلم كرامة شامة.

كانت شامة تشعر وكأن المدينة تلاقي نفس مصيرها هي، وأنها تتألم لآلامها، ولربما فكرت أنها هي التي تقمصت مصير المدينة، أوهما مشتركتان في عبء نزل من أعالي سماء العدل. غير أن شامة تهرب من محنتها بالترفع والمدينة تنبطح وتتدنى، فقد أدبر عنها الرخاء منذ هجرها التجار، وفي كل يوم تتعمق كلومها وتتنتن. فكل شيء فيها في انعكاس وانقلاب.

34

مر فصل شتاء ولم تمطر السماء، وفي آخر الصيف أمر العامل بأن يفتح الخزانون مطامير زروعهم، ولكنهم غالوا في أثمانها. وفي الخريف ماتت بنت بيدرو، تناولتها العلة حتى تفسخت أطراف من لحمها. ورفض ناس أن تدفن في مقبرة المسلمين، وتوقف القاضي والعامل في الاستخفاف بموقفهم خوف الفتنة، وخيف أن تزيد نتانة الجثة وهي في حانوت تحت جدار حارة الجذمى. ذهبت شامة تتضرع للنقيب في أمر دفن بنت بيدرو مع المسلمين، وجمع شهودا ذكروا استنادا إلى بعض سلوكها أنها ماتت على الإسلام، ودفنت في مقابر المسلمين وحسم الأمر.

توالت أيام الصحو عاما كاملا في سلا وفي عدد من جهات البلاد، وتلبدت غيوم في خريف العام الموالي ثم تبددت برياح هوجاء كسرت عددا من الشجر، وضجر الناس من أن ينظروا إلى زرقة السماء كل يوم، وغارت مياه جميع الآبار، ونفد ما كان من الماء في النطافي، وشحت العيون التي كانت تسقي سواني سلا وتدور على خيرها النواعير لتنبت الحرث والثمر والزهر. ولم يعد أحد يقر بأن في مطاميره بقية من الزرع، وصوح نبت عدد من المراعي في الغابات المجاورة، وتكرر شب النيران في هشيمها، وكانت المواشي بقلة العلف في ضمور مستمر. أغنام أتى على كثير منها الذبح ولا تتجدد، وأبقار جفت ضروعها ولم يعد يكسو اللحم ضلوعها، وحمير وبغال لم يعد يحمل عليها أو يركب. تقضي أيام القيظ تتمرغ في الساحات تثير الغبار وتعاني لسع ذباب سامة ضخام، وكلاب هجرت بكثرة حراسة قطعان غنم منقرضة وجاءت إلى المدن تبحث تحت أسوارها عن الجيف حتى خيف منها على

نبش القبور. والطير تحلق طويلا قبل أن تجد غصنا مورقا تحط عليه أو حشرة تخاطر بالخروج من مخبئها.

ضاق الحال على الناس في بداية العام الثالث من المحل، بقلة الطعام وغلائه، ولم يفد شيء في شراء الخبز ولو كان الثمن أساوير من ذهب. واتهم العامل جرمون بعض الناس بالتقعد على الزرع فامتحنوا ولم يوجد عندهم شيء، وانتظر الناس ركب جمال تحمل زرعا باعه بعض تجار سلا من نصارى وصلوا به إلى طنجة، لكن الركب لم يصل لأن قطاع طرق من أعراب الصحراء تعرضوا له وقتلوا خافرته ونهبوه.

بيعت الحلي وأثاث البيوت بأدنى الأثمان، وبيعت الأطيان والرباع. ولم تعد توقد أنوار في الليل لأن الناس خصصوا ما بقي بأيديهم من الزيت للقوت. وأكلت النخالة وقشور الفول إغريض الدرة وعجم النبق وحب الخروب. وشاع أن من يختلفون ضيوفا إلى فندق الزيت كان الواحد منهم يحمل حفنة كسب الزيتون أي ما تبقى منه بعد عصره. ونقب عن عروق بعض النبات فيبست وطحنت وسفت.

كن يعتصرن من ذلك الكسب ما تبقى من الزيت ليهيئن به أشهى ما يؤكل في تلك المدينة الجائعة: سمكتان لكل امرأة في الأسبوع يأتي بهما أبو موسى ويضعهما عند باب كل غرفة منذ بدأ اشتداد المجاعة، وكأنما كان يرعى جاراته ويعرف أنهن معرضات للهلاك أكثر من غيرهن في هذا البلد، وفي كل شهر كان يدفع للواحدة منهن مدا من دقيق عروق برية تصلح أن يصنع منها خبز لا أطعم منه ولا ألذ.

من قبل كانت شامة وحدها تصاحب بوجدانها هذا الرجل وتعيش على السر الذي لم يطلع عليه أحد بينهما، السر الذي عزمت على أن تحكيه يوما لعلي لولا أنه هاجر: سر تخليصها

من مراودة جرمون. أما اليوم فكل جارات أبي موسى يعشن عيانا من فضل أبي موسى ويسألن أنفسهن كيف يقدر على جمع هذه الميرة وحده وغيره من شداد الرجال يتضورون جوعا، ولا يفهمن كيف يخرج وحده ويسير في مسالك خارج الأسوار صارت ممتنعة حتى على عصبة يحملون السلاح. المهم أنهن تنبهن إليه بعدما كن عنه لسنين منشغلات بشأنهن. والمهم أنهن يعرفن أنه من أولئك النوادر الصالحين في الرجال، وهن أعرف من غيرهن بقيمة هؤلاء وندرتهم، بل تيقنت كل واحدة منهن منذ عرفت المصير الذي جاء بها إلى هذا الفندق أنه لم يعد على الأرض صالح ولاسيما من بين الرجال. فقد يكون هذا منهم، كن يمضين ويمضي ولا يلتفت أحد لأحد، تبدو بينه وبينهن مسافات ما بين الأرض والسماء، ومن المفارقات أن إدبار السماء عن الأرض منذ انحباس الغيث هو الأمر الذي جعلهن يكتشفن جارهن أبا موسى. الشدة قربته منهن أو قربتهن منه، فما أدناهن أمام سموه ! وما أعظم خجلهن عند رؤيته كل يوم !

قل الأمن وصارت كل الطرق مخوفة، ولم يعد من بداخل السور يختلفون إلى أجنتهم. ونهب من خرج في ركب الحج رجالا ونساء، وعادوا حفاة عراة جائعين. وحدث ما هو أعظم في فصل الشتاء الثالث لانحباس المطر، فقد أكلت الجيف وأكل الآدمي حتى أكل الصبيان، عرف الناس ذلك واستحلوه، ولكن جرمون أرسل أعوانه للقبض على امرأة قال جيرانها إنها أكلت صبية. وأطلق الإعلام لجمع الناس لرجمها فرجمت. وسقط برقع المروءة عن وجوه كثير ممن كانوا ينسبون إلى العفة والدين، حتى إن نقيب الشرفاء على جلالة قدره لم يتمالك أن بصق في وجه قابلة جاءت تظن أنها ستزف إليه خبر خادمة رزقت بمولود وكانت من قبل أثيرة عنده. وكثر الصخب والفحش في كلام الناس، وكاد

يزول الوقار بين الوالدين والولدان وبين الكبار والصغار وبين من كانوا يعدون من الرعاع ومن كانوا يحسبون من أهل الحرمات.

بدأ الموتان في فئات من الناس واستفحل، وفرغت بعض الأرباض من السكان، وكانوا يدفنون بلا كفن ولا صلاة. وقيل إن أكثر من تفشى فيهم الموت سكان أحياء شاع أن بعض من فيها أكلوا الجرذان. وجرب الناس الهجرة إلى بلدان أخرى فتوقفوا بسبب الخوف والقتل والنهب، ولأن الأخبار المرعبة تفيد أن المسغبة كادت أن تكون عامة.

وفي ذلك الشتاء الثالث سخرت السماء وقهقهت برعدها فوق رؤوس الناس غير ما مرة، وتجمعت غيوم وانقشعت لا عن شيء نافع. تجهمت السماء مرارا بضباب أسود يظن أنه مليء الوطاب، فلم يرخ سوى قطرات ساخنة مليئة بغبار طين أسود، وتيقن الناس من هذا المكر أنهم ينهرون ويسبون ويشتمون ويشمت بهم...

35

خرج الناس في سلا لصلاة الاستسقاء مرات عديدة منذ انقطاع المطر، ولم تأت صلواتهم بشيء مع تعدد الأئمة المقدمين وشهرتهم عند الناس بمتانة الدين. كان الناس يقصدون المساجد بكثرة غير معتادة، وكان يؤتى إليها ببعض الطعام صدقة. وكان الوعاظ يتناوبون على المنابر وكلهم يفسرون البلاء النازل بالعصيان الذي عليه العباد. وقد خطب شيخ جماعة العلماء يوم جمعة على غير عادته، ففسر انحباس المطر بكثرة المناكر.

وفي عصر ذلك اليوم استدعاه صاحب الشرطة وطلب منه أن يشرح له ما يقصده بكثرة المناكر، وهل يقصد بذلك المكوس التي

تجبى للسلطان بأمره، وهل يقصد به برور العامل بجماعة من النساء الأرامل الغافلات المستضعفات اللائي أسكنهن فندق الزيت من باب الإحسان والرحمة ومن باب صيانة عمارة الفندق في انتظار عودة التجار، وسأله هل يقصد حزم عامل السلطان في الضرب على أيدي أهل الزيغ والجراءة وذوي النفاق والمغرضين.

أجاب شيخ الجماعة بأنه لم يقصد شيئا مما ذكره صاحب الشرطة في أسئلته. ولما نمي جوابه إلى جرمون أمر بأن يكتب على شيخ الجماعة إقرار يتلى في المساجد ويكون من جملة ما فيه أن ينسب إلى شيخ الجماعة قوله : إن أعظم المناكر المسببة للبلوى ومنها انحباس المطر، كثرة الجراءة على الحكام وعصيان أوامرهم وارتكاب ما ينهون عنه وعدم إعانتهم على أداء مهمتهم المقدسة.

ولم يكتف العامل جرمون بهذا الإقرار بل أمر بأن يخرج الناس لصلاة استسقاء يكون إمامهم فيها شيخ الجماعة، إذ لم يسبق له فيها الإمامة من قبل.

خرج الناس بكثرة إلى خارج باب سبتة من جهة البحر، وصلوا صلاة الاستسقاء بأمر العامل. وكان الإمام كما أمر هو شيخ الجماعة، لكن الغيث لم ينزل، بل هبت ريح عاتية سقطت على إثرها ضفادع وحجارة من السماء. وإثر ذلك أمر العامل أن يلزم شيخ الجماعة داره ولا يقف بعد ذلك على منبر وعظ.

فعل العامل مثل ذلك بعدد من المتكلمين في الوعظ وشئون الدين، حتى أسكتهم، وعظمت المحنة ووقع الناس في خبال ولم يدروا إلى أي قبلة يتجهون. عندئذ أشار على العامل أحد الفجرة من جلسائه بأن لا يضيع الفرصة المواتية للإطاحة برأس شخص يعاديه في الخفاء وقد يشاركه في الهيبة التي لا يجوز أن تكون لغيره في قلوب الناس، ألا وهو أبو موسى، الرجل المهمل الذي

يسكن فندق الزيت، وختم هذا الناصح وقال : إذا كان له من كرامة فليظهرها في رفع ما نزل بالناس وإلا فلينف من هذا البلد.

أرسل العامل إلى أبي موسى يأمره بإمامة الناس في صلاة الاستسقاء يوم الجمعة القادم. تسامع الناس بذلك الأمر، فأخذه بعضهم من باب الطرافة والمزاح، وأخذه بعضهم من باب المنكر والإغراق في النكاية كما هو معتاد في سلوك هذا العامل، وقال ناس آخرون، إن أبا موسى سيستجاب لنا بالصلاة من خلفه إذا كان بالفعل يحسن أن يقيمها. أما أبو موسى فلم يرد بكلمة على من بلغه أمر العامل، واستمر على حركته المعتادة كل يوم وعلى قضاء اليوم في المغارة بجانب البحر وعلى الاقتيات بالعساليج. ولما لم يحضر يوم الجمعة في موعد الغروب، أمر العامل بالقبض عليه وسجنه.

بكت شامة لذلك، وسمع بسجن أبي موسى نقيب الشرفاء وعدد من وجوه المدينة فذهبوا يتشفعون للعامل في تسريحه. وقبل العامل أن يخلي سبيله شريطة ألا يعصي أبو موسى أمره في إمامة صلاة الاستسقاء دينا عليه لجماعة ممن يعتقدون أنه من المقربين وأهل الكرامات.

قابل المستشفعون أبا موسى في سجنه وكلموه في ما ينبغي من الامتثال، وأومأ برأسه علامة على القبول وتبسم، وأبلغوا العامل، وفي آخر ذلك اليوم دخل أبو موسى إلى الفندق بعد تسريحه. ولما أراد في غده أن يخرج كعادته إلى مغارته بجانب البحر حال حراس الباب الشمالي دونه والخروج بأمر من صاحب الشرطة حتى يمر يوم الجمعة الذي فيه سيؤم الناس.

36

في ضحى يوم الخميس دق أبو موسى باب شامة وخرجت لترى بهاءه في جبة نفيسة بيضاء وسلهام أبيض وعمامة خضراء وبيده عكاز. وقف أمامها وهي تنظر إلى عينيه الرحيمتين ووجهه النوراني الذي لم يتسن يوما لأحد أن يتفرس فيه من عادته في الإطراق وغض البصر. وقال : اخرجي معي سيدتي نسأل ا لله الغيث. وقولي لجاراتنا يخرجن معنا.

لم يكن أحد يسمع هذا الرجل يتكلم، وشامة تسمعه يتكلم وكأنها لم تفاجأ لأنه يسكن صدرها من قديم؛ فهي حامل في وجدانها بمعناه منذ سكنت هذا الفندق، فما أسعدها اليوم بأن تشهد من جديد أن عينه ترعاها وأن همته تهيمن على مصيرها. وكيف وهو الآن يأمرها بأمر أو يتوسل إليها في أن تشاركه في خروجه المفروض عليه من العامل، الأمر الذي مرضت به منذ أن علمته. ستخرج معه، وإذا لم ينزل الغيث فهي تتمنى أن تدخل السجن معه، وهي تعلم أنه لم يتصدر لهذا الأمر من نفسه وإنما أكره عليه، فالذي سيؤم الناس ويتصرف لن يكون أبا موسى نفسه بل هو القدر. لكن الموعد الذي أعلم به الناس هو يوم الجمعة، واليوم يوم الخميس، ثم إن أبا موسى ستخرج معه هي وجاراته، لاشك أنه تلقى بذلك أمرا، وسيراه الناس يمشي في الأزقة ويتضرع ومن خلفه نساء طالما اعتقدوا أنهن مسكونات بالشيطان، فلعله يريد أن يسخر منهم جميعا كما سخرت منهم السماء غير ما مرة، ويدخل السجن بعد ذلك إلى الأبد.

دارت كل هذه الخواطر في نفسها وهي تجدد وضوءها وتخلع على نفسها بدلتها وإزارها. وما أن خرجت إليه حتى كان قد ضرب بعكازه على أبواب كل الأخريات وأخرجهن، وهن بين

باكية ومشدوهة، فلا واحدة منهن فكرت يوما أن هذا الرجل الطاهر الناسك قد مر عليه يوم أو ليلة دون أن يلعنها ويستدر المسخ عليها بأفعالها وإن كان في زمن المجاعة قد رعاهن برفده. وقفن لا يقدرن حتى أن يكلم بعضهن بعضا كفراخ طير سقطت من أعشاش، وهن لا يدرين ما الذي سيحدث.

ظهرت شامة في حلتها وجعلها على يمينه وتقدم بهن وخرج وخرجن من الفندق وقصد بهن فندقا آخر تسكنه مثيلات لهن في المصير، وطلب خروجهن وخرجن. رأى الناس ذلك الجمع الغريب يمر فتعجبوا وتخابروا وتحاوروا، وتقفوا تباعا جماعة أبي موسى من بعيد ينظرون، ووصل الخبر إلى العامل فأرسل رهطا من عيونه ليراقبوه.

خرج أبو موسى وجاراته من الباب الشرقي والبوابون لا يقدرون هذه المرة على حبسه ومن ورائه جم غفير متدافع من الرجال والنساء، وفي فضاء المصلى خلع أبو موسى عمامته الخضراء وكشف عن رأس أشعث. وبدأ يتضرع والنساء يرددن من بعده ويطفن من خلفه وكأنه يطوف بقطب في وسط المصلى ويقول :

سبحان الله العظيم...
اللهم ارحم ضعفهم...
سبحان الله العظيم...
اللهم انظر إليهم...
سبحان الله العظيم...
اللهم ارحم ضعفهم...

تعالى صوته، وتعالت أصوات النساء من خلفه، وما منهن إلا وأجهشت ببكاء حار، وما منهن إلا ذرفت دمعا جرى كالسيل من مآق كان يظن بها أنها جفت إلى الأبد. وما لبثن أن تلبسن

جميعا بحال وجد عنيف، يجرين في ذلك الطواف بجري أبي موسى وكأن أقدامهن لم تعد تمس وجه الأرض، وتطايرت نعالهن فإذا الجميع حافيات. وسقط عن كل إزارها علامة على غيبوبتها. وكأنما يتطهرن بتلك الغيبوبة، وأكفهن مرفوعة إلى السماء وعيونهن كأنما تنظر حولهن ملائكة نزلت حتى قاربت الأرض من السماء. وامتد حالهن الوجداني إلى من كانوا يرقبون من على حافة المصلى من آلاف الرجال والنساء، تعالى التهليل والتكبير. وتعانق الناس وكأنهم قد تحرروا من سلاسل جهنم وهم لا يدرون كيف جرى كل الذي وقع، ولماذا.

شاع الخبر أن أبا موسى خرج بجاراته إلى المصلى لا للصلاة على الوجه المعتاد، بل للاستغاثة في المطر بالتضرع، وخرج للحاق بالمصلى من صدق ومن لم يصدق، من ظنها من شطحات بهلول ومن قدر أن يكون خروجه بجاراته المعروفات من جملة سخرية الأيام بأهلها. ومنهم من قال إن البغلة ستلد هذا اليوم، وفكر ناس آخرون وقالوا : لم يبق غير هذا الرجل ليطلب به الغيث بعد انكشاف كل الأتقياء، ولم يبق من يؤتم به غير هؤلاء النساء بعد أن عفرنا الجباه في التراب ويئسنا من الاستجابة. ترك أهل الحوانيت تجارتهم وخرج الرجال وتبعتهم حتى ربات الحجال، وعند الظهر كان أبو موسى ما يزال في طوافه بالنساء، ووجده ووجدهن يزيد، وهو يرفع بنفس الدعاء عقيرته وحوله حشر من الناس يرقبونه من بعيد، ودخلت معه ذلك الميدان أمام المتفرجين حلاق من طوائف أهل النسبة في الذكر وأنشد حذاتهم وهيجوا الأرواح وانخرطوا جميعا في ذكر واحد تهتز له جنبات تلك الساحة وهم يرددون لاهجين خاشعين غائبين عن أنفسهم : هو هو، هو هو، هو هو ... وسقط بعضهم على الأرض يتمطى كأنما يعفر الخد في الأرض انكسارا يطلب عفو ملك من الملوك. وأراد

بعض المشاهدين أن يسقوا من سقطوا فاعترض عليهم أقطاب أولئك القوم وقالوا : لا تسقوهم فهم يسقون الآن من رحيق سلاف الجنة. وقال آخرون : دعوهم في غلتهم حتى تشفق السماء من عطشنا جميعا.

ولما أذن العصر، رفع أبو موسى يده اليمنى وفرد بسبابته وقال بأعلى صوته حتى سمعه الجميع : محمد رسول الله ! وكأن في تلك الكلمة سر ختم تواضعت عليه الأرواح، فتوقف عند سماعها الجميع في الحين، وخرجوا من غيابات الوجد وسكنت تلك الأحوال، وانفض من في الحلقة وتسابق الناس ليعانقوا أبا موسى فغاب بين أيديهم. تخطفوه وأقبل الناس عليه يتمسحون به ويقبلونه ويقطعون من ردائه وينتفون من زغبه وهو صابر يعانيهم، وتهافتت النساء على النساء كما لو كن من ملائكة الرحمان، كل تريد أن تفوز بواحدة منهن لتكون ضرة لها.

وهاج الناس وماجوا ورجعوا إلى المساجد ثم دخلوا بيوتهم ولم يدروا أيتحدثون أم يصمتون في انتظار.

وما أن انفضت تلك الجموع حتى قام جرمون يلم كبار أعوانه ومستشاريه وعلى رأسهم صاحب الشرطة، وتحدثوا له عن تفاصيل ما جرى وأخبروه بخبر كل واحدة من نساء الفنادق والبيت الذي آواها في المدينة على سبيل الحماية والتبرك، وكيف أن هؤلاء الأعوان عملوا بإشارة من صاحب الشرطة على تجنب أي استفزاز للجموع الهائجة حتى لا يتيحوا الفرصة لجماعة يدبرون خفية منذ شهور كيف يمكن لهم جمع حشود يهاجمون بها دار العامل لنهبها على غرار ما وقع في عدة مدن وقبائل منذ اشتداد المجاعة. أصغى العامل إلى مشاوريه من ذوي البصر السياسي ومن المتفقهة. وسألهم عن حكم الذي جرى من خروج أبي موسى بنساء لطلب المطر واتباع الحشد الغفير له من سكان

المدينة.

تدخل صاحب الشرطة ووصف المشهد وحمد للعامل تعليماته بعدم التدخل حتى لا ينقلب الجمع إلى حال هيجان مدمر.

وتكلم المتفقه وقال : اللهم إن هذا منكر ! النساء لايخرجن لطلب الغيث، إنها بدعة، إنها معرة لدينتنا...

وقاطعه صاحب الشرطة في نبرة تهكم، وقال : تمهل في الحكم أيها الشيخ، فلعل السماء تسقينا بدعائهن !

وانتفض الشيخ وهو يظن أن استقباحه لفعل أبي موسى سيدخل الارتياح على العامل، وقال :

لا، والله، لا، فالعبرة بالفعل الأصلي، فحتى لو كان هؤلاء النساء من الفضليات، وحتى ولو صادف سقوط الغيث دعاءهن، فإن الخروج بهن مخالف للمعروف، بل هو منكر، ولئن سقط بصلاتهن غيث فلن ينبت زرعا ولا وردا، وإنما يزيد به السم أفواه الأفاعي.

هنا تدخل أحد مشاوري العامل ليعدد مخالفات أبي موسى التي يتوجب أن يتابع من أجلهن، نزل المطر أو لم ينزل : خروجه في الخميس بدل الجمعة وخروجه بالنساء بدل الرجال وجمع الجماهير من أخلاط الناس حوله مما أنذر بقيام الشغب والفتنة ومخالفة مراسيم الصلاة المتعارف عليها.

أمر جرمون في آخر هذا الاجتماع أن يقع البحث عن أبي موسى ويرصد مقره ولا يسمح له بالخروج من المدينة حتى يرى فيه رأيه.

بحث أهل الشرطة عن أبي موسى ولم يجدوا له من أثر، ولم تعد أي امرأة من نساء الفندقين إلى مسكنها هناك ولم يدر أحد ما عدا عيون العامل أين ذهبت أي منهن. أما شامة فقد دخلت

إلى دار النقيب وهي تنوي ألا تغادرها بعد ذلك.

وفي الليل المظلم رأى الناس في سلا نجوم السماء تختفي بعد توهج، وشعروا بنسيم غربي لم يعتادوه في زمن الشدة، وبدأ المطر قطرا ثم انهمر، وصار وابلا قويا، ولم يصدق الناس ما يرون ويسمعون حتى تيقنوا أنه الغيث، وخرجوا يتعرضون له برؤوسهم العارية ويبتلون تحت رخاته المتتالية، وطرق الناس على الناس الأبواب ليتراحموا وليتعانقوا ويبكوا ويتدبروا ذلك التجلي العظيم وهم يرددون :

الحمد لله، ما يزال في أرض الله سره. الحمد لله الذي أظهر سره.

توالى نزول المطر في الغد دون انقطاع. وفي وقت صلاة الجمعة ذهب الناس إلى شيخ الجماعة الذي حجر عليه العامل وقادوه ليخطب عليهم ويؤمهم، فتحدث وقال : إن الذي حبس عنا المطر هو قساوة قلوبنا، فالغيث رحمة من الله. والرحمة تتنزل في القلوب، وإذا امتلأت القلوب بالدعوى والأنانية انسدت وقست، لم تدخلها الرحمة، فلا بد أن تنكسر وتزهق منها أبخرة المتلكات، حتى ينطبق عليها حكم الله : أنا عند المنكسرة قلوبهم. وذلك حال مثل النساء اللائي رأيتم بالأمس يستجاب لهن.

سمع بذلك العامل وأراد أن يقبض على شيخ الجماعة لأنه تناقض في قوله عندما لمح من قبل إلى أن المطر انحبس بسبب ما كان يفعله هؤلاء النساء من المنكر، لكن جلساء العامل ومشاوريه نصحوه بتجنب ما يثير الفتنة وهيجان الناس مما يؤدي إلى كسر داره ومحاولة قتله.

بحث العامل عن أبي موسى وتطلبه أصحابه في كل مكان. وتسامع الناس بذلك وخافوا على حياة الرجل وأرسلوا يبحثون

عنه هم أيضا في كل اتجاه. وكان الذي وجده هم رجال أرسلهم الشريف إلى سانية أرشدتهم إليها شامة لأنها تعرف أنه يقيل بها أحيانا في طريقه من البحر. هناك وجدوه تحت شجرة رمان فحسبوه نائما. فإذا هو قد أسلم الروح.

37

حمل أبو موسى إلى الجامع الأعظم للصلاة عليه، وقرر ملأ المدينة أن ينتظروا صلاة العصر حتى يشيع الخبر في المدينة، ويكفي الوقت لكل من يريد أن يحضر تلك الصلاة. غصت جنبات الجامع الأعظم وساحته والأزقة المجاورة له بالمصلين، وتصدر لإسماع البعداء عشرات المسمعين. وكانت صلاة خشوع وسكون لم يسمع فيها إلا ما تساقط من جري دموع المآقي وما غلب رجالا أشداء ونساء رقيقات العواطف من عصي النحيب؛ وقال قائل : سبحانه ! سبحانه ! بعودة الغيث عاد الدمع إلى العيون.

وبعد الصلاة تزاور الناس من جديد وتراحموا وتسامحوا وعجبوا لما تجلى لهم من الكرامات؛ وقرر الملأ أن يحمل جثمان أبي موسى في نعشه إلى مقصورة الجامع، وتضاء حوله الشموع ويكلف عشرة من المؤذنين بالتناوب على حراسته إلى الصباح. ولما أرادوا دفنه اختلفت الجماعتان الأصليتان في المدينة؛ كل تريد أن يدفن في مقبرتها لأن مولده أو مقامه في أرضها. وأمهلوه في نعشه إلى أن يفضوا الأمر في غده. واتفق شيخ الجماعة ونقيب الشرفاء على أن يحتكموا إلى التي كانت عن يمينه حين التضرع والطواف؛ ورضي الناس بذلك، وقالت شامة : لا تدفنوه بأي من المقبرتين؛ ادفنوه في مكان يطل على البحر.

هذه الرواية

* شخصية أبي موسى تهيمن على "الجارات"، وهي شخصية لاتخطئها العين في مثل مجتمعات الماضي القريب. تجمع بين الصلاح والحكمة والجذب والشذوذ عن المجتمع االمتفسخ والانزواء والنجاة بالنفس عن سخم الناس. أرسلت إشعاعها على شامة، رغم البيئة التي تربت فيها، وعلى علي رغم الدين الذي كان يدين به، وعلى المجتمع المتفسخ الذي كان يتساكن في "فندق الزيت".. شخصيات متناقضة نفسيا وسلوكيا، فيهن الصالحات والطالحات، وفيهم رجال سلطة واستغلال ومتعة بطيبات الحياة حلالها وحرامها. وفيهم، وفيهن، السماسرة والمتاجرون في المال والأعراض والسلطة. وسط هذا الضجيج الإجتماعي الإنساني الدرامي استطاع الكاتب أن يرسم صورا رائعة عن نماذج بشرية قد تكون عاشت في واقع الحياة – أو ملامح منها– وقد يكون الخيال أضفى عليها حلة شفافة إبداعية، وقد يكون التحليل الاجتماعي أسهم في تصوير النموذج.

* عبد الكريم غلاب
"العلم": 3|2|1999



* شيد أحمد التوفيق روايته على إعادة الاعتبار ل"سلطة الحكي" بمختلف مكوناته وتلويناته، وللحبكة الغرامية بكل أبعادها الإنسانية، بل إنه فتح مجالا للكارثة بمختلف مستويات حدوثها... ومما لاشك فيه أن استعادة الحكي لمواقعه في هذه الرواية لم يتحقق إلا بتضافر بنيات حكائية تراثية كلاسيكية، مع أخرى تاريخية، وثالثة من صميم المحكيات الشعبية، بالإضافة إلى توظيف ذكي لتقنية الانشطار السردي عن طريق تقديم محكيات صغرى متعالقة مع المسار السردي الأساس.

* أحمد اليوري
"العلم الثقافي": 26|7|1997

* ...أما المرمى الثاني في "جارات أبي موسى" فيختص بجماليتها اللغوية والتعبيرية التي هي مهمازها الفني بالدرجة الأولى. فهذه الرواية أو الحكاية ليست مكتوبة بلغة النثر الأدبي المرسل لأيامنا، بل تؤسس أدبيتها باستحضار سجلات اللغات التاريخية، والعبارات المسكوكة، ومدونات الآداب السلطانية، والأوصاف الفسيفسائية، والسبك المناقبي، كما هو في لغة الزهاد والمتصوفة... نضم إلى ذلك كله براعة في السرد الخبري ووصل الحكاية بعناصر تشويق تلهب المخيلة.

* د. أحمد المديني
"الاتحاد الاشتراكي" : 13|12|1997



* إن الحكاية في "جارات أبي موسى" تنسج تفاصيلها بواقعية هادئة ومشوقة يعرف أحمد التوفيق كيف يجعل حبكتها متدرجة في السرد والاستبطان. ولأنها حكاية عن الإنسان و المصير، فهي تختار للوحاتها ومشاهدها مواقف متنوعة لمحاورة الذاكرة والوجدان، متقربة أكثر من تشخيص متخيل موصول بأزمنة وأماكن وأحداث تستلهم تاريخ الكائن، لغاته، أحلامه الدفينة والمصادرة... هناك روايات نكتبها ضد النسيان، و "جارات أبي موسى" إحداها...

* د. عبد الفتاح الحجمري
"الاتحاد الاشتراكي" : 26|9|1997


مطبعة النجاح الجديدة
IMPRIMERIE NAJAH AL JADIDA

أحمد التوفيق، كاتب هذه الرواية، من مواليد 1943، بالأطلس الكبير قريبا من مدينة مراكش. اشتغل أستاذا بشعبة التاريخ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس بالرباط من 1970 إلى 1989 حيث عين مديرا لمعهد الدراسات الإفريقية بنفس الجامعة عام 1989. وفي عام 1995 عين مديرا للمكتبة الوطنية (الخزانة العامة).

قدم رسالته الجامعية عام 1976 في موضوع التاريخ الاجتماعي للبادية المغربية في القرن التاسع عشر. واهتم بعد ذلك بدراسة قضايا تاريخ العصر الوسيط، مثل سيرورة اندماج بلاد من الأطراف في إطار النسق الإسلامي. وفي نفس السياق قام إلى جانب نشر أبحاث تنتميّ إلى التاريخ الاجتماعي، بتحقيق نصوص شهيرة تتناول أدب المناقب والفتاوى.



شامة، هبة من الرب في حسنها وفي مهاراتها، كيف تقلبت في قصور وواجهت أنواع المؤامرات؟ كيف يبرر الحاكم كل الأطماع، وكيف يتهافت القاضي ويضطرب الفقيه؟ ماهو ثمن لذة شامة في العطاء بعد أن اقترنت برجل إسباني حديث العهد بالإسلام؟ لماذا ظلت تصر على جوار رجل لا يكلم أحدا، هو أبو موسى؟ أي مصير ألقى بعدد من النساء في فندق تجارة سلا؟ وأي حكمة جمعت بين رجل يمثل الصلاح ونساء ينسبن إلى السقوط في مصير لفتح أبواب السماء؟

45 د.